مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

سلا ورباط الفتح

أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

الجزء الثاني

(من ستة أجزاء)

1427هـ - 2006م

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

سلا ورباط الفتح

أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

الجزء الثاني

(من ستة أجزاء)

1427هـ - 2006م

أكاديمية المملكة المغربية

أمين السرّ الدائم : عبد اللطيف بربيش
أمين السر المساعد : عبد اللطيف بنعبد الجليل
مدير الجلسات : إدريس العلوي العبدلاّوي
مدير الشؤون العلمية : أحمد رمزي

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062
الرمز البريدي 10100
الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

فاكس 75.51.01 (037)

الكتاب : «سَلا ورباط الفتح، أسطولُهما وقرصنتهما الجهادية»

تأليف : جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق : أحمد بن جعفر الناصري

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2006/1337

ردمك : 9981-46-042-7 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-043-5 (الجزء الثاني)

الفصل الأول

عن مدينة سلا وآثارها
في عهد المرينيين

المبحث الأول

سلا في عهد بني مرين

سقطت الدولة الموحدية، وتحطَّم هيكلها، وانهدَّ صرحها، وانتثر عقدها بسائر إفريقية الشمالية والأندلس، وقامت على أنقاضها دول أخرى جديدة، منها الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، ورسخ قدمها فيه، وسلا إذ ذاك في تقدمٍ وازدهار وتزايد عمران وانتشار، فافتتحها الأمير أبو بكر المكنَّى أبا يحيى بن عبد الحق سنة تسع وأربعين وستمائة (1251/649)، وتاخم الموحدين بثغرها، وولَّى عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق، وعقد له على ذلك الثغر، وضمَّ إليه الأعمال.

وبلغ الخبر إلى المترضى الموحدي فأهمَّه الشأن، وأحضر الملأ من الموحدين وفاوضهم، واعتزم على حرب بني مرين، وسرَّح العساكر سنة (خمسين وستمائة) (1252/650). فأحاطت بسلا واقْتحمتها وعادت إلى طاعته، وعقد عليها لأبي عبد الله بن أبي يعلو من مشيخة الموحدين[1].

ثم حلَّت بسلا الكارثة العظمى، والداهية الكبرى، وهي دخول الإصبان إليها، واستباحتها وتخريبها وإحراقها، وقتل رجالها، وانتهاب أموالها، حسبما سنراه في الفصول الآتية.

استرجاع الأمير يعقوب بن عبد الله المريني لعدوتي سلا والرباط

أقام الأمير يعقوب بن عبد الله المريني بعد انسحابه من سلا يتقلَّب في جهاتها، مترصدًا الفرصة وإمكانها لاسترجاعها.

---

1) ابن خلدون، ص 252-256 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 9-10 من ج 2 طبع القاهرة. وص 22-23، من ج 4، طبع وزارة الثقافة، سنة 2001.

وتمكّن من استرجاعها، ونشأ عن هذا الاسترجاع دخول الإصبان إليها. وبيان ذلك كما جاء في كتاب «البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب» لأبي العبّاس أحمد ابن محمد بن عذاري.

وهو يعدُّ من أهمّ مراجع تاريخ المغرب لاشتماله على وقائع وتفاصيل أغفلها المؤرخون كصاحب «القرطاس»، وابن خلدون.

وقد اطّلعنا على فصول مهمّة منه تتعلّق بالحوادث الحربية بالعدوتين، في عهد بني مرين واحتلال الإصبان لمدينة سلا.

ولاستيعابها وتفاصيلها أدرجناها هنا، مع المحافظة التّامّة ما أمكن على عبارة المؤلف على ما فيها من ضعف وسجع متكلف، وإنّما قدّمنا وأخّرْنَا بعض الجمل والفصول حرصاً على تناسق الحوادث، واتّصال حلقات سلسلتها الزّمانية، قال :[2]

"لما كانت سنة سبع وخمسين وستمائة (1258/657)، رحل يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق من بلاد أبي يوسف إلى جهة تامسنا، برسم الاستيطان بها والسكنى، وبرسم المرعى والكلأ. وقد أضمر التّغلُّب على مدينة سلا، فعبر الوادي من مجاز الرمان[3]، وذلك في إقبال الزمان. واجتمع عليه جملة كبيرة من رجاله وخدمه، وبعض بني أعمامه، أولاد بني عبد الحق، بعد موت ابن عمِّه أبي على عمر بن يحيى، فنزل بمقربة من عين غبولة بدواره، وما زال يحاول هنالك ما أضمره في ليله ونهاره، وكيف يكون دخوله إلى رباط الفتح وسلا من حين نزوله هنالك، واستقراره إلى أن دخل واستولى بكيده عليهما.

وذلك أنّ الوالي الساكن بالقصبة والمكلّف بالجباية، وهو أبو عبد الله بن يعلو الكومي، كان أمره المرتضي بالمحافظة على الثغرين من أي طارق يطرقهما، أو حادث يحدث فيهما من أهلهما، خوفاً من أنْ يخاطبوا الأمير أبا يوسف ويدخلهما، فحفزهما غاية الحفز بالسمّار، في الأسوار، وبما أمكنه من الحفز. وعمل المعارض على كل باب من أبواب العدوتين المذكورتين، وجعل الرُّماة والرِّجال يحرسونهما كلَّ ساعة من ليل أو نهار، ولا يفارقونهما، فما أفادهم حفزهم في نهارهم، ولا حرزهم ليلا بسمّارهم.

---

2) من ص 422 إلى ص 431 من المجلد 3 طبع تطوان سنة 1380/1960.

3) مجاز وادي الرمان، كان يطلق على وادي أبي رقراق، كما كان يطلق على الضفة الموالية لشالة وادي القبط، ووادي أسمير على الضفة الموالية لعين أسمير بعدوة سلا. ومعلوم أنَّ الأودية تسمى في كل ناحية مرت بها باسم الأرض المارّة فيها.

فطرقـهما يعقوب بن عبد الله في ليلة من الليالي في جملة كبيرة من الخيل والرَّجْل. وقصد إلى باب سلا مع من كان معه من خيله ورجله، وصعد بعض رجاله على سلاليم استعملوها إلى السّور فملكوه، وقصدوا أبراج الباب. ومن وجدوه فيه أهلكوه، فمنهم من قُتل، ومنهم من رَمى بنفسه إلى الأرض من أعلى السور، فانكسر وهلك، فكانوا بين قتيل ومكسور، وملك رجال يعقوب بن عبد الله الباب المذكور، وصعدوا إلى أعلاه، ورفعوا الأعلام، وقام الضَّجيج في البلد، وضجَّ الناس من كلِّ ناحية، واجتمعوا حول السّور، فوجدوا الاعلام مرفوعة عليه، فارتفع الإشكال، وانقطع الكلام. وعاد كل من وصل إلى موضعه يبغي النجاة برأسه والاستسلام، لِئَلاَّ تصل الخيل إليه حين تدخل البلد، لأنَّهم كسروا الأقفال بالباب الخارجي، وبقي الباب الداخلي يحاولون كسره أو حلَّه، ففرَّ الناس حين رأوْا ذلك ورجعوا إلى ديارهم ؛ واقتحم أكثرهم المجاز الى العدوة الأخرى، وتركوا سلاحهم وأثوابهم، وعبروا الوادي بالعوْم، فأُخذت أسلابهم، ودخل رجال يعقوب بن عبد الله في أثرهم، فسلبوا ونهبوا في ليلهم ونهارهم.

ثمَّ أمر يعقوب بالكفِّ عن النَّاس وعن الإضرار بهم، فسكنت الأحوال والأمور، وخرج ابن أبي يعلو في جفن صغير من القصبة إلى آزمور.

وتمَّ ليعقوب بن عبد الله ملك مدينة سلا والرباط وضبطهما لنفسه، مضاهيا لعمِّه، وحدثته بأمور عنه غائبة، وأحوال خالية كاذبة، على ما أصفُه إن شاء الله تعالى". ثم قال :

"وبعد ما سكَّن أهلَ سلا، وأبدى لهم اعتقاده فيهم وَوِدَادَهُ، ونفاقه على عمِّه وعناده، ضمَّ إليه عسكره من بني مرين وغيرهم من أجناده، وكتب إلى ملك قشتالة أنْ يبعث له بمائتين من الرّوم، يركبون معه ويستعين بهم فيما يروم. ثمَّ اتَّهم أشياخ سلا بأنَّهم خاطبوا عمه وكاتبوه، فخاف أن يبايعون له، ويقوموا عليه. فطالبهم بالمَيْز، فجازوا إلى الرباط فميَّزهم، وأخذ سلاحهم منهم وجوَّزهم، فعادوا إلى عُدوتهم دون شيء من السِّلاح، وكان تدبيرا خاليا من السَّداد والصَّلاح، مع قضاء الله وقدره".

احتلال الإصبان لمدينة سلا

قال المؤلف : لمَّا بعث يعقوب بن عبد الله للنَّصارى أن يصلوه ليكونوا أجناداً له، كان منتظرا لهم، ومعتمداً عليهم، لينال بهم مقصوده ومراده.

ولمّا وصل إلى ملك قشتالة كتاب يعقوب، أخذه الطَّمع في دخول كفرته إلى سلا، واستيلائهم عليها، فاشتغل بتعمير الأجفان في وادي إشبيلية، ولا علم لأِحد من المسلمين والكافرين بالمحلِّ الذي ستتوجَّه إليه والبلدان.

وقد كتب الفقيه أبو العبّاس العزفي من سبتة يُعَرِّفُ بخبر هذه العمارة إلى كلِّ جهة من المراسي وكلِّ مكان، يُحَذِّر من غدرهم ومكرهم كل إنسان، فمن قدر ذلك قدره، وظهرت له الدلائل، مثل بعض أهل سلا وبعض القبائل، خرج قبل الكائنة بأيّام قلائل، وهم قليل من الناس، ومن تأخَّر عن الخروج ولم يصدِّق الحال، وظنَّ أنَّه عين المحال، قُتل وأُسر، لأمر قدِّر، ليس لأحد عنه محيد ولا انتقال.

فلمّا كان في آخر شهر رمضان من هذه السنة، ظهرت في البحر قرقورة بعد قرقورة، فظنَّ أهل سلا أنَّ من فيها تُجَّار، إلى أنْ وصلوا شيئا بعد شيء، واجتمع من القراقر اثنا عشر، ومركبان اثنان وأساطيل وشلالير، إلى أن انتهى عدد الأجفان إلى سبعة وثلاثين، مملوءة بالنصارى، وبقي الناس في أمرهم حيارى.

وفي يوم الجمعة ثاني عيد الفطر أظهر العدوُّ ما أضمر من الغدر، ودخلت الأجفان الغزوانية الى الوادي، بعدما امتلأت بالرُّماة والبُغاة والأعادي. وكانت ناحية الوادي ليس لها سور، ولا يتأتّى لأحد أن يتحصَّن بها. فهبط الكُفّار من الأجفان، والمسلمون يعاينونهم بأعينهم، وصفَّفوا صفوفهم، وجمعوا جموعهم، وكلُّهم مدرَّعون بدروعهم، والمسلمون غير مسلَّحين ولا مدرَّعين، مستسلمين للقضاء، وقد وقفوا صفوفاً صفوفاً أمام النَّصارى، وهم يزحفون بجموعهم وصفوفهم المرتَّبة، وقدَّموا أمامهم رُماتهم وطُغاتهم، وكلُّهم مستعدّون للقتال. وليس عند المسلمين شيء من السِّلاح ولا النِّبال، ولا ما يمكن به القتال، ولكن اغتنم بعض أقوام الشهادة، فمات عدد منهم، وآخرون قاتلوا بالقُضُب المحدَّدة، ولم يكن بسلا إلاَّ نحو عشرين فارسا، فقاتلوا حتى قُتلوا رحمة الله عليهم، بعد ما صابروا وصبروا صبرا عظيما.

وفي أثناء ذلك تزاحمت الخلائق تريد الخروج من الباب، فخرج من خرج منهم بعد جهد عظيم، ومات في الزحام عدد لا يحصيهم إلاّ السميع العليم، والنّصارى مع ذلك يقتلون كل من وقف أمامهم، ثمَّ دفعوا دفعة واحدة ودخلوا عليهم الباب، بعدما قتلوا خلقا كثيرا. وكان موقفا حاسما كبيرا، ويعقوب بن عبد الله يتأسَّف على قُبْح ما جرى، ويشاهد ما تسبَّب فيه وفعله ويرى، ولا يقدر أن يجوز إليهم، وإنما ينظرهم من قصبته، وقد حلَّ بهم من القتل والأسر ما قُدِّر عليهم. وبقي يذوب تلهُّفا، ويعضُّ بنانه ندما وتأسُّفا، حين عاين ما عاينه من البلا الذي أحاط بأهل سلا.

ولمّا دخل النصارى إلى المدينة واستولوا عليها بالغدر، قتلوا من وجدوا فيها من الرجال، وأسروا النساء والأطفال، وحاصروهم في الجامع الكبير مأسورين، وفي نفوسهم مقهورين، فكانوا يعبثون بالنساء والأبكار، ويقتلون الشيوخ والعجائز الكبار، وسفكوا الدِّماء، وهتكوا الأستار، وخرّبوا المساجد والدِّيار، وعمروا بالتروس والقسي الأسوار. ولمّا وقعت هذه الواقعة المفجعة، كتب المرتضى الموحدي للفقيه أبي العباس العزفي كتابا يشكره فيه على ما صدر منه من التحذير من أمر النصارى، ويسأله أن يكون يستشعر أمورهم ويعلم بها، ليقع الحذر منها.

الرسالة التي وجّهها المرتضى للفقيه أبي العباس العزفي حين وقعت واقعة مدينة سلا

... وإنّا كتبناه إليكم كتب الله لكم حسن العاقبة وأجملها، وأكنف كلاءة وأكلأها، لتعلموا أنّنا نعتزّ بولائكم الخالص، ونحفظ لكم ولسلفكم السوابق والخصائص، ونشكر نصائحكم التي ما زلتم إياها تبذلون، وخدمتكم التي توالون وتصلون، ونستمد منكم العلم الذي له تُخلصون، والدين الذي عن سننه القويم لا تعدلون، والله يتولاكم بحفظه وصونه، ويجزل حظكم من إنجاده وعونه. وقد طرأ في مدينة سلا - حرسها الله سبحانه واستنقذها - ما قد اتّصل بكم ممّا كنتم منه أبداً تحذّرون، وبه لعلمكم بالعدو الكافر تنذرون، ولكن لم تَزِد الأقدار لمن فيها إلاّ انهماكا في الإضاعة، وذهولا حتى حلّت بهم في أعمالهم الكارثة الساعة بعد الساعة، حين نفذ المقدور، ووقع المحذور، ولا قوة إلاّ بالله الذي تصير إليه الأمور، والله سبحانه يجري دينه القويم من الظفر والنّصْر ما عوّده، ويجمع أيدى عباده المومنين على من اتّخذ إلاها غيره وعبده، وهو سبحانه وتعالى يكافي سعيكم على ما عرفتم وحذّرتم لأهل السّواحل، وخوّفتم من فجأة العدو الخاتل، لمَا ظهر من استعداده، ونبّهتم في ذلك على أقصى مبالغة نيتكم الصّالحة الصّريحة، ووفّيتم منه أوجب حقّ للمسلم على أخيه المسلم من النصيحة، لكنْ نفذ حكم الله تعالى بما ثبت في الكتاب مسطورا، ولم يحذر التّحذير محذورا، وكان أمر الله قدراً مقدورا، وثوابكم على الله سبحانه فيما من ذلك توليتم، وقضيتم حقّ الاسلام وأدّيتم، وإنا لنشكر لكم ذلك، لمَا رأى الله عزّ وجلّ فيه مثابكم، وشكر إليه انتدابكم، فما قصّرتم في عمل سديد، ولا تأخّرتم في الجدّ والنُّصح عن شأو بعيد، فَعرفوا بكلّ ما تتعرّفون به من إرادات الأعداء بعد، وطالعوا من محاولاتهم الذميمة ما نتأهّب لدفعه بحول الله تعالى ونستعدّ، وهو سبحانه يتدارك بمعهود لطفه ومعتاده، ويمدّ الإسلام وأهله بنصره وإنجاده، ويعينكم على أفضل ما أنتم عليه من صواب العمل وسداده، بمنه.

وكُتب ثالث ذي القعدة من عام ثمانية وخمسين وستمائة (03 ذي القعدة 10/658 أكتوبر 1260).

فتح سلا وانتزاعها من يد الإصْبان على يد أمير المسلمين أبي يوسف رحمه الله

لَمَّا بلغ الأمير المعظم أبا يوسف خبر أهل سلا، واستيلاء النَّصارى عليها، بادر بعساكره إليها، فحاصر الكُفَّار بها أعظم حصار، فكانوا يقاتلون العدوَّ باللَّيل والنَّهار، بالنِّبال والأحجار، ودام القتال مدة مديدة، ثلاثة عشر يوما من شوال، وتقوَّى الكُفَّار بما وجدوه في المدينة من الأموال والأمتعة والأسباب ممَّا لا يحصره حاصر، ولا يصفه واصف، وتحار فيه الأفكار.

وفي مُدَّة إقامتهم كانوا يُطلعون المسلمين لأجفانهم، وكلَّما وجدوه بالمدينة من أموالهم وخدّامهم.

وقد كان أمير المسلمين جمع من أخلاط الناس وأشتات القبائل المرينية وغيرها ءالافاً من الأجناد، واستنهضهم للجهاد بالجِدِّ والإخلاص في ذلك والاجتهاد.

ولما رأى العدوُّ تكاثر المسلمين على المدينة وتواردهم عليها مع السّاعات، وخلال الآناء والأوقات. ولا يفتر لهم في ليل أو نهار وارد وإلمام، ولا يمرُّ زمن إلاَّ وتصل الفئام تتبعها الفئام، أوقع الله الرُّعب في قلبه، وكان اجتماع المسلمين إذناً بهروبه، فأصبح أهل سلا يوم الاربعاء الرابع عشر من شوال، وقد طهَّر الله بلادهم من الكفّار.

وقبل هروبهم خرَّبوا الدِّيار، وأحرقوها بالنار، وأحرقوا كلَّ ما وجدوه فيها وفي الأسواق من الأثاث والأسباب والأمتعة والأوعية والفرش وغير ذلك من السِّلع قطنا كان أوصوفا أو كتّانا، ممَّا لم يتأت لهم حمله لسرعة فرارهم وثقله عليهم، فكانت المدينة تلتهب ناراً في كلِّ مكان. وحين خروجهم منها تركوها خالية خاوية، وإنَّما النِّيران تشتعل في دورها وأسواقها، ورفعوا علامات على أسوارها، ونصبوا خيالات بين شراريفها، وأقلعوا في أجفانهم باللَّيل شيئا بعد شيء، لئلاَّ يشعر بهم أحد. ولم يعلم أحد من الحاضرين، هل المدينة لازالت عامرة أوخالية، حتَّى باع نفوسهم في سبيل الله بعض المتطوِّعة، وطلعوا بسلاليم عملوها الى السّور، وتطلَّعوا منه، وحينئذ تبينت الأمور. ودخل الأمير أبو يوسف إليها يوم الاربعاء الرّابع عشر من شوال من السنة المذكورة، وتمَّ فتحها. وعاد للجفون بعودتها للإسلام لذيذ غمضها. وكان الخطب يسيرا بالنِّسبة لِمَا كان يُتوقَّع من استيطان العدوِّ بها.

ولمّا لجّجَت الأجفان في البحر، لم تساعدها الريح، وصارت الأمواج تتقاذفها يمينا وشِمالا، وجنوبا وشَمالا.

وحيث لم يكونوا تزوّدوا من الماء القدر الكافي، نفذ فيهم حكم قاضي السماء، وطال مقامهم في البحر، وصاروا يقصدون السّواحل رجاء الظفر بمنهل يطفئ غُلّتهم، أو يبرئ علّتهم، فكانوا كلّما يمّموا جهة تلقّاهم المسلمون رجالاً وفرساناً يذودونهم ذياد البعير الّضالّ، فيرجعون وحُرَقهم تتوهّج، ونارهم تتأجّج، بلْ إنّهم في بعض تلك المواطئ التي قصدوا، قصدهم فيها الحيْف، وتخلّلهم الرُّمح والسّيف، ففقدوا عدّة رجال، وتركوا دون موارد الماء جملة حُماة وأبطال.

ولقد وصلت منهم قرقورة الى جهة العرائش، فراموا أخذ الماء فعجزوا عنه، فحاولوا شراءه ببعض من عندهم من الأسرى فأُجيبوا الى ذلك وأُسْعِفُوا، واسْتُنْقِذ من أسر المسلمين ثلاثة وخمسون شخصا، أكثرهم نساء وأطفال. وذكروا أنّ طاغيتهم القشتالي عزم على تحريق رؤسائهم حَنَقاً عليهم بما أماتوه، وأسفاً على ماحصل بأيديهم وأفلتوه، ولذلك طلب جماعة منهم، نحو العشرين شخصاً، الأمان فَأُعْطُوهُ، ونهضوا الى الأمير المعظم، أبي يوسف بن عبد الحق، ليركنوا إليه ويخدموه.

وأخبر أبو الحجّاج يوسف بن الأمير أنّه وجّه منْ ثقاته الى حين ذلك من وثق بنقله، واستند الى فهمه وعقله، ليتعرّف حقيقة الأخبار هنالك، ويُعرِّفوه بجلية ذلك فقال :

"إن الطّاغية كان قد أعدّ جموعا وافرة العدد، ظاهرة المدد، ليكونوا مددا للكفرة المستولين على سلا، ولمّا وصلهم نبأ الفتح، سُدَّ دُونَهُمْ بَابُ الرجاء، وضاق عليهم فسيح الأرجاء، وكاد العدوُّ أنْ تفيض نفسه، ويطويه رمسه، فأقسم أيمان الكفرة لَيُعَاقِبَنَّ أشياعه، وَلَيُطِيحَنَّ بمقدمهم خُوانْ غَرْسِيَهْ على فعلته الصّادرة منه، فاتّصل الخبر بخُوانْ المذكور، ففرَّ في ثلاثة قراقر إلى شبونة، وبقي مقيماً بها، ولم يرجع إلى قادس، حيث كانت تُجهّزُ الأجفان المذكورة وعَددهَا نحو خمسة وعشرين جفنا، فتفرّق سائرها أيّ تفرّق، وتمزّق شملها خوفاً من الطّاغية أيَّ تمزُّق، وأُهْبِطَ من أسرى المسلمين ثلاثمائة وثمانون شخصا، ففداهم المسلمون من أهل شريش وغيرهم، طالبين الأجر من ربّهم، إلى أن وصلوا بعد ذلك إلى بلدهم.

وقيل إنّ جُملة من اجتمع باشبيلية من أسرى أهل سلا، نحو ثلاثة آلاف نفس، ما بين ذكر وأنثى، وصغير وكبير، وأكثرهم من الأطفال الصغار والعجائز والشيوخ الكبار.

وبعث الأمير أبو يوسف – رحمه الله تعالى – أبا بكر بن يعلو في أواسط شهر ذي القعدة من العام المؤرخ به إلى الطاغية برسم افتكاك الأسرى المذكورين، ففكّ الله أسرهم على يده، وافتدى أكثرهم.

وكان قد أُسرَ في جملتهم، قاضي سلا، أبو علي بن عشرة، ففداه الأمير أبو يوسف في جملة من فداهم، واستنقذهم من أيدي أعدائهم. وكل مأسور له أهل أو مال فُدي من أسره، ويسَّر الله له في أمره، وكلُّ فقير معسر، فُدِيَ من الأسر بسبب صدقات المسلمين، وليس بعد العُسْر إلاّ اليُسْر.

وبقي عند الروم ءاخرون تالفين، لا يُعلم لهم خبر، ولا وقع أَحَدٌ لهم على أثر، وهل كانوا مقتولين أو محمولين، ولا حول ولاقوة إلاّ بالله العليِّ العظيم..."

وقد عبّر ابن خلدون في «العبر»، والنّاصري في «الاستقصا»(4) عن هذه الكارثة السلاوية بقولهما :

"كان يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق قد استعمله الأمير أبو بكر بن عبد الحق على مدينة سلا لمّا ملكها. ولمّا استرجعها الموحدون من يده، أقام يتقلّب في جهاتها مترصِّداً للفرصة وإمكانها فيها. ولمّا بويع عمُّه السلطان يعقوب بن عبد الحق، أسفته بعض أحْوالٍ منه، فذهب مُغَاضِباً حتّى نزل عينٍ غبولة، وألطف الحيلة في تملُّك رباط الفتح وسلا، ليعتدّهُما ذريعة لِمَا أسَرَّ في نفسه من التوثّب على الأمر، فتمّت له الحيلة. ومَلَكَ سلا، وركب عاملها أبو عبد الله بن يعلو البحر فاراً إلى آزمور، وخلّف أمواله وحُرَمه، فتملّك يعقوب بن عبد الله ذلك، وتمكّن من البلد، وجاهر بالخلْع، وصرف إلى منازعة عمِّه السلطان يعقوب وجوه العزم. وتمكّنت الوحشة بين اليعقوبين. وداخل يعقوب سلا تُجَّار الحرب من الإصبنيول في الإمداد بالسِّلاح، فتباروْا في ذلك، وكثرت سفن المتردِّدين منهم إليها، حتّى كاثروا أهلها، وزاد عددهم، فعزموا على الثورة بها، واهتبلوا فيها غُرَّة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة (غرة شوال 10/658 أكتوبر 1260) عند اشتغال الناس بعيدهم، وثاروا بسلا في اليوم الثاني من شوال، فوضعوا السيْف في أهلها، وقتلوا الرِّجال، وسَبَوْا الحُرَم، وانتهبوا الأموال. وكان الحادث بها عظيما، وضبطوا البلد، وتحصّن يعقوب بن عبد الله برباط الفتح، وطار الصَّريخ إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق، وهو يومئذ بمدينة تازة، دخلها أوائل شعبان من السنة المذكورة، لاستشراف أحوال يَغْمُرَاسَنْ بن زيان، فوصل إليه الخبر في اليوم الرابع من شوال المذكور.

---

4) ابن خلدون، ص 252 من الجزء 2، طبع الجزائر – و«الاستقصا»، ص 10-11. من ج 2، طبع القاهرة. وص 25-26، ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

فنهض السلطان يعقوب من فَوْره بعد أن صلَّى العصر بتازة من ذلك اليوم، فأسرى ليلته تلك في نحو الخمسين فارسا، ومن الغد صلَّى العصر بظاهر سلا، فكان قطعه مسافة ما بينهما في يوم وليلة، وهذا أمر خارق للعادة بلا شك، أظهره الله على يد هذا السلطان لصدق عزمه، وحسن نيته، وإلاً فالمسافة ما بين تازة وسلا ستُّ مراحل أو أكثر، (نحو 324 كيلومتر على طريق مكناس فاس تازة)[5] ثم تلاحقت به جيوش المسلمين من القبائل والمتطوِّعة من جميع آفاق المغرب، فحاصر النَّصارى بها وضيَّق عليهم، ووالي القتال عليهم باللَّيل والنَّهار حتى اقتحمها عليهم عَنْوَة، لأربع عشرة ليلة من حصارها وأثْخَنَ فيهم بالقتل، ونجا منهم من نجا إلى سفنهم، فنشروا قلوعهم، وذهبوا يلتفتون وراءهم".

زاد ابن خلدون[6] :

"وخشي يعقوب بن عبد الله بادرة السلطان، فخرج من رباط الفتح، وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه".

ثم لم تزل الحوادث تتقاذفه تقاذف الكرة في الميدان، إلى أن قتله طلحة بن أبي مَحلِّي بساقية غبولة من ناحية سلا (الرباط اليوم)، سنة ثمان وستين وستمائة (668/1269 – 1270) وكُفي السلطان شأنه.

بناء السُّور الغربي لمدينة سلا

قال ابن عذاري في تاريخه[7] :

لمَّا دخل الأمير المعظَّم أبو يوسف إلى مدينة سلا، كان أوَّلُ ما فعله بها أنْ أمر ببناء سورها، وكان يرفع الحجارة بيده، ويوصلها إلى محلِّ البناء. فعل ذلك مراراً، ابتغاء الأجر والثواب عليه من الله سبحانه.

ولمَّا رأى الحاضرون معه من وجوه بني مرين وزعمائهم، وغيرهم من أشتات القبائل وأخلاط الناس ذلك، سارعوا إلى رفع الأحجار والكذّان على كواهلهم، حتَّى رفعوا جميع ما

---

5) وفي «المسند الصحيح الحسن» لابن مرزوق، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية، ص 21، أنه جاء من فاس.

6) ص 257 من ج 2، طبع الجزائر.

7) ص 428 من ج 3، طبع تطوان.

كان منها في المقابر. وجاءه جماعة من صلحاء البلد معلنين بشكره والثّناء عليه، راغبين منه أنْ لا يفعل ذلك، وقائلين له : "إنّ السلطان لا يكون كذلك"، فقال لهم : "إنّي ابتغيت الأجر والثواب من الله على ما فعلت"، فدعوْا له وانصرفوا...

وقال في «الاستقصا» :(8)

"ثمّ إنّ السلطان – رحمه الله – شرع في بناء السّور الغربي من سلا الذي يقابل الوادي منها، فإنها كانت لا سور لها من تلك الجهة من أيّام عبد المومن بن علي، لأنّه كان هدّم أسوار قواعد المغرب مثل : فاس، وسبتة، وسلا. ومن هذه الثّلمة كان دخول النّصارى إلى سلا، فشرع السلطان يعقوب – رحمه الله – في بنائه، فبناه من أولٍ دار الصّنْعة قبْلَةً إلى البحر جَوْفاً. وكان – رحمه الله – يقف على بنائه بنفسه، ويناول الحجر بيده، ابتغاء ثواب الله، وتواضعاً وسعياً في صلاح المسلمين، حتّى تمّ السُّور المذكور على أحصن وجه وأكمله".

* برج الدموع

يُطْلَقُ هذا الإسم على أحد أبراج هذا السّور من ناحيته الفاصلة بين مقبرتي الشيخ أبي العبّاس أحمد بن عاشر، وباب المُعلَّقة، قرب ضريح الشيخ المذكور.

وجاء في ترجمته في «الجذوة»، أنّه دُفن تجاه برج الدُّموع من الناحية الجوفية المقابلة للقصبة.

ويقال إنّ سبب تسميته بهذا الإسم، هو أنّ السُّلطان يعقوب وقف به أثناء بنائه، وتذكّر دخول العدوّ إلى المدينة واستباحته لها، فبكى، وسالت الدُّموع على خدّيْه، وبلّتْ لحيته، فسُمّي برج الدموع من أجل ذلك. وفيه يقول بعض الشعراء :

سـلا بلـدةٌ بالْغَـرْبِ لَـمْ أرَ مَنْظَـراً يُشـاكِلُهُ في الحُسْنِ وَالشَّمْسُ آفِلَةْ
وَلاَسِيَمَـا بُرْجُ الدُّمُـوعِ الَّذِي غَـدَتْ مَحَاسِنُهُ كَالْفَـرْضِ وَالغَيْـر نَافِلَـةْ

ثم قال ابن عذاري في تاريخه(9):

8) «الاستقصا» ص 11 من ج 2، طبع القاهرة. وص 26 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

9) ص 429 من ج 3، طبع تطوان.

"لمَّا فرغ السلطان يعقوب من الأعمال الحربية، قدِّم على مدينة سلا في السنة المذكورة، أبا عبد الله بن أحمد الفَنْزاري، وأمره أن يشتغل بالبناء والتَّجديد، والإصلاح والتَّسديد، والتَّعْمير والتَّشْييد، فامتثل أمره الرشيد، وجدّد وسدّد، وبنى وشيَّد".

وكان أوَّل من بادر بالوُرُود عليه بمدينة سلا من أشياخ قبائل المصامدة وكُبرائهم، شيخ بني تامر الصَّنْهاجي، أبو فارس، عبد العزيز بن بيورك، بخيله ورجاله، فأقبل عليه أبو يوسف غاية الإقبال، وأنجح سعيه الحميد، ورأيه السّديد، في مقاصده، ومصادره وموارده.

ثُمَّ ولاّه المدينة السَّلاوية بعد السَّنة المؤرَّخ بها، واستقرَّ فيها هو وأولاده وعياله، وصاهر لطلحة وزير السلطان وابن خاله، ووصله بها بعض قبائله وإخوانه وخُدَّامه.

وعاد إلى المدينة المذكورة عمرانُها وأهلُها، وغيرهم حين صلح أمرها، وأَمْرُ رِجَالِهَا .

المبحـث الثـانـي

آثار بني مرين بسلا

تمهيد :

ترك الإصبان مدينة سلا، بعد خروجهم منها مخرَّبة خالية، تحطَّم بنيانها، واستشهد رجالها، وأُسرَ عُيُونُهَا وأعيانها، وأُحْرِقَت أسواقها.

ولكنَّ السلطان أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق، لمَّا استرجعها اهتمَّ بها، وبنى سورها، وسَدَّ ثلمتها، وأصلح عورتها، وأمر واليه عليها أبا عبد الله بن أحمد الفَنْزاري بالاشتغال بالبناء والتَّشييد، والتَّرميم والتَّجديد، فامتثل أمره، وأنفق وواسى، وأصلح وأعان ما استطاع. ولم تمض إلاَّ مُدَّةٌ يسيرة، حتَّى ضمَّدت المدينة المنكوبة جراحها، وتناست محنتها، ودبّت فيها روح حياة جَديدة. ورجع إليها بعض عمرانها، ومع ذلك بقي الخراب شائعاً في أرجائها، والحيطان راكعة ساجدة في جُلِّ أنحائها حتَّى قيل : إنَّ ثُلثها كان مقبرة خالية، والثلث الثاني خرباً بالية، والثُّلث الثَّالث شبيه بعمران أهل البادية. وعلامة الفقْر والضّعف الذي تركها عليه العدوُّ بادية.

كذا وصفها بعض من زارها في ذلك العهد، كابن الخطيب.

ولكنَّ كلامه لاَ يَخْلُو من مبالغة، حمله عليها ما كان بينه وبين أهلها من خلاف وخصام ومراوغة، وإلاَّ فالواقع هو أنَّه في عهد بني مرين، انتشر العلم في معاهدها ومساجدها ومدارسها، وصارت زيادة عن كونها ثغراً حربياً جهادياً، مركزاً علمياً دينياً، يأوي إليه النُّسَّاك والعُبَّاد والزُّهَّاد، فينقطعون للّه بها، وتسلو أنفسهم عن الدُّنيا وزخارفها ومغانيها.

وإلى ذلك يشير مُؤرِّخها أبو عبد الله محمّد بن علي الدكّالي في رجزه المُسمَّى:" إتحاف أشراف الملا، بأخبار العُدْوتين الرباط وسلا " :

حتَّـى أتَـى مُلْـكُ بَنِي مَرِيـنِ ... فَـاتّسَـعَـتْ دُنْيَـاؤُهَـا كَـالدِّيـنِ
وَظَهَـرَتْ بِمَظْهَـرِ الفَخَـارِ ... عَلَى سِوَاهَا فَـاعْـتَبِـرْ أَخْبَـاري
فَلَـمْ تَـزَلْ دَارَ عُلُـومٍ وَعَـمَـلْ ... وَصَنْعَـةٍ ذَاتِ جَـمَـالٍ وَكَـمَـالْ
هَذِي الْمَسَالِكُ وَذِي الْمَعَاجِـمُ ... وَذِي الْفَـهَـارِسُ وَذِي الْمَـعَـالِـمُ

وكان من جملة من هاجر إليها في ذلك العهد من الجهابذة الأعلام، الإمام ابن عبَّاد، ولسان الدِّين ابن الخطيب، وأبو العبَّاس أحمد بن عاشر، وأبو إسحاق إبراهيم، المشهور بأبي حاجة، والشيخ ميمون بن خبّازة وأبو علي الشَّريشي البكّاي، وغيرهم ممَّن يطول ذكرهم.

وبعد هؤلاء، نزل بها الشَّيخ أبو مُحمَّد عبد اللَّه بن حسُّون السلاسي، والشيخ أبو الحسن علي بن زهراء الغرناطي...

وكلُّهم ترك بها أثرا من زاوية أوْ مسجد أوْ ضريح يُعْرَف به، ويُنسب إليه، لكونهم ءاوَوْا إليها، وأنِسُوا بها، واتَّخذوها دارا، وملجئـاً وقرارا.

ولذلك قال فيها ابن الخطيب في «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والدِّيار» :

"وهي على الجملة من غيرها أوفق، ومغارمها لاحترام الملوك أرفق، ومقبرتها المنضَّدة عجب في الانتظام، معدودة في المدافن العظام، وتتأتّى بها للعُبَّاد الخلوة، وتوجد عندها للهموم السلْوة"، كما قال :

وَصَلْتُ حَثِيثَ السَّيْرِ فِيمَنْ فَلَى الْفَلَا ... فَلاَ خَاطِرِي لَمَّا نَأَى وَانْجَلَا انْجَلَى
وَلاَ نَسَخَـتْ كَرْبِي بِقَـلْبِـيَ سَلْوَةٌ ... فَلَمَّا سَرَى فِيهِ نَسِيمُ سَـلاَ سَـلاَ

ولذلك خلَّف بها بنو مرين آثاراً جهادية، ومشاهد علمية دينية، تُعرف وتُذكر، وتُسجَّلُ لأهميتها وتُسطَّر، وتُعْلَن أخبارها وتُنْشر، ويُحْمَد مُبْدِعُها وَمُنْشِئُها ويُشكَرُ. أهَمُّهَا وَأَشْهَرُهَا :

* دار الصناعة بسلا

يراد بدار الصِّناعة ما نعبِّر عنه اليوم بالتّرْسانَة أو التُّرْسَخانَة وهما منقولتان عن العربية، وينطق بها الفرنسيون : أرْسُنالْ "Arsenal" والإصبانيون : دارسنال "Darcinal"

والإيطاليون. أرزونال "Arzenal". ونطق بها الأتراك : طارسنة "Tarsanah" ثم عُرِّبَتْ فصارت تُرْسْ خانَةْ.[10]

والجميع يدلُّ على المعامل والمصانع التي كانت تُنْشَأُ بِهَا الأساطيل والمراكب والسُّفن الحربية والتِّجارية.

ودورُ الصِّناعة كانت كثيرة متعدِّدة بالبلاد الإسلامية، أُسِّسَتْ فيها منذ عهد الفتوح الأولى بمصر والشَّام وإفريقية الشَّمالية والأندلس.

ولمَّا رسخت قدم عبد المومن بن علي في المُلك، وعمَّ سلطانه المغارب الثلاثة، وامْتَدَّ من المحيط الأطلانطيقي غرباً الى حدود مصر شرقا، ومن تخوم الصَّحراء جنوباً إلى منتهى حدود الاندلس شمالا، وكان أسطوله القويُّ يَمْخُرُ عُبابَ البحر على سواحل هذه المملكة الواسعة، واحتاج الى الزِّيادة فيها لغزو بلاد الفرنج والجزر البحرية، ونقل الجيوش الجرّارَة إليها، اتَّخَذَ دُورَ صناعة جديدة، زيادة على مَاكَان مَوْجودا منها بسبتة وتونس وغيرهما، بوهران ومرسى هنين والعرائش، وحلق المعمورة، فَصُنِعت له بها مئات من السفن والمراكب، وبلغ عدد ما أُنشئ منها بحلق المعمورة، سنة سبع وخمسين وخمسمائة (1162/557) مائة وعشرين قطعة.[11]

ولم يكفه ذلك، فاتَّخذ سلا مركزاً حربياً بحرياً لتجهيز الجيوش لغزو الأندلس والسَّيطرة على المجاز، ولتكون له السِّيادة المطلقة في حوض البحر الأبيض المتوسِّط، ويمنع الصقلِّيِّين وغيرهم من أُمَم الرُّوم الذين على سواحله من الدُّنُوّ من مملكته، ويرغمهم على الخضوع لِعزَّته وسطوته.

فكانت تُصْنَع له بدار صناعتها السُّفن والمراكب، ويُجلب إليها العود من غابة المعمورة، وتُرسل في الوادي بعد تجهيزها بكل ما تحتاج من مقاتلة وعدة وسلاح.[12]

وكان سبب اختيار عبد المومن لسلا، موقعها على مصب الوادي، لكونه حاجزاً لسُفن أخرى عن الإغارة من البحر على الأسطول، بخلاف سبتة التي لَمْ يتوفر فيها هذا الشَّرط.

---

10) Remarques sur les mots français derivés de l'arabe, par Henri Lammens S.J., pages 28 et 95.

11) «الاستقصا»، ص 158 من ج 1، طبع القاهرة. وص 93-94 من ج 3 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

12) Les Almohades par René Millet, pages 80 et 81.

وقد كان للأسطول في عهد عبد المومن وولده أبي يعقوب يوسف، وحفيده أبي يوسف يعقوب شأن عظيم، واهتمام كبير حتى إنَّ صلاح الدّين الأيُّوبي لمَّا استفحل أمر الصّليبيين ببيت المقدس والدّيار الشّامية، بعث صريخه إلى أبي يوسف يعقوب المنصور سنة ست وثمانين وخمسمائة (1190/586)، طالباً إغاثته وإعانته، بالأساطيل الموحِّدية، لمنازلة بعض الثّغور الشّامية، ولم يُسْعِفْهُ المنصور بطلبه، لأنَّه لم يخاطبه بأمير المومنين، وسيأتي استيفاء الكلام على هذا الطلب وهذه السفارة بمزيد بيان وتفصيل، واستيعاب وتحصيل، عند الكلام على الأساطيل المغربية، والفصول الخاصَّة بالأساطيل الموحِّدية.

وفي اتخاذ مصب سبو ووادي سلا في عهد عبد المومن وبعده دار صَنعة ومركزاً للأساطيل يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في «إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا» :[13]

وجَعَلَ الْمَعْبَرَ دَارَ صَنْعَةٍ لِسُفُنِ الْأُسْطُولِ خَيْرَ مَنْعَةْ
تُمَّتَ أُسَّسَ لَدَى وادي سَبُو مَعَامِلَ الأَجْفَانِ مِنْهَا يُعجَبُ
فَأُنْشِئَتْ لَهُ بِهَا الْمِئِينَا وَطَالَ عِزُّهُمْ بِهَا سِنِينَا
واسْتَرْجَعُوا بِهَا الثُّغُورَ الشّاسِعَةْ وَافْتَتَحُوا الأقَالِيمَ المُتَّسِعَةْ
وَحَصَدُوا الْجُمُوعَ فِي الأَرَاكِ وَهَجَمُوا الْحُصُونَ فِي العِرَاكِ...

وَعليه، فإنَّ سلا تُعَدُّ ثغراً من الثّغور البحرية المغربية، المعدَّة لصنع الأساطيل الجهادية، منذ عهد عبد المومن بن علي، أوَّل خليفة من خلفاء الموحِّدين، واستمرَّت على ذالك مدَّة دولتهم، تزاحم سبتة، وطنجة، وغيرهما من المراسي الشّمالية.

ثم جاء بنو مرين بعدهم، وكانت واقعة سلا المتقدِّم وصفها. وبنى السلطان أبو يوسف يَعْقوب بن عبد الحق المنصور، منقذها، سورها الغربي، وَأحيا دار الصناعة الموحدية، وجدَّد مَراسمها، وأقام معالمها، على يد المعلِّم المهندس أبي عبد الله محمد الحاج الإشبيلي،[14] وكان عارفاً بالحِيل الهندسية، ومن أهل المهارة في نقل الأجرام، ورفع الأثقال، بصيراً باتِّخاذ الآلات الحربية الجافية. وتوفي بفاس في العشرة الأولى من شعبان سنة أربع عشرة وسبعمائة (1314/714).

---

13) ورقة 21-22، مخطوط مصور الخزانة الناصرية بسلا.

14) ترجمته في «الاحاطة»، ص 98 من ج 2، و«جذوة الاقتباس» ص 180، و«الاستقصا»، ص 11 من ج 2، طبع القاهرة. وص 26، من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة – سنة 2001.

وحفر لها قنالاً أوْ ترعة توصلها بالوادي، مارَّة بالأرض الفاصلة بينها وبينه، المعروفة بالخُمَيْس بالتَّصغير، وجعل لها بابين : أحدهما مقابلاً لمنار حسّان بالعُدوة الأخرى، والآخر مفتوحاً في مواجهة القبلة، فكان ماء الترعة يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر، بصناعة هندسية، وقواعد علمية فنِّية.

وكانت السُّفن تُجهَّز بالتُّرسانة أو دار الصِّناعة، فإذا تمَّت فُتحت الترعة وامتلأت بالماء، واندفعت السَّفينة فيها، خارجة من الباب القَبْلي، سابحة على وجه الماء، إلى أن تصل إلى الوادي. ولذلك ارتفع قوس هذا الباب ارتفاعاً كبيرا، لتخرج السَّفينة منه منشورة القلاع، كما كان الباب المقابل لمنار حسان، مُعداً لدخول السُّفن إلى دار الصِّناعة.

وقد أدركنا زمن الصِّبا، بعض هذه الترعة أمام الباب القبلي الكبير، تَنْصَبُّ فيها فضلات حارة اليهود والمدينة، كما سياتي بيانه عند الكلام على بناء هذه الحارة، بدار الصِّناعة.

وقد طُمرت هذه الترعة في عهد الحماية، ولم يبق لها أثر اليوم.

ويقال : إنَّ البحر كان عند مدِّه، يصل من ناحية الوادي إلى سور المدينة، ويمدُّ في الترعة فتمتلئ بالماء، ويتجدَّد امتلاؤها بتجدُّد مدِّه، وتجري السُّفن فيها بكل سرعة وسهولة. ولمَّا وقع زلزال سنة تسع وستين ومائة وألف (1755/1169)، المعروف بزلزال لشبونة، وكان الحادث به عظيما بالمغرب، وحَسَرَ البحر عن الشاطىء السّلاوي بمسافة بعيدة، ثم رجع، فأغرق خلقاً كثيرا، وبعد رجوعه لم يصل إلى محلِّه المعتاد، فتغيَّرت طبوغرافية السّاحل السّلاوي كلِّه، وتغيَّر مجرى الوادي، خصوصاً عند مصبِّه في البحر منذ ذلك العهد، وصارت السُّفن لا تجري في الترعة إلاَّ بعملية خاصّة. وكان ذلك من عوامل تعطيل دار الصِّناعة السّلاوية.

* بابا المُرَيْسى

ولم يبق من آثار دار الصِّناعة هذه مشاهداً بالعيان اليوم، سوى البابين الكبيرين الشّاهقين اللّذين تقدَّم ذكرهما، ويُعرفان في زمننا هذا ببابي المرُيسى.

وأكبرهما وأهمُّهما، هو المفتوح في مواجهة القِبلة، ويوحي منظره الفاره الشاهق، الجلالة والضَّخَامَة، والغرابة والمهابة.

وهو قوس عظيم،[15] هلالي الشّكل، تحيط به عصابة مزخرفة مزيّنة بالكتابة الكوفية، وتملأ زاويته يميناً وشمالاً من أعلى، نقوش وزخارف كأنها أوراق الشجر، وفوق الجميع إفْريزٌ بارز، محكم الصّنع. وقد تغيّر اليوم وكاد يضمحلّ، ويكتنفهُ برجان بارزان ممنطقان باربع عصائب حجرية بارزة منحوتة في الحجر، زادتهما جمالا وفخامة.

والبارز اليوم من قطب هذا القوس الى الأرض، تسعة أمتار وستون سانتيمترا، والباقي، ولاندري مقداره، طُمّرَ وعلا عليه التُّرابُ.

وقد كُتب على واجهته الشرقية، في الحاشية العُليا، كلمة الشّهادة، لا إلاه إلاّ الله محمد رسول الله، وفوق محْور القوْس اسم الجلالة : «اللّه»، وطُوِّق بكتابة منقوشة في الحجر رائقة، تتضمّن آيات كريمة، تُحَرِّضُ على الجهاد في سبيل الله، وهي :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، باسم الله الرّحمان الرّحيم وصلّى الله على سيدنا محمّد وآله وسلّم.

﴿يأيها الذين آمنوا هل أذلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تومنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبُّونها نصر من الله وفتح قريب، وبشر المومنين﴾.[16]

هذا هو باب دار الصِّناعة أو باب المُرَيْسَى، كما نشاهده اليوم، محافظاً على هيكله الضّخم، وشكله الفخم، منذ رفع سمكه السُّلطان أبو يوسف، يعقوب المنصور بن عبد الحق، رحمه الله تَعالى، إلاّ ما غيّرته الأيّام، وَتوالي الدُّهور والعصور من جماله، وبديع صنعه وجلاله.

وهناك باب آخر، شامخ البناء، واسع الفناء، كذلك، مفتوح في الواجهة الغربية من السُّور، كانت السُّفن تدخل منه إلى أوراش العمل، ولكنْ ليس عليه كتابة ولا زخرفة ولا تزويق.

وقد روعي في بناء هذين البابين العظيمين معاً احتياطات سَتْراتيجية وتحصينات حربية، وفوهات ومرامي، تدافع من ورائها الجنود والبحّارة وهم في مأْمَن إذا دهم العدوّ من البرّ، أو الأسطول من البحر، المرسى أو دار الصِّناعة.

---

15) Les Portes de l'Arsenal de Salé, par Henri Terrasse, Hesperis, année 1922, 4° Trimestre.

16) سورة الصّف.

وقد بقي علينا أن نعرف بالضَّبط تاريخ بناء هذين البابين العظيمين الباقييْن من دار الصِّناعة السّلاوية، الشّاهدين على أهمِّيتها، وعظمتها في ماضيها وعُلُوِّ همة بانيها.

وحيث لم نجد كتابة عليها، تفصح عن تاريخ بنائها، فلنرجعْ إلى تاريخ بناء السّور المحيط بها، ونحن نعلم أن بانيه السّلطان المجاهد، أبا يوسف يعقوب، عقب نزول الإصبان بمدينة سلا واحتلالها واستباحتها وإنقاذها في شوال سنة ثمان وخمسين وستمائة (1260/658) كما تقدَّم مفصّلاً، ولا شكّ أنّ بناء سور عظيم بأبراجه وحصونه ومتارسه وترسانته، كهذا السّور السّلاوي، يستدعي زمنا طويلا، مهما كان العمل فيه مستمّراً وسريعا، لا يقلُّ عن عشرة أعوام.

وعليه، فإنَّ بناء السّور ودار الصّناعة وبابيْها، كان حواليْ سنة ثمان وستين وستمائة (1270/668)، على ما استنتجه هانري طيراس "Henri Terrasse" في دراسته حول البابين المذكورين، المنشورة في القسم الثالث من مجلة هيسبريس "Hesperis" الصادر سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف (1340/1922).

هذا، وقد كان قصد السّلطان أبو يوسف يعقوب - رحمه الله - ببناء دار الصِّناعة وإصلاح ما تلاشى منها، وإحياء معالمها المعطّلة منذ عهد الموحدين، إحياء فريضة الجهاد بالأندلس ؛ وأن تكون الأساطيل تُجهَّز إليه من سلا المنكوبة، ليأخذ السلاويون بثأرهم، ممَّن غزاهم في عقر دارهم، وسبا حريمهم وذراريهم، وانتهب أموالهم.

وحصَّن شواطئ الوادي كلّها، لئَلاَّ يتكرَّر الاعتداء على المدينة مرَّة أخرى. وقد تمَّ لأبي يوسف ما أراد، وكان رَدُّ الفعل قوياً شديداً.

وبعبارة جامعة، فقد كان إحياء دار الصِّناعة بسلا وتجديدها في ذلك العهد - عقب محنة هذه المدينة -، كإعلان حرب جهادية مستمرَّة متوالية على إصبانيا، طوال مدة دولة هذا السلطان، واقتفى سبيله في ذلك من جاء بعده من عظماء ملوك بني مرين، فكانوا لا يضيعون فرصة تبدو لهم في عدوهم إلاَّ اغتنموها، مهما وجدوا لذلك سبيلا، حتَّى ضعفوا وتلاشت قوتهم، ورجحت قوة العدو، فكانت الكارثة الكبرى، كما سياتي بيانه في محلِّه.

ولقد كانت الأساطيل المجهَّزة من أوراش دار الصّناعة السّلاوية وغيرها في عهد بني مرين قائمة بحراسة سواحل المملكة الممتدَّة على البحرين الحافَّيْن بها شمالاً وغربا. وشاركت بسهم وافر في نَقْلِ الجيوش والغُزاة من العُدوة الدُّنيا إلى العُدوة القُصوى. وانضمَّت سفنها إلى سفن سبتة، وباديس وأنفا، وأسطول بني الأحمر في معركة الجزيرة

الخضراء سنة ثمان وسبعين وستمائة (1279/678)، لمَّا رفع عنها الحصار الإسباني السّلطان أبو يوسف يعقوب المنصور المذكور[17].

وأمدَّت الأسطول المريني بأمر من السُّلطان أبي يعقوب سنة أربع وثمانين وستمائة (1285/684)، لمَّا جمع أساطيله للغزو بالأندلس بست وثلاثين قطعة.

وساهمت[18] في المعارك التي دارت رحاها بين السّلطان أبي الحسن المريني والإصبان، بعد استشهاد ولده أبي مالك، في إحدى غزواته بدار الحرب بالثغور الأندلسية.

ورافقت حصّة منها، السلطان أبا الحسن المذكور إلى تونس سنة خمسين وسبعمائة (1349/750)، وغرقت مع بقية أسطوله في البحر بالزّوبعة التي أصابته مَرْجِعَهُ من وجهته هذه.

وما زالت دار الصِّناعة بسلا تعظم ويتقوى إنتاجها بقوة ملوك بني مرين، وتضعف بضعفهم، إلى آخر دولتهم، وبقي بها بصيص من نور كان يبدو تارة ويخبو أخرى، إلى أواسط القرن العاشر، لما تغلب العدو على العُدْوة الأندلسية، وشره لامتلاك الشواطىء المغربية، فأُهْملت دار الصِّناعة حينئذ أو تعطَّلت بالكُلِّية، لسقوط الدولة وعموم الفوضى وانتشار الفتنة في جُلِّ المغرب.

وفي ذلك يقول مؤرخ سلا، أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في «إتحافه» :

ثُمَّ أَتَى بَعْدُ بَنُو مَرِينِ ... وَمَلَكُوا الْمَغْرِبَ بَعْدَ حِينِ
فَكَانَ يَعْقُوبُ الَّذِي قَدْ جَدَّدَا ... دَارَ صِنَاعَةِ سَلاَ كَمَا بَدَا
فَأُنْشِئَتْ لَهُ بِهَا الأَجْفَانُ ... كَثِيرَةً لَيْسَ لَهَا حُسْبَانُ
وَعَبَرَ الْبَحْرَ بِهَا مِرَارَا ... مُجَاهِداً بِنَفْسِهِ اخْتِيَارَا
وَأَدْرَكَ الْعِزَّ الَّذِي لَمْ يُسْبَقِ ... لِغَيْرِهِ فَسَلْ بُطُونَ الْوَرَقِ
وَبَلَغَ الأُسْطُولُ فِي عَهْدِ أَبِي ... حَسَنٍ مِنْهُمْ أَجَلَّ مَرْغَبِ
مِائَةُ جَفْنٍ ثُمَّ أَرْبَعِينَا ... قَدْ عَبَرَ الْبَحْرَ بِهَا يَقِينَا

17) ابن خلدون، ص 293 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 25 من ج 2، طبع القاهرة. وص 53-54، مِنْ ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

18) نفس الصفحة والجزء.

أتْلَفَ مِنْ عِـمَـارَةِ الإصْـبَـانِ   مُـعْظَمَـهَـا حَـقّـاً بِلاَ نُكْرانِ
وَ لَمْ تَزَلْ صُـبَـابَةُ الأَجْـفَـانِ   مَـعْـرُوفَـةً بِهَـذِه الأَوْطَانِ
لِعَـهْـدِ فَـارِسٍ وَمَنْ جَـا بَعْـدَهُ   مُـتَـابِعـاً أَوْ مُـبْـدِياً مَـا عِنْدَهُ
لآخِـرِ الدَّوْلَةِ مِنْ مَـرِينِ   حَـتَّى انْتَـهَى لِعَـاشِـرِ الْقُـرُونِ

وفي دار الصِّناعة أقول في قصيدتي : «سلا في التاريخ»

وَبَنُو مَـرِينٍ شَـيَّـدُوا   دَارَ الـصِّنَاعَـةِ وَالظُّهُـورْ
فَـبِـبَـابِهَـا الْعَـالِي تَرَى   ءايَاتِ مَـجْـدٍ فِي سُطُورْ
بُنْيَـانُهَـا الْمَـرْفُـوعُ سَـمْكُهُ   بِـالْجَنَادِلِ وَالصُّـخُـورْ
يُـوحِـي إِلَـيْـكَ جَـلاَلَـةً   وَ مَـهَـابَةً تُذْكِي الشُّـعُـورْ
آثَـارُهَـا تُـنْـبِـيكَ عَـنْ   أَخْـبَـارِهَا مَـرَّ الدُّهُـورْ
مِنْهَـا الأَسَـاطِيلُ جُـهِّـزَتْ   لِلْغَـزْوِ فِي لُجِّ الْبُـحُـورْ
فَـتَكَاثَرَتْ أَجْـفَـانُهَـا   وَ تَضَـافَـرَتْ تَحْـمِي الثُّـغُـورْ
مَـخَـرَتْ عُـبَـابَ الْيَمِّ تَا   سِـرُ كُلَّ ذِي بَغْيٍ كَـفُـورْ
وَتَسُـوقُـهُ لِلْذُلِّ يُعْـ   لِنُ بِـالْعَـوِيلِ وَبِالثُّـبُـورِ

ولم تزل دار الصّناعة السّلاوية مهملة أو معطّلة كما قلنا، منذ تلاشت دولة بني مرين، وانحلّت عُراها، وكذلك في عهد الدولة الوطّاسية، التي هي فرع منها، أو ساقية من نهرها، لرجوح كفّة الإصبان والبرتغال، وتكالبهم على احتلال الشّواطئ والمراسي المغربية، على السّاحلين المغربيين : الشّمالي والغربي، إلى أن ءال الأمر إلى السّعديين، واجتمعت الكلمة عليهم.

فيقال : إنّ السلطان عبد الملك منهم،[19] إلتفتَ إليها، وأجرى بها إصلاحا مهمّاً، وجهّز منها ومن العرائش عدّة مراكب وسفن، استعملها في حصار بعض المراسي المحتلّة بالبرتغاليين.

---

19) "Villes et tribus du Maroc, Rabat et sa région", Tome I, page 32.

على أنّنا نعلم أن الدّولة السّعدية لم يكن لها اعتناء كبير باتّخاذ الأساطيل وصناعتها كغيرها ممّن سبقها من دول المغرب، لصرف وجهتها إلى الصّحراء وأواسط افريقية، واحتلالها للبلاد السّودانية، وهي مملكة مالي اليوم، وإعراضها عن بلاد الأندلس والجهاد في ثغورها، حسبما صرّح به المنصور نفسه، لمّا شاور الملأ من قومه في غزو السّودان، بأنّ باب الأندلس قد سُدَّ باستيلاء العدوّ عليها جملة[20].

ومع ذلك فإنّنا نعلم أيضا أن المنصور - وكان ينظر بعيدا - بمجرّد ما ثبتت قدمه في الملك، لم يُهملْ دار الصّناعة السّلاوية، وأصدر أوامره بصُنع السُّفن بها وبالعرائش، ليرهب بها العدوّ الذي كان ما يزال حديث عهد بهزيمة وادي المخازن، فصُنعت له بها مراكب كثيرة، وجهّزها منهما بالمدافع والبارود، وسخّرها في النقل بين مراسي المغرب وسواحل السوس والصّحراء، واستعملها أيضا في التّجارة مع بعض الدّول الغربية بالبحر الأبيض المتوسّط، كإيطاليا وفرنسا وجزر مالطة وسردينيا وغيرها، وكانت رُبّما وصلت وحداتها أثناء جولانها في المحيط إلى لشْبونَة والجزر الخالدات.

وإلى ذلك يشير الشّيخ، أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي السّلاوي في رجزه :

وَقَـــدْ أَتَتْ دَوْلَةُ عَــبْــدِ الْمَلِكِ	لَيْثِ بَنِي سَـــعْــدٍ أَجَلِّ مَلِكِ
لَمَّــا اسْـتَــقَــامَ أَمْــرُهُ بِفَــاسِ	بِجَيْشِهِ التُّرْكِي أَخَا احْـتِـراسِ
أَوْعَــزَ للصُّنّاعِ بِالثَّــغْــرَيْنِ	بِعَـمَلِ الأَجْـفَــانِ دُونَ مَــيْنِ
ثَغْــرِ سَلَا ثُمَّتَ بِالْعَــرائِشِ	وَجُلُّ مَــابِالْفُــرْضَتَــيْنِ قَــدْ نُشِي
ثُـمَّ أدالَ اللَّـهُ لِلْـمَنْـصُــــورِ	أَحْـمَـدَ ذِي الْمَـآثِرِ الْمَــشْكُورِ
فَــأَرْهَبَتْ أَجْـفَــانُهُ الطُّغْـيَــانَا	وَصَــالَحُوهُ حَــيْثُ عَــزَّ شَــانَا
وَكَــانَتِ الْبِـحَــارُ في ذا الْعَــهْـدِ	قَــدْ مُلِئَتْ سُــفْنًا بِغَــيْـرِ حَـدِّ
غَــالِبُــهَــا شُــحِنَ بِالأَنْفَــاضِ	لِمَــا عَــسَى يَعْــرُو مِنَ اعْـتِـراضِ
وَكَــانَ قُــرْصَــانُ سَــلا مُــزاحِــمَــا	فِي ذَا الزَّمَــانِ غَــازِيًا وَغَــانِمَــا
يَجُــولُ بَيْنَ الْخَــالِداتِ السَّــبْعِ	وَبَيْنَ لِشْــبُــونَا بِغَــيْــرِ مَنْعِ
ثُمَّ اقْتَضى الصُّلْحُ السُّكونَ فَسَكَنْ	وَاتَّصَلَتْ بِمَــوْتِ أَحْـمَـدَ الْفِـتَنْ

20) «الاستقصا»، ص 55 من ج 3، طبع القاهرة. وص 118 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وبعد موت المنصور، وتلاشي شؤون الّدولة واختلال الأمور، رجعت دار الصّناعة السّلاوية إلى ما كانت عليه من الإهمال والفتور، إلى أن جاءت الجالية الأندلسية، وحطّت رحالها بالعدوتين السّلاوية والرِّباطية، والقصبة الموحدية. وكان نزولهم على مصبٍّ أبي رقراق فاتحة الأعمال القُرصانية السّلاوية الرباطية، فأحيْوا ما استطاعوا إحياءه، وأنقذوا ما أمكنهم إنقاذه، من بقايا دار الصّناعة السّلاوية، ونظّفوا قنالها، ونقلوا بعض ما كان ارتطم فيه من الاوحال، ورجعت المياه بعض الشيء إلى مجاريها.

ثم أحدثوا مركزاً جديداً لصنع بعض السُّفن وإصلاحها وتركيبها بالعُدوة الرِّباطية، أسفل جامع حسّان.

وقد كان لهذه القرصنة والأساطيل السلاوية في ذلك العهد تاريخ مديد السَّيْل، طويل الذَّيْل، وإليه يُساق الحديث عند الكلام عَلى الأسطول المغربي.

ثم حصل في دار الصِّناعة السلاوية تلاشٍ وفتور، استمرَّ الى زمن السُّلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، فحاول إحياءها، وتجديدها، لمَّا وَجَّهَ لَهُ السُّلْطان مصطفى العثماني، سنة إحدى وثَمانين ومائة وألف (1181/1767) بعض المُعلِّمين البارعين في إفراغ المدافع والمهاريس وصناعة المراكب القُرْصانية.

قال في «الاستقصا» نقلا عن «البستان» للزياني :[21] بعدما حكى وصول هؤلاء المعلِّمين، واجتماعهم بالسُّلطان، ومفاوضتهم في الخدمة :

إنه أرادَ إحياء آثار دار الصّناعة التي كانت بسلا تُصنَعُ بها المراكب الجهادية على عهد الموحدين وبني مرين، فقالوا له : نحتاج الى أن تبني لنا داراً على هيئة كذا، ومن نعتها كذا وكذا، ورسموا له شكلها (يعني تصميمها) في قرطاس، فرأى أنَّ أمرها لا يتمُّ في عشر سنين ولا أكثر، ولا يكفي في بنائها مال، فَأعْرَضَ عن ذلك، وَبَعَثَ مُعَلِّمي الْبُنْبْ إلى تَطاوين، فكان أحدهم يفرغ الْبُنْبَة من قنطارين، وبعثَ مُعلِّمي المراكب إلى سَلا، فأنشؤوا فيها ثَلاثَ شكظريات، وبعث معلِّمي الرَّمْي الى الرِّباط، فكانَ يعلِّم بها الطُّبْجية من أهل سلا والرِّباط، وتخرّج على يديه نجباء، ومن ثَمَّ توارث أهل العُدوتين هذه الصِّناعة مدَّة، الى أن لم يبق منها اليوم الاَّ الإسم. وردَّ أصحاب المدافع والمهاريس الى فاس، فأقاموا بها الى أن توفّوا رحمهم الله". اهـ.

---

[21] ص 104 من ج 4، طبع القاهرة. وص 44 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

عَلَى أنَّ السُّلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، كان له اهتمام خاصّ بالأسطول وإحياء معالمه، وإقامة مراسمه، حتّى قيل : إنَّ عدد قطعه تجاوزت الستِّين أو بلغت المائين، وبعضها كان يُصنع بالعرائش والعُدوتين، واستعملها في حصار الثُّغور المغربية، المحتلَّة بالجيوش البرتغالية والإصبانية، كسبتة ومليلية والبريجة (الجديدة). وكان يشرف على ذلك بنفسه، ويجلب له الآلات الحربية، والسِّلاح من الدُّول الأروبية ويجعل ذلك من أهمِّ شروط السِّلم معها.

قالَ أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه :

وَبَعْـــدَ ذاكَ جَـــاءَ جَـدُّ الأُمَـــرَا ... وَعَـــيْنُ أَعْـيـــانِ المُلُوكِ الْكُبَـــرَا
سَـيِّـدُنَا مُـحَـمَّـدُ الْمَنْصُـورُ ... حَـفِـيـدُهُ[22] المُـعَظَّمُ الْمَـبْرُورُ
مَنْ كَـــانَ يُرْهِـبُ مُلُوكَ الأَرْضِ ... فِي كُلِّ طُولِهَـــا وَكُلِّ عَـــرْضِ
بِـالْـعِلْـمِ وَالْـمَـــــالِ وَبِـالـدَّهَـاءِ ... وَبِـالأَسَــــاطِيلِ بِـكُلِّ مَـــاءِ
وَمَـصْدَرُ الأَجْـفَـانِ عُـدْوَتَا سَـلاَ ... بِهَـــا تُشَــادُ وَلَدُنْهَـــا يُعْـتَلَى
وَبَعْـضُـهَــا يُنْشَــأُ بِالْعَـرَائِشِ ... فَـــوَيْلُ مَنْ لَقِـيَــهَـــا مِنْ طَائِشِ
وَبَلَغَتْ أَجْـــفَــانُهُ الْمِــئِـينَا ... وَكَـــانَ قَـصْـدُهُ بِهَـــا مُـبِـينَا
فَـتْحُ بِلاَدِ الْغَـرْبِ مِـمَّـا قَـدْ بَقِي ... مِنَ الثُّـــغُـــورِ مُـبْـــهَمَ التَّطَرُّقِ
وَرَدُّ مَـــا يَعْــرِضُ مِنْ هُجُــومِ ... عَلَى بِلاَدِهِ كَـــمِــــثْلِ الرُّومِ
وَكَـــانَ بَعْـضُـــهُمْ تَعَــدَّ الْحَـدَّ ... فَـــهَـــاجَمَ الثُّـــغُـــورَ لَكِنْ رُدَّ
فَـبَـذَلَ الْجَــهْـدَ وَوَاصَلَ الْعَـمَلْ ... وَاسْـتَـجْلَبَ الأَنْقَاضَ مِنْ كُلِّ مَحَلْ
وَوَصَلَ الْحَــــبْلَ مَـعَ الأَتْرَاكِ ... بِكُلِّ مَـــــا يَصْلُحُ لِلْعِـــــرَاكِ

وهكذا استمرّت دار الصّناعة السّلاوية، منذ عهد السّلطان المذكور، تضعف وتضمحلُّ شيئا فشيئا، إلى زمن السّلطان المولى سليمان، رحمه الله، فأُهملت و تُنوسي أمرها، لمَا قضت به عليه الظُّروف الزَّمانية، والحوادث الحربية المكانية، والنوازل السياسيَة، والمعاهدات الدولية، بإلغاء القرصنة، وإسقاط استعباد الأسرى من النَّصارى والمسلمين، فأسرع الخراب إليها، وعمَّ سائر مبانيها ومصانعها، وتكدَّست الرِّمال في أحواضها ومجاريها، ولم يبق بادياً منها الآن، إلاَّ البابان الفارهان العظيمان المتقدِّم وصفهما، شاهدين على ماضيها الحافل بالذِّكريات الخالدة، التي سجَّلها التاريخ فلا تُمْحَى، وتناقلتها الأجيال المتعاقبة فلا تُنْسَى.

22) يعني جده المولى إسماعيل رحمه الله.

تحويل دار الصّناعة السّلاوية إلــى حــارة يهــوديــة

كان اليهود بسلا في القديم، بالحيِّ المعروف اليوم بالملاح[23] القديم.

ويبتدئ من حيّ رأس الشجرة – أمام حَمام الطّالعة – إلى حيّ باب حسين. وكانت دورهم مختلطة بدور المسلمين، وبِيَعُهُم قريبة أو مصاقبة لمساجدهم. وما زالت بعض الدّور القديمة بهذه الناحية، بها ءاثار اليهود، وتُنسب إليهم، كدارابن عطّار برحبة باب حسين، التي صارت منذ عهد ابتداء الحماية مدرسة ابتدائية، بعد الزيادة فيها وتغيير بعض مبانيها.

وكان المسلمون يتضررون بسكنى اليهود بين أظهرهم، وإدايتهم. وتنجيس مساكنهم ومساجدهم، وخصوصا في أوقات نعيرهم بصلواتهم، في سبوتهم وأيامهم المقدسة وأعيادهم، فضاقوا ذرعا من ذلك، ورفعوا إلى السلطان المولى سليمان، رحمه الله، في السادس والعشرين من جمادى الأولى عام اثنين وعشرين ومائتين وألف (26 جمادى الأولى 31/1222 يوليوز 1807) موجبا لفيفيا يقولون فيه :

الحمد الله وحده.[24]

شهوده الآتية أسماؤهم عقب تاريخه، يعرفون مساجد للمسلمين بين دور يسكن بها أهل الذمة من مدينة سلا المحروسة، ويشهدون مع ذلك بأن المساجد المذكورة تعطلت منفعة بعضها وما بنيت لأجله من إقامة الصلوات الخمس فيها في اليوم والليلة، من أجل سكنى أهل الذمة الساكنين بالدور المذكورة، يعرفونهم يخرجون المياه من دورهم، ويرمون بها في الزقاق، فتمر على المساجد المذكورة. عاينوا ذلك منهم، وشاهدوه المرة بعد المرة، ويعرفونهم مع ذلك يستعملون النجاسات في دورهم، ولا يتوقونها من خمر وغيره، و يخلطون ذاك مع ما يفضل لهم من الخمر حال عصرها، ويمر ذلك على أبواب المساجد المذكورة، ويشهدون مع ذلك بأن أكثر الدور المذكورة إنما يملك أهل الذمة منفعتها بالكراء من ملاكها، وملاكها مسلمون، ويشهدون مع ذلك، بأن أهل الذمة المذكورين حيث يجتمعون بكنائسهم للإعلان بكلمة كفرهم، يرفعون أصواتهم جهارا بذلك على المسلمين، وعنادا منهم، وتعنيتا على عباد الله المومنين.

---

23) المغاربة يسمون حارة اليهود بالملاح.

24) الدفتر التاريخي لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري.

كل ذلك يعرفونه من حالهم ويعتقدونه حتى الآن من سيرتهم، يحقونه ولا يشكون فيه، وبه أدوا شهادتهم، وبضمنه قيدت عنهم لسائلها، في السادس والعشرين من المحرم فاتح عام اثنين وعشرين بعد المائتين والالف (26 محرم 21/1222 مارس سنة 1806).

1 - الشريف، الفقيه، السيد الحاج زين الدين، بن الفقيه البركة، سيدي رضوان، من آل الشيخ القدوة سيدي محمد بن مبارك، نفع الله به.
2 - ابن عمه الشريف السيد الحاج عبد السلام بن موسى النَّسب.
3 - الطالب السيد الحاج المكي بن الطالب السيد الحسن السوسي.
4 - الطالب السيد محمد بن أحمد بن سليمان.
5 - الطالب السيد الحاج عبد الله بن محمد قنديل.
6 - الطالب السيد قاسم بن محمد اجلزيم.
7 - الطالب السيد عبد الواحد بن بلقاسم الدرعي.
8 - مولاي الطاهر بن السيد علي عتُّو.
9 - السيد الحاج الطاهر بن الحاج أحمد بن إبراهيم.
10 - المرابط السيد السعيدي بن سيدي بومدين حجي.
11 - المرابط السيد محمد بن محمد اعمار.
12 - ولد أخيه السيد محمد بن الحاج الطيب.
13 - المقدم السيد محمد بن أحمد نصرون.
14 - المسن السيد حجي بن الحاج مسعود الحصيني.
15 - السيد عبد العزيز بن قاسم سوسان.
16 - السيد محمد الهاشمي معنينو.
17 - السيد حجي بن الحاج أحمد النسب.
18 - السيد محمد بن محمد النَّسب.
19 - المجاهد السيد إبراهيم بن محمد حركات.
20 - المجاهد السيد يوسف بن محمد الخلطي.
21 - السيد بناصر بن الحاج أحمد فنيش.
22 - السيد محمد بن عبد القادر النسب.
23 - السيد الحاج عبد القادر بن محمد زنيبر.
24 - عبد الله بن الطيب زنيبر.
20 - المجاهد السيد محمد بن محمد اخلفي.
26 - الطالب الأبر السيد الحاج محمد بن الحاج التهامي الرحماني.
27 - الطالب السيد الحاج محمد بن الحاج أحمد لعلو

28 - السيد محمد بن الحاج محمد القصري.
29 - السيد محمد بن الطاهر النسب.
30 - عبد السلام بن محمد الرئيس.
31 - الحاج محمد بن الحاج محمد السمّار.

الحمد لله، أدوا عصمته

الحمد لله وحده :

اشهد الفقيه الاجل، العالم العلامة الأمثل، البركة الأفضل، النبيه الأنبل، قاضي مدينة سلا ونواحيها حينه، وهو محمد الهاشمي طوبي، وفقه الله، أعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم أعلاه الثُّبوت التام لصحته عنده، وثبوته لديه بواجبه، وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر، دامت كرامته، وتواصلت سعادته، وبتاريخ أعلاه.

محمد بن علي السوسي لطف الله به، ومحمد ابن خضراء وفقه الله بمنه آمين.

ونصُّ التزكية :

الحمد لله :

يشهد الواضع شكله، إثر تاريخه، بمعرفته للأول من الشهود المتلقّى منهم خوله والتاسع والعاشر والحادي عشر والثالث عشر والتاسع عشر المعرفة الكافية، يشهد بها ومعها، يشهد أن كل واحد منهم عدل رضي يُقْضَى بشهادته في الأموال وغيرها، حتى الآن في علمه، وبه قيد شهادته مسؤولةً منه لسائلها.

وفي سابع شعبان المبارك، عام واحد وعشرين ومائتين وألف (07 شعبان 20/1221 أكتوبر سنة 1806).

عبد الله سبحانه، عبد الهادي بن الهاشمي زنيبر، لطف الله به في الدارين، ومحمد بن علي السوسي لطف الله به.

تأسيس الملاح الجديد
بمحل دار الصناعة السلاوية

بعد إقامة هذا الموجب اللّفيفي، ورفعه للسلطان المولى سليمان، واطّلاعه عليه، أمر - رحمه الله - بإخراج اليهود من الدّور التي كانوا ساكنين بها بالملاّح القديم بالمدينة، كما أمر بإخراج يهود الرباط من الحارة التي كانوا ساكنين بها مع المسلمين أيضا بالمدينة، حسبما سياتي ذكره في محله عند الكلام على عمران الرباط.

وخصّص ليهود سلا، محلّ دار الصّناعة، وكانت مُهملة معطّلة كما تقدّم بيانه، يبنون بها دورهم وينتقلون إليها. وعند التنفيذ أُقيم موجب عدلي، تضمّن تخطيط الملاّح الجديد، وكيفية العمل في البناء والانتقال جاء فيه :

الحمد لله.

وفي الخامس والعشرين من جمادى الأولى عام اثنين وعشرين ومائتين وألف (25 جمادى الأولى 31/1222 يوليوز سنة 1807)، وقف شهيداه عن إذن الفقيه العلاّمة القاضي السيد محمد بن أحمد، دُعي ابن الفقيه الجريري، مع مَنْ اسْتَدْعَاهُمَا للوقوف، وهو المعلّم البنّاء المهندس الحسن ..... بن السوداني، على عين الملاّح الجديد، الذي أمر أمير المومنين مولانا سليمان بن محمد بإحداثه بالموضع المُسمّى بدار الصّناعة، قُرْبَ باب الخبّاز من محروسة سلا، فحضر المعلّم المذكور، ومعه ولد أخيه المعلم... البنّاء أيضا، وأذن المعلّم المذكور، لولد أخيه المذكور بأن يكون مبدأ سور الملاّح ملازقاً من ناحية الغرب للسّور الذي فُتح به باب الخبّاز، مُمتداً من ناحية الغرب لناحية الشّرق إلى سواني هنالك، وينعطف من هنالك من ناحية الجوْف، إلى أن يلتزق بسور دار عمل الصّنْعة، من ناحية القبلة طوله إحدى عشرة مائة شبر (1100)، وقدر عرضه من ناحية الشرق إلى سور باب الخبّاز من ناحية الغرب، أربعمائة وثلاثون شبرا (430)، وتكون به زنقة مارّة من باب الملاّح من ناحية الجوف إلى انتهائه من ناحية القبلة، سعتها - أي الزنقة - خمسة عشر شبرا (15)، ويكون عرض الحائط، يعني حائط البناء من ثلاثة أشبار (03) ويجعل بوسط الملاّح، سلوقية كبيرة مارّة من ناحية الجوف، لناحية القبلة لمجرى فيض الملاّح وفضلته، ويكون بالملاّح : حوانيت ثمانية، وفُرْنَان وطاحونتان، وأذن المعلّم المذكور لأهل الذّمّة أنّ كلّ من يلي السّور من ديارهم، وأراد غرز سقف بيوته بالسّور، فلا مانع له أن يفعل.

وأشهد المعلّم المذكور شهيديه بذلك كلّه، وهو بأتمه، وعرفاه، وبمحضر القاضي المذكور.

انتهى ما وجد.

قلت : والسّلوقية المذكورة في الرسم أعلاه، كانت مارّة بوسط الباب التّاريخي الكبير، ومُنصبّة فيما بقي من أثر القنال المتقدّم الذكر، الجامع بين دار الصّناعة والوادي. وقد أدركنا ذلك وشاهدناه.

وكان الباب مُغلقاً بحائط مبني في وسطه، مرتفع إلى منتصفه، ولم يفتح إلاّ لمّا جُفّفت السِّباخ والمستنقعات التي كانت هنالك بالأرض المعروفة بالخُميس بالتصغير، متولّدة عن القنال المذكور، وما حواه من الفضلات ومياه الأمطار المتجمّعة فيه، عام أربعة وثلاثين وثلاثمائة وألف (1915/1334).

وعلى كل حال فإنّ الرّمال كانت غمرت معظم الأرض التي كانت مُشيّدة بها مصانع دار الصّناعة، ومباني المرسى وأحواضها، وملاجيء السُّفن الرّاسية فيها، والمتردّدة عليها، قبل بناء الحارة اليهودية فيها.

وهكذا تطورت دار الصّناعة السّلاوية منذ نشأتها في عهد الموحدين، وبلوغها أوج العظمة والشُّهْرة في عهد بني مرين، إلى الضّعف والرُّكود والإهمال، شيئا فشيئا، ثمّ إلى طوْر العَفاء والاضمحلال، أثناء الأعصار المتوالية والأجيال، إلى أن أصبحت حارة يهودية، بعد أن كانت دار صناعة بحرية، تُجهّز منها الأساطيل الجهادية، لإبقاء كلمة الله عالية، بالعدوة الاندلسية، وتُصنع فيها المراكب والسُّفن القُرصانية، التي جالت في البحرين، الابيض المتوسط، والمحيط الاطلانطيقي، نحو القرنين من الزمن، أتعبت فيهما الأساطيل الأروبِّية، وأثارت عدّة مشاكل سياسية، ومعاهدات دولية، كانت تُكتب وتُمحى، وتُحترم تارةً وتُلغى، بحسب الظروف ومقتضيات الأحوال، من آونة لأخرى :

وإذا نَظَـرْتَ إلى الْبِـلادِ رَأَيْتَـهَـا   تَشْقَى كَمَا يَشْقَى الْعِبَادُ وَتَسْعَدُ

ولِلّه سبحانه وتعالى في خلقه شؤون.

ومن آثار بني مرين بسلا :

* سـور الأقـواس المحمـول عليه الماء الداخل إلى سلا

لم يكن بسلا في عهدها الأوّل، ونشأتها الابتدائية التّاريخية، على يد بني العَشَرَة طِوال زمن اليَفْرنيين والمرابطين والموحدين، ماء عذب فُرات يصلح للشرب، وينتفع به أهلها في مساجدهم ودورهم، وإنّما كانوا يستعملون في عادتهم وعبادتهم ما يستنبطون من مياه

الآبار، وما يجمعونه من ماء المطر في مَاجِل، وهو النّطْفية في لسان أهل المغرب، ولذلك لا تجد داراً من دورها إلى عهد غير بعيد إلاّ وفيها بير ومَاجِل (نطفية) تخزن مياه الأمطار، وجُلُّ آبارها سهبة بعيدة القعر، لا عذبة ولا كريمة.

وقد وصفها بعض من كتب فيها من الكُتّاب في ذلك العهد، - كابن الخطيب - بقلة الماء، وقال في مقامته البلدانية :

"إلاّ أنّ ماءها لا يروى به وارد، لا كريم، ولا بارد". ثم قال :

"وديارها في الماء دار عثمان".

وقال في «المفاضلة بينها وبين مالقة» :

"والماء بها معدوم، ليس له جبّ معلوم، ولا بير بالعذوبة مرسوم..."

ولم يتنبه أو لم يتوفّق أحد من الأمراء والملوك السابقين إلى تزويدها بالماء العذب، الصالح للعادة والعبادة والشُّرب، مع أنّها كانت إذ ذاك مصراً من الأمصار المهمّة في طوْر التّكوين والازدهار، أو ثغراً من الثّغور الحربية الجهادية التي يتعيّن الاهتمام بتوفير وسائل الصِّحّة الضّرورية للجيوش المارّة بها، والمرابطة في أنحائها، لأنّ الماء عنصر الحياة ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

كانت هذه حالة سلا المائية في أزمنتها الاولى، إلى أن جاء السلطان أبو يوسف، يعقوب المنصور الموحدي، وأعاد بناء المسجد الاعظم العتيق بحي الطّالعة كما تقدّم، ولمّا أتمّه قالوا : إنّه جلب له الماء من عيون البركة، ولا ندري كيفية جلبه ولا مقداره. وكان خاصّاً بالمسجد، ولم تنل منه المدينة شيئا.

وعيون البركة، وكان يقال لها في ذلك العهد، عيون مرج الحمام، ثلاثة عشر عينا منبجسة بغابة المعمورة شمال شرق المدينة، تبعد عنها بأربعة عشر كيلومترا.

واستمرّتْ الحالة على ما هي عليه، إلى زمن السُّلطان أبي الحسن، علي بن عثمان المريني، لمّا بنى مدرسته الأثرية، الملاصقة للمسجد الأعظم، وسياتي الكلام عليها مفصّلاً في الفصل الخاصّ بها بعد هذا. وكان لابدّ له من تزويدها بالماء الكافي، العذب الصّافي، ولعلّه نظر في ماء المسجد الأعظم فوجده رَشْفاً لا يفي بحاجة عمّارة والمتطهِّرين منه.

فجلب أو جدّد جلب الماء من عيون البركة، وبنى سور الأقواس المحمول عليه، وهو أثر عظيم، وهيكل ضخم فخيم.

وقد كان – رحمه الله – كثير الاهتمام ببناء القناطر والجسور، وضبط العيون المتفجِّرة في أنحاء مملكته والانتفاع بمياهها.

قال الخطيب، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن مرزوق في «المسند الصحيح الحسن، في مآثر المولى أبي الحسن» :[25]

"أخبرني الفقيه الإمام، نور الدِّين، أبو الحسن، علي بن محمد بن فرحون اليعمري، بالمدينة شرَّفها اللّه قال : ما مررْت ببلاد المغرب بساقية ولا مصنع[26] من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشُّرب والوضوء، فسألت عنها إلاَّ وجدتها من إنشاء السلّطان أبي الحسن، رحمة الله عليه.

وصدق. فإنَّ أكثر السِّقايات المعدَّة للاستسقاء وسقي الدَّوابّ بفاس وبلاد المغرب معظمها من بنائه، رضي الله عنه. و كذلك أكثر الميضئات. وكان له على ذلك شِدَّة حِرْص رغبة في ثوابه، فالمواضع التي بفاس لا تحصى."

ثم قال :

"وأمَّا عمله في جلب الماء داخل مدينة سلا، وإنفاقه في ذلك الأموال الطّائلة، حتّى أوصله من الموضع المعروف بمرج الحمام إلى الجامع الأعظم بداخل المدينة، وذلك على أميال، فاللّه يكتب له أجره..."

وقد عدَّ الشيخ أبو العباس الناصري في «الاستقصا» من مآثر هذا السلطان بناء هذا السّور، وحيث إنّه لم يقف على نصٍّ ابن مرزوق المتقدّم، فقد استنتج ذلك استنتاجاً لطيفاً صحيحاً، فقال رحمه الله :[27].

"وعندي، أنَّ السّور المحمول عليه الماء الدّاخل إلى سلا، المعروف عندهم بسور الأقواس، من بناء السّلطان أبي الحسن، رحمه الله.

ولي في ذلك مستند غريب، وهو أنّي كنت ذات يوم أفاوض بعض القَناقِنَة بسلا ممّن كان يباشر أمر المياه بها، ويصلح ما احتاج إلى الإصلاح منها، فقلت كالمستفهم لنفسي، من غير قصد توجيه الخطاب إليه، يا تُرى من الذي بنى سور الماء الدّاخل الى البلد ؟

---

25) نسخة الخزانة الناصرية التامجروتية، مخطوطة محفوظة بالخزانة العامة بالرباط.

26) يقصد بالمصانع أرحية الماء الموضوعة على وادي فاس.

27) «الاستقصا»، ص 86 من ج 2 طبع القاهرة. وص 167-168 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

فقال على البديهة : "الذي بنى المدرسة هو الذي بني سور الماء". فقلت له – وكنت متشوّفاً يومئذ لتحقيق ذلك – : وما علمك بهذا ؟ " فقال : "إنَّ بِيلَةَ المدرسة بُنيت يوم بُنيت المدرسة، بدليل الزَّليج المرصوف حولها بالعمل الكبير الموجود نظيره في سائر حيطان المدرسة وسواريها. وهذه البيلة لم تتغيَّر عن حالها إلى أن باشرت إصلاحها في هذه الأيام، فحفرت قنواتها، وتتبَّعتُ مادَّة الماء الواصل إليها، فاذا عمل تلك القواديس، وصنعة بنائها، حتّى الكلْس المُفْرَغِ عليها، الجامع بينها، مماثل لعمل قنوات مَبْنِية بالسّور المذكور داخلة فيه، بحيث بُني عليها يوم تأسيسه من غير فرق بين هذه وتلك في جميع عملها" ؛ قال : "وليس شيء من القنوات الحادثة بعدهما يشبههما".

فعلمت أن الذي بناهما واحد. فأعجبني كلامه، وباحثته في ذلك فصمَّم على معتقده، وحاولت تشكيكه بكلٍّ وجه فلم يتشكَّك، فظهر لي صدق دليله، وغلب على ظني ما جزم به، وعند الله علم حقيقة الأمر.

و عقَّب عليه في «الاستقصا» بقوله :

"واعلمْ أنَّ هذا السّور من المباني العادية، والهياكل العظيمة، التي تدلُّ على فخامة الدّولة، وكمال قوتها، مثل ما يُقال عن حنايا قرطاجنَّة ونحوها. وهذا السّور مسوق من عيون البركة – خارج مدينة سلا – على أميال كثيرة، ممتداً من القِبلة الى الجوْف، على أضخم بناء وأحكمه، موزون سطحه بالميزان الهندسي، ليتأتّى جريان الماء فوقه على استواء، ولذلك ينخفض إلى الأرض متى ارتفعتْ ويعلو عليها إذا انخفضتْ، ويجري على متنه من الماء مقدار النّهر الصغير في ساقية قد اتُّخذت له. ولمَّا شارف البلد، عَظُمَ ارتفاعه جداً لأجل انخفاض الأرض عنه. وكلَّما مرَّ في سيره بطريق مسلوك، فُتحت له فيه أقواس، فَسُمِّي لذلك سور الأقواس."

وبالجملة، فهو شاهد لبانيه بضخامة الدّولة وعظم الهِمَّة.

وبمقتضى نص ابن مرزوق، وما جاء في «الاستقصاء» فقد كان بناء هذا السّور في العقد الرابع من القرن الثامن للهجرة، الموافق للعقد الرابع من القرن الرابع عشر للميلاد.

ولمَّا وصل الماء إلى المدينة، ولَجَها من باب شَعْفَة، وجرى في قنوات خاصَّة إلى المدرسة والمسجد، فتفجَّر فيهما.

ومع ذلك فإنَّه لم يكن عاماً في المدينة كلِّها، وإنَّما كان خاصاً بالمدرسة والمسجد، وربَّما نالت حِصَّة منه بعض المساجد الأخرى والسقايات العامَّة التي مرَّ عليها في طريقه.

والدَّليل على ذلك، أنَّ جُلَّ مساجد سلا الأثرية، أو القديمة المبنية في عهد الدَّولة المرينية أو بعدها، في دُورِ وُضوئها آبار خاصَّة بالمتوضِّئين، وكذلك بالميضات العامَّة بالأسواق والأحياء.

ولمَّا بنى السلّطان أبو عنان بن أبي الحسن المذكور، زاوية النُّسَّاك التي سياتي الكلام عليها خارج باب فاس، وهو باب الخُمَيْس اليوم، جَلَبَ إليها الماء في قنوات خاصَّة من السّور المذكور، وفجَّره بصَهْريجها وبيوت طهارتها.

وفي زمن المولى إسماعيل - رحمه الله - حصل فساد وتخريب في السَّاقية الجارية فوق السّور، وتلاشت القنوات الداخلية بالمسجد، لطول الزَّمن وقلَّة التَّعاهد، وتطلَّب ذلك نفقات كثيرة، وترتَّب عليه قلَّة الماء، أو نضوبه بالكُلِّية بالمسجد، فاقتضى نظره - رحمه الله - تحبيس دخل الحوت الشّابل المُصطاد من مشارع وادي أبي رقراق على إصلاحها وتعاهدها، وأصدر بذلك ظهيرين شريفين، أحدهما مؤرخ بفاتح جمادى الأولى عام ثلاثة عشر ومائة وألف (فاتح جمادى الأولى 14/1113 أكتوبر سنة 1701)، والثاني مؤرَّخ بفاتح صفر عام أربعة و عشرين و مائة و ألف (01 صفر 10/1124 مارس سنة 1712). فأعيد إصلاح السّاقية الجارية فوق السّور، وجُدِّدت القنوات، وعاد الماء إلى مجراه، ودام العمل متواصلا في هذا الإصلاح والتَّجديد نحو عشرة أعوام، حسبما تقدم الكلام عليه مستوفى في الفصل الخاص بتحبيس الحوت الشّابل على إصلاح السّاقية المذكورة، وإلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن على الدكالي في رجزه بقوله :

وَجَلَبَ الْمَاءَ إِلَيْهَا وَبَنَى مَعَاقَلاً ثُمَّ الْمَسَاجِدَ انْبَنَى

وجرى العمل على ما عَيَّنه المولى إسماعيل - رحمه الله - من الإصلاح والتَّعاهد من دخل الحوت الشّابل، كلَّما دعت الحاجة إلى ذلك، إلى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف (1913/1331) فانكشف غطاء العيون في عِدَّة مواضع، وصار السُّكَّان المجاورون لها يغسلون فيها ثيابهم ويسقون منها دوابَّهم ومواشيهم، ويصل الماء إلى المسجد وبعض السقايات التي يمرُّ بها، ويجري فيها متغيّراً طعما ولوْنا، مع قلَّة اندفاع في أنابيبها، وربَّما نضبت بالكُلِّية، وخصوصا في زمن المصيف، فتشتدُّ الحسرة، ويضيق النّاس من قلَّة الماء أو عدمه الأيّام العديدة، ولاسيما بالمسجد الأعظم، وصار أصحاب القِرَب يستقون الماء العذب للشُّربِ من عيون الخطاطير بالمحل المعروف بالخندق، أو عيْن الحَوالة بناحية الولجة، ومن بير رسٍّ كانت قرب ضريح الشيخ أبي حاجة، خارج الباب المنسوب إليه، وأصلحتها إدارة هندسة المياه، فاكتشفت في غياباتها على عمق نحو عشرة أمتار ماءاً واتناً غزيراً

كثيرا، فانتفع النّاس به جِداً في تلك الحسرة، وقد تعطّلت هذه البير، وطُمرت بعد ذلك للاستغناء عنها.

كما أنّه في عهد الاحتلال، لمّا كان الجيش نازلاً بالرّمْل على ضفّة أبي رقراق و شاطئ البحر، استنبط عدة آبار على الشاطىء البحري، فوجد ماءها عذبا زُلالا، وكان يستقي منها، وكذلك أهل المدينة، وبعد انتقاله، طُمرت، ولم يبق لها اليوم أثر.

وقد حاول ناظر سلا في ذلك العهد، إصلاح السّاقية وتنظيفها، فلم يُجْدِ إصلاحه شيئا، لأنّ الأمر كان يتطلب عملا كثيرا، ونفقات كبيرة تضيق عنها مداخيل الأحباس، وفنّيين يقومون به ويسْهرون عليه.

وحينئذٍ تولّت إدارة الأشغال العمومية القيام بتجديد السّاقية كلِّها، وإعادة بناء ما تحطّم منها، وتغطيةً العيون وصيانتها، وضبط سائر ينابيعها المتفجِّرة منها، بحيث لا يضيع منها شيء ولا تجري إلاّ في السّاقية، وبنت صهريجاً كبيراً واسعاً بباب شَعْفَة عند مدخل الماء إلى المدينة، وجعلت فيه آلات تصفية وتنقية، فينصبٌ فيه الماء، وبعد مروره على المصفاة، ينصرف عنصر منه إلى المسجد، ويوزع الباقي على المدينة على كيفية منظّمة وقتية.

وفي الخامس والعشرين من ربيع الثاني عام خمسين ثلاثمائة وألف (25 ربيع الثاني 09/1350 شتنبر 1931) صدر بالجريدة الرسمية عدد 987 المؤرّخة بخامس وعشرى شتنبر، الموافق لثاني عشر جمدى الأولى من السنة المذكورة، قرار وزيري يتعلّق باستغلال الإدارات العمومية لتوزيع الماء والكهرباء بالبلديات والمراكز المغربية بواسطة مكتب تدبير أنواع الإنتاج الصناعي "ريب" (R.E.I.P.) وأسند إليه القيام بجلب الماء من وادي الفوارات إلى الدار البيضاء. وبمقتضى هذا القرار الوزيري، تَمَّ عقد اتِّفاق بين المكتب المذكور، وبلديات : القنيطرة، وسلا والرباط، والدار البيضاء.

وبذلك وقع الاهتمام بإنجاز هذا العمل الكبير، الذي كان وقع الشروع فيه قبل ذلك بِمُدّة على يد الحكومة، منذ سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وألف (1346/1928)، واستمر جاريا إلى سنة خمس وثلاثمائة وتسعمائة وألف (1353/1935).

وعيون وادي الفوارات نابعة في المعمورة، وتبلغ قوة نبعها ثمانمائة ليتر (800 ل) في الثانية، فضُمَّ ماؤها وجُمع على مسافة إحدى وعشرين كيلومترا، وصُبَّ في قنوات قطر دائرتها متر مُكعَّب، أُفرغت بالإسْمنت والحديد، وامتدّت من الوادي المذكور إلى الدار البيضاء، على مسافة مائة وثلاثين كيلومترا.

فزوِّدت في طريقها القُنيطرة بالماء الكافي، وأضيف قسط منها إلى عيون البركة المتقدِّمة الذِّكر، فأروت سلا، وبُنيَتْ لها قنطرة خاصَّة على أبي رقراق مرت عليها مُتَّجهة إلى فضالة والدار البيضاء، بعدما كَمُلَت النَّقْص الذي كان محتاجا إليه الرباط، بتخصيص القدر الكافي لحاجته مُضافاً إلى عين غبولة التي يُسْتَقَى منها منذ عهد الموحدين.

ولمّا تمَّ هذا العمل العظيم، عمَّ الماء وانتشر بمدينة سلا وأرباضها وأجنَّتها، ممتدَّة شرايينه الرَّصاصية في سائر مساجدها وزواياها ودورها وحمّاماتها وأسواقها وساحاتها العمومية، وأزِقَّتها ودروبها النّافذة وغير النافذة، ولم تَشْتَكِ بعد ذلك نُضوبا ولا ظمأ.

وبمقتضى إنجاز هذا العمل الكبير، دخل سور الأقواس في المصالح العمومية، والآثار التّاريخية، وتولَّت إدارة الأشغال العامَّة إصلاحه وتعاهده تحت إشراف إدارة الآثار القديمة والفنون الجميلة بالمغرب، واستبدَّت الأحباس بدخل الحوت الشّابل الذي كان مُحبَّسا عليه وصارت تنفقه في المصالح الحبسية العامَّة. وقد كانت قبل ذلك بعدَّة سنين أصدرت إدارة المحافظة على الآثار القديمة المذكورة ظهيراً شريفاً يوسفياً سجَّلته بمقتضاه في جملة الآثار الفنِّية التي يجب المحافظة عليها، ونصه :[28].

نص الظهير اليوسفي الشريف

الحمد لله وحده : وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(الطابع اليوسفي)

يُعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعزَّ أمره، أنَّه بمقتضى ما يظهر من المنفعة الفنِّية والتّاريخية الناتجة من صيانة قناة مدينة سلا.

وبمقتضى ظهيرنا الشريف المؤرَّخ في السّابع عشر من ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف (17 ربيع الأول 1332/ ابراير سنة 1914).

وبناء على استشارة مدير إدارة الآثار القديمة والفنون الجميلة والأبنية التّاريخية.

وبناء على طلب الصَّدر الأعظم، أصدرنا أمرنا الشَّريف بما ياتي :

---

28) صدر هذا الظهير الشريف في الجريدة الرسمية عدد 77 بتاريخ 28 قعدة عام 1332 الموافق 19 أكتوبر سنة 1914.

فصل فريد

يُقيَّد في عدد الأبنية التَّاريخية، القناة التي بُنيت في عهد سلاطين القرن السّادس والقرن الثّامن للهجرة، خصوصاً الجزء الممتدّ بين مدخل المدينة والمكان المُعبَّر عليه برأس الماء والسلام.

وحُرِّر برباط الفتح في تاسع عشر قعدة الحرام عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف (19 قعدة 9/1332 أكتوبر سنة 1914).

قد سُجِّل هذا الظهير الشريف بالوزارة الكبرى بتاريخ عشري قعدة عامه.

صح به (20 قعدة /10 أكتوبر).

مَحمد بن محمد الجبّاص

* المدرسة المرينية العظمى قبلى المسجد الاعظم[29]

هذه المدرسة بناها السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن عبد الحق المريني، بطالعة سلا، قبلى المسجد الأعظم.

وقد استظهر أبو عبد الله محمد بن علي الدُّكّالي، في بعض مقيداته، أنَّها شُيِّدت على أنقاض قصر بني عشرة، الشهير الذِّكر في التاريخ، حسبما تقدَّم ذكره آخر الفصل الخاصِّ بموقع هذا القصر.

وكان ابتداء تأسيسها، سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة (1333/733) على هيئة بديعة، وصنعة رفيعة، وأوْدع جوانبها من أنواع النقش وضروب التَّخْريم، ما يُحيِّر البصر ويدهش الفكر، واشتغل فيها أرباب الصِّناعات، من البنَّائين والنجَّارين والنقَّاشين والجبَّاسين، والزَّلِّيجيين، والرّخَّامين، والقَنوِّيين والدّهَّانين والحدَّادين والصفَّارين والفنّانين، من سلا وفاس، جمهور وافر مدة تسع سنين.

---

29) أضفنا إلى النقول التي اعتمدنا عليها في هذا الفصل، معلومات خاصَّة من بعض الوثائق والرُّسوم القديمة، أو تلقَّيناها ممَّن له اعتناء بهذا الشأن.

ولا غرابة في ذلك، فقد امتاز عصر بني مرين بالتفنُّن في استعمال الزلِّيج، والرُّخام المُجَزَّعْ، والنَّقش على الجبْس، والخشب المحكم الصُّنع، سواء في أبنيتهم السلطانية، أو آثارهم الدِّينية والتّاريخية.[30]

و قيل : إنّ البناء كان على يد قاضي سلا في ذلك العهد، تحت إشراف الكاتب السلطاني أبي العباس أحمد الزَّواوي الذي مات غريقاً في قضية الأسطول.

وجلب إليها الماء في قنوات خاصَّة من الماء الذي أدخله إلى المدينة، المحمول على سور الأقواس الذي تقدَّم الكلام عليه.

وكان المكلَّف بهذه القنوات والماء الجاري فيها من أُسْرَةَ المِّيهي – بتشديد الميم المكسورة وكسر الهاء –، وهم سلاويون، أصلهم من بني عبد الواد المتنقلين من تلمسان الى المغرب، في عهد السلطان المذكور، أثناء الحروب التي كانت بين بني مرين وبني عبد الواد في ذلك العهد.

ومن حرفتهم المائية اشْتُقَّ اسمهم الذي أطلقه عليهم السلطان المذكور، كما تلقيته عمَّن نقله عنهم، ووقف عليه في ظهائر سلطانية قديمة جدا، ورسوم كانت بيدهم.

ويقال إنَّ الدار المعروفة بدار «بَلأَّرَجْ» بحيِّ القساطلة، كانت حُبُساً عليهم منذ ذلك العهد في مقابلة إصلاحهم لقنوات ماء المدرسة المذكورة، والله أعلم.

وأحدث – رحمه الله – بأجزاء هذه المدرسة في حائط بابها سقاية مزخرفة بالزلِّيج وأنواع النُّقوش الرَّفيعة، وما زالت قائمة العين إلى الآن، إلاَّ أنَّ الماء انقطع منها في هذه السِّنين الأخيرة.

وتشتمل المدرسة على صحْن أو ساحة مفروشة بالزلّيج، وبوسطها حوض من الرُّخام، على هيئة محَّارة للوضوء.

ويحيط بهذه السّاحة أروقة أو مباحات محمولة على سواري مفردة أو مزدوجة ملبَّسة هي وما يحيط بها من الحيطان بالزلّيج المختلف الألوان.

وبناحية القبلة، قُبَّة كبيرة فسيحة مُعدَّة للصَّلاة، غُطِّي سقفها بالتَّزويق النَّفيس المُلَوَّن على أشكال هندسية من النَّوع المعروف بالسِّتيني أو التَّسطير، ويحيط به إزار من العود المُخَرَّم وبوسطها محراب الصَّلاة.

---

30) ص 189، طبع فاس.

وعن يمين الأسطوان، توجد الدَّرَج التي يُصْعد عليها إلى الطَّبقة الأولى المحتوية على اثْنَيْ عشر حجرة، مفتحة أبوابها في مَمْشى طويل.

وفوق هذه الطَّبقة، طبقة أخرى مثلها تشتمل على اثني عشر حجرة أيضا، مُعدَّة لسكنى طلبة العلم الملازمين لِلدُّروس بالمسجد الأعظم الملاصق للمدرسة. وفوق ذلك سقف يُغطِّي الجميع.

وقد شُحِنَتْ جميع الأبواب والحيطان والسَّواري والسُّقوف وقبَّة الصَّلاة بالآيات القرآنية والأشعار المتضمِّنة وصفَ محاسنِ المدرسة، والثَّناء على بانيها بمختلف المعاني الرَّائقة، وبعضها تناثر زلّيجه وجبسه، فصَعُبت قراءته، وبعضها مُحِيَ واختلط وصار لا يُقرأ إلاَّ بمشقَّة.

وها نحن نذكر بعض ما بقي منها أو نُقل إلينا، فمن ذلك :

ما كتب على الباب نقشا في العود :

أمر ببنـاء هذه المدرسة أمير المسلمين...

وكان تأسيسها سنة ثـلاث وثلاثيـن وسبعمائـة (1333/733).....

﴿أدخلوها بسلام آمنين...﴾

وهناك كتابة أخرى تصعب قراءتها.

وبأعلى الباب :

الملك لِلَّه والعز. ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾

وكُتِبَ بالرِّواق الذي عن يسار الدَّاخل :

النَّصر والتَّمكين، والفتح المبين، لمولانا السلطان أبي الحسن أمير المسلمين.

وفوْق قوس هذا الرِّواق، وبألواح الأقواس الأربعة المتقابلة :

فَـاللَّهُ يَحْـفَظُهُ في النَّفْسَ وَالْخَـوَلِ ... بِالنَّصْرِ يُصْحَبُ في حَـلٍّ وَمُرْتَحَـلِ
وَالسَّعْدُ مُتَّصِلٌ مِنْ غَيْـرِ مُنْفَصِـلِ ... وَالْعَيْشُ فِي رَاحَةٍ وَالْعُمْرُ في جَذَلِ

ثم :

الملك لِلّه الواحد القهّار.

العزُّ لِلّه الملك الغفّار.....

وبإزاء الأساطين نُقِش :

﴿وما النَّصر إلا من عند الله، عليه توكلت، وهو ربُّ العرش العظيم﴾.

وأبيات شعرية بحروف مُجسَّمة على الجبس، تناثر بعضها، فذهبت معانيها، وقد شغلت الحُزم الجبسية صعوداً وانحداراً، أفراداً وأزواجا، ومنها[31]

إِنَّــنــا نَبْنِــي لِلْمَــــلاَ...

يَـــا ثِقَــتِــي يَا أَمَلِــــى ... أَنْـتَ الرَّجـــا أَنْـتَ الوَلِـــي

إِخْــتِمْ بِخَـــيْرٍ عَـــمَـلِي ... عِـــــــنْدَ حُلُولِ الأَجَـــلِ

و بعدها :

﴿وما النَّصر إلاَّ من عند اللَّه﴾ زدنا من فضلك المتوالي.

وممَّا كُتب على القناطر الموالية لسقف بابها هذه الأبيات :

أَلاَ فَــالْحَظْ بِطَرْفِكَ حُــسْنَ بَابِي ... وزَهْوِي واحْـتِـفَـالِي وانْتِـخَـابِـي

وَمَــا أُودِعْتُ مِنْ حُــسْنٍ بَدِيــــعِ ... وَمَـا ضُــمِّنْتُ مِنْ عَـجَبٍ عُـجَابِ

بَدَائِعُ أَحْكَــمَ الصُنَّـــاعُ فِـيهَـــا ... فُنُوناً تَــزْدَرِي حُــسْــنَ الشَّـبَـــابِ

فَــدَامَ النَّصْـــرُ لِلسُّلْطَـــانِ أَلْفَـــاً ... يُــلاَزِمُ فِـــي التَّـــوَجُّـهِ وَالإِيَـــابِ

وقد فُرشت أرض هذه المدرسة بالزلّيج القديم الرَّفيع، بصنعة عجيبة، وأُدير بحيطانها وسواريها حزام يزيد على المتْرين من الزلّيج المذكور، واتَّصل به حزام آخر، قدر أربعة أصابع، دائر بحيطان المدرسة كُلِّها، كُتب عليه نقشاً في الزلِّيج قصيدةٌ دالية، تضمَّنت مدح

31) «الإتحاف الوجيز»، لابن علي الدكالي، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

بانيها السُّلطان أبي الحسن المذكور، والدُّعاء له، وذكر محاسن المدرسة، وجلُّها قد مُحي وأُتْلِفَ، والباقي منها عن يسار الدَّاخل لقبَّة الصَّلاة هذا :

لَقَدْ شَادَ أَرْكَانِي لِفَخْرٍ مُؤَبَّدِ بِعَزْمِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤَيَّدِ
أَبِي حَسَنِ الأَرْضَي المُنِيفِ الَّذِي سَمَا فَأَطَ .... لِظِلٍّ مُمَدَّدِ
.... وَنَيْلِ المُنَى مِنْ كُلِّ سَمْكٍ مُشَيَّدِ
جلِيتُ مِنَ الصُّنَّاعِ إِيوَانَ كِسْرَةٍ عَرُوساً تُبَاهِي فِي حُلَى مُّنَضَّدِ
فَمَا رَوْضَةٌ غَنَّاءُ غِبَّ سَمَائِهَا تَبَسَّمَ فِيهَا بِالنَّدَى زَهْرُهَا النَّدِي
وَلاَ بَهْجَةُ الغُصْنِ القَوِيمِ وَقَدْ حَكَتْ بِتَسْهِيمِهَا الْمُزْدانِ نَظْمَ الزَّبَرْجَدِ
بِأَبْدَعَ مِنِّي فِي انْتِهَائِي وَبَدْأَتِي وَأَعْجَبَ مِنِّي فِي صُدُورِي وَمَوْرِدِ
وَلاَ نَاظِرٌ إِلاَّ وَيُصْبِيهِ مَنْظَرِي وَلاَ شَاهِدٌ إِلاَّ وَيَسْبِيهِ مَشْهَدِي
رُسُومٌ مِنَ الزَّلِّيجِ لَوْ أَنَّ كَاتِباً تَكَلَّفَهَا مَا كَانَ فِيهَا بِمُهْتَدِي
وَيَجْرِي مِنَ الْجِبْسِ الْبَدِيعِ بِزَابِرٍ سُطوراً يَرُوحُ الْحُسْنُ فِيهَا وَيَغْتَدِي
إِذَا مَا رَأَتْهَا الْعَيْنُ هَامَتْ هَوًى بِهَا وَهَانَ عَلَيْهَا كُلُّ سِنٍّ مُنَضَّدِ
تَتِيهُ بِهَا الأَذْهَانُ مِنْ طُولِ عَجْبِهَا فَمِنْ مُتْهِمٍ قَدْ تَيَّمَتْهُ وَمُنْجِدِ
وَتَضْحَى بِهَا الأَبْصَارُ بَيْنَ مُصَوِّبٍ بِمَا رَاقَهُ مِنْهَا وَ بَيْنَ مُصَعِّدِ
تَحَلَّتْ مِنَ النَّقْشِ الْبَدِيعِ بِحِلْيَةٍ يُقَصِّرُ عَنْهَا كُلُّ صَرْحٍ مُمَرَّدِ
وَأَبْدِعَ فِيهَا كُلُّ حُسْنٍ فَأَصْبَحَتْ بِثَوْبَيْنِ تَزْهَى مِن لُجَيْنٍ وَعَسْجَدِ
كَأَنَّ السَّما خَصَّتْ بِهَا مِن نُّجُومِهَا كَوَاكِبَ تَبْدُو فِي مَطَالِعِ أَسْعُدِ
أَوِ الأَرْضُ أَوْلَتْهَا بِإِغْرازِ زَهْرِهَا فَتَاهَتْ وَبَاهَتْ بَيْنَ وَرْدٍ وَ زُمُرُدِ
فَمِنْ أَزْرَقٍ صَافٍ وَأَصْفَرَ فَاقِعٍ وَأَبْيَضَ وَضَّاحٍ وَقَانٍ مُوَرَّدِ
يَمِيناً لَعَمْرِي عِنْدَ رَبِّي مَثُوبَةٌ يَمِينَ امْرِئٍ فِي الصِّدْقِ غَيْرُ مُفَنَّدِ
لَقَدْ كَلَّ فِي أَوْصَافِهَا نُطْقُ شَاعِرٍ فَمَا هِيَ إِلاَّ جَنَّةٌ لَمْ تُخَلَّدِ

ومنها في الدُّعاء للسُّلطان :

وَيُبْقِيهِ غَوْثاً لِلأَنَامِ وَمَلْجَئاً ... يَجُودُ عَلَيْهِمْ بِالنَّوَالِ الْمُجَدَّدِ
فَكَمْ نِعْمَةٍ أَسْدَى وَكَمْ سُؤْدَدٍ بَنَى ... وَمَدْرَسَةٍ أَنْشَا لِتَالٍ وَمَسْجِدِ
عَلَيْهِمْ سَلاَمٌ دَائِمٌ وَتَحِيَّةٌ ... تَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِالنَّعِيمِ الْمُجَدَّدِ

وهذا آخِرُ ما وُجد منها.

وفوق الحزام حزام آخر من الجبس، كُتب عليه قصيدة أخرى بخطّ رائق غليظ قُلع جلُّها، ونصُّ الباقي منها :

لَعَمْرِي لَقَدْ مَارَسْتُ شَتَّى الْمَجَالِسِ ... وَمَازَجْتُ فِي الآفَاقِ جُلَّ الْمَدَارِسِ
وَحُدِّثْتُ عَنْ حِمْصٍ وَبَغْدَادَ وَانْتَهَتْ ... إِلَى مَسْمَعِي أَنْبَاءُ كُلِّ مُمَارِسِ
وَأَنْبَأَنِي الرُّكْبَانُ عَنْ كُلِّ بَلْدَةٍ ... مِنَ الْمَغْرِبِ الأَقْصَى إِلَى أَرْضِ فَارِسِ
فَمَا لاَحَظَتْ عَيْنِي وَلاَ شَقَّ مَسْمَعِي ... كَهَاتِي الَّتِي أَزْرَتْ بِكُلِّ مُنَافِسِ
رَسَاخَةَ تَأْصِيلٍ وَحُسْنَ تَقَاطُعٍ ... وَزَهْوَ رُسُومٍ وَاعْتِدَالَ مَقَايِسِ
وَلِينَ مَوَاطٍ وَاعْتِلاَءَ مَعَارِجٍ ... وَإِشْرَاقَ طِيقَانٍ وَحُسْنَ شَمَامِسِ
كَمَا لَيْسَ فِي الأَمْلاَكِ مِثْلُ إِمَامِنَا ... أَبِي الْحَسَنِ الأَهْدَى الزَّكِيِّ الْمَغَارِسِ
مَتَانَةَ إِيمَانٍ وَطُولَ تَهَجُّدٍ ... وَنُصْرَةَ مَذْعُورٍ وَإِغْنَاءَ بَائِسِ

وقد لَمَّحَ بمضمون هذه القطعة أبو عبد الله بن علي الدكالي في رجزه : «إتحاف أشراف الملاء ببعض أخبار الرباط وسلا»[32] بقوله :

وَلَمْ يَزَلْ بِرَبْعِهَا مَسْطُورَا ... تَقْرَؤُهُ إِذَا تَشَا سُطُورَا
بِقَلَمِ الآثَارِ فِي الْمَدْرَسَةْ ... بِأَحْسَنِ الْخُطُوطِ قَوْلُ نَخْوَةْ
إِنَّ جَمَالَهَا عَجِيبٌ مُبْدِعُ ... لَيْسَ لَهُ شِبْهٌ وَلاَ يُنَوَّعُ
مِنْ مَغْرِبِ الأَقْصَى لأَرْضِ فَارِسِ ... وَحِمْصَ مَعْ بَغْدَادَ فِي الْمَدَارِسِ
رُسُوخُ أَصْلٍ وَاعْتِلاَ مَعَارِجِ ... وَزَهْوُ رَسْمٍ ذِي جَمَالٍ مُبْهِجِ

---

32) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

وفي قناطر الخشب العُليا الملاصقة لأعْلى الحلقة كتابة بحروف كبيرة، اشتملت على التَّعوُّذ والبَسْملة، وعلى أبيات تضمَّنت مدح السلطان، الباقي منها :

أُنْظُرْ إِلَى مَا شَادَهُ تَاجُ الْعُلاَ ... خَيْرُ الْمُلُوكِ وصَفْوَةُ الأَعْيَانِ
الأَعْدَلُ الأَهْدَى أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَى ... حَامِي حِمَى الإِسْلاَمِ فِي الأَزْمَانِ
مَلِكٌ إِذَا اسْتَبَقَ الْمُلُوكَ تَقَدَّمَتْ ... فِي كُلِّ سَابِقَةٍ لَّهُ قَدَمَانِ
فَاللَّهُ يَنْصُرُهُ وَيُبْقِي مُلْكَهُ ... مَا دَارَ فِي مَجْرَاهُمَا الْقَمَرَانِ
وَيَزِيدُهُ فِي الْمُلْكِ بَسْطَةَ فَائِزٍ ... مِنْ رَبِّهِ بِالأَمْنِ وَالإِحْسَانِ

وممَّا كُتب على عمودها:

قِفْ بِي فَدَيْتُكَ وَانْظُرْ هَذِهِ العمدَا ... تَراها أَحْسَنَ مَشْفوعاً وَمُنْفَرِدَا
اضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي سَعْدِ الإِمَامِ وَفِي ... بَقَاءِ دَوْلَتِهِ مَنْصُورَةً أَبَدَا
فَاللَّهُ يُبْقِيهِ وَالأُمُورُ تُنْجِدُهُ ... وَاللَّه يَحْشُرُهُ فِي زُمْرَةِ السُّعَدَا

وكُتب على العمود الثاني عن يمين الدّاخل للقبلة :

بِمُحَمَّدٍ خَيْرِ الأَنَامِ خَتَمْتُهَا ... أَشْعَار خطَّت في مَحَاسِنِ ذَاتِهَا
فَتَلألأَتْ نوراً بِمَدْحِ الْهَاشِمِي ... حَتَّى أَضَاءَ الصَّحْنُ مِنْ عَرَصَاتِهَا
وَزَفَفْتُهَا لِلنَّاظِرِينَ سَوافِراً ... فَتَزَيَّنَتْ مِنِّي رُسُومُ صِفَاتِهَا

وكُتِب على العمود المقابل للخصَّة الرُّخامية أمام الدّاخل من الباب :

تَأَمَّلْ حُسْنَ شَكْلِي وَارْتِفَاعِي ... وَلاَ دُونِي لِرَامِقِ ابْتِدَاعِ
بِسَعْدِ سُعُودِ مَوْلاَنَا دَعَانِي ... إِلَى الْقُرَانِ مِنْهُ خَيْرُ دَاعِ

وبدائرة سقف قُبَّة الصَّلاة كُتِبَ قوله تعالى :

﴿يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾.

وبالجدار المقابل للمحراب فوق قوس المدخل كُتِبَ :

﴿الله ربّكم الذي خلق السّموات والأرض في ستَّة أيّام، ثم استوى على العرش﴾.

وعن يمين المحراب كُتب بالحروف الكوفية البيضاء :

﴿و لو لم تمسسه نار، نُورٌ على نور، يهدي الله لنوره من يشاء﴾.

وكُتب بداخل المحراب بالحروف الكوفية أيضا :

أعوذ بالله من الشَّيطان الَّرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليم

أقبل على صلاتك ولا تكن من الغافلين.

وبالوجهة المقابلة للمحراب قُرْب مدخل القبَّة كُتب : ﴿وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكَّلت وهو ربُّ العرش العظيم﴾.

وتحت البهْو الأيمن داخل القبَّة كُتب : ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾.

وتحت هذه الآية : ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

وبالبهْو الأيسر داخل القبَّة كُتب : ﴿فالله خير حفظا، وهو أرحم الرّاحمين﴾، ﴿ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم﴾، ولا غالب إلا الله، ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾.

وبكلِّ بهْو أيضا كُتب : الملك لله الواحد القهّار، والعزّ لِلَّه الملك الغفّار، زدنا من فضلك المتوالي.

وكان الفراغ من بنائها، كما في رخامتها، في تاسع عشر جمادى الثانية عام اثنين وأربعين وسبعمائة (19 جمادى الثانية 742/فاتح دجنبر سنة 1341).

ولمَّا تمَّ بناؤها، وكَمُلت زخرفتها، وقَّف عليها - رحمه الله - أوقافا عديدة مغلَّة يُصرف ريعها فيما تصلح به، وفي أجور الطَّلبة والأئمَّة والمؤذِّنين والقَوَمَة والبوّابين والنظّار والشُّهود والخدم وغيرهم ممَّا تدعو الحاجة إليه، ورصَّع أسماءها بالنَّقش والأصباغ على رخامة عظيمة نُصبت بالحائط الجوْفي منها محافظة عليها أن تتغيَّر أو تتبدَّل، ونصُّ ما هو مكتوب فيها :

أحباس المدرسة المرينية بسلا

بسم الله الرحمان الرحيم وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلّم.

هذا ما حبّسه على مدرسة سلا المحروسة، مولانا الإمام الأعظم، العالم العابد، أمير المسلمين، المجاهد في سبيل ربِّ العالمين، أبو الحسن، بن مولانا الإمام الأعظم العابد، أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سعيد، قدّس الله روحه، بن مولانا الإمام الأعظم العابد الخاشع، أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، أطلع الله سعودهم، ونصر أعلامهم وجنودهم، وخلّد مُلكهم، وجعل البسيطة ملِكهم.

حبّس - أيده الله - على المدرسة المذكورة، ما يقع ذكره، وياتي تفسيره :

فمن ذلك بداخل سلا المحروسة :

ثلاثة فنادق وربع الفندق، وذلك :

فندق السبِطْريين، وفندق باب العاص، وفندق المصدع، وربع فندق ابن أحمد.

وطرازان، وهما : طراز القصْرى ؛ وطراز الحاج يعقوب. وخربة دارٍ بإزاء فندق السبِطريين؛

وثمانية وعشرون حانوتاً ونصف الحانوت، منها : عشرة بسوق السبِطْريين، ومنها أربعة بالرّحْبة، وسائرها بالسّوق الكبير، ومخزن للملح..

ومن ذلك بخارج سلا :

المقْصر، والملاّحتان : القديمة والصُّغرى، وثلث ملاّحة الشريف، وثلث ملاّحة الخيّاط، وثلث ملاّحة التِّيالين، وبحيرة الفرنج، وأربعة فدادين بولجة بني معدان، ومَرْبعة بأسمير.

ومن ذلك بداخل رباط الفتح :

إثنا عشر حانوتا، وفندق، وخزنة للملح.

ومن ذلك بخارج رباط الفتح وبولْجة النّاظور :

فدّانان، وأربع روَاتع.

كلّ ما فُسّر حَبَّسه مولانا الإمام الأعظم، أبو الحسن، بن الأئمة الراشدين المهتدين على مدرسته المباركة، التي أقامها بسلا لقراءة العلم، نفعه الله بقصده الصّالح، حُبُساً تاما مؤبّداً لا يغير عن حاله، ولا يُعدل به عن سبيله، حتّى يرثه الله تعالى قائماً على أصوله، محفوظا بشروطه، وَارِث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

وقُيِّد هذا بأمر مولانا الإمام الأعظم، أبي الحسن المذكور، قاصداً بذلك تخليد هذه الأوقاف وضبطها، وملتمساً به تخليد الذّكر وتحصيل جزيل الأجْر.

وبتاريخ يوم الجمعة التاسع عشر لجمدى الثانية، عام اثنين وأربعين وسبعمائة (19 جمادى الثانية 742/فاتح دجنبر سنة 1341).

وقد كانت الأمور جارية بهذه المدرسة في أول عهدها طبق ما أراده منها مؤسِّسها والمُحبِّس عليها السُلطان أبو الحسن المذكور، مدَّة دولته، ومدَّة دولة ولده وخلفه من بعده السلطان أبي عنان.

وبعد وفاة أبي عنان، سنة تسع وخمسين وسبعمائة (1358/759) حصل إهْمال في تسيير شؤونها، وتلاعبت الأيدي بأحباسها، فضاعت واختفت، ولم يبق إلاَّ أسماؤها في الرخامة المسجَّلة فيها.

وقد أخبرني نُظَّار سلا أنَّه لم يبق لها ذكر عندهم، ولعلَّها اندمجت في الأحباس الكبرى، ومنها كان يُنْفَقُ عليها.

ومع طول الزَّمن أسرع إليها الخراب، وبقيت مهملة إلى زمن السُلطان المولى سليمان، رحمه الله، فخاطبه في شأنها قاضي سلا في ذلك العهد العلاّمة، أبو عبد الله، محمد بن الحاج زنيبر، فأمر- رحمه الله - بإصلاح ما يتعيَّن إصلاحه فيها، وعيَّن إعانة من الأحباس للطَّلبة المنقطعين بها.

ثم أعيد إصلاحها مرَّة أخرى في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان رحمه الله، على يد ناظر سلا وعاملها في ذلك العهد، أبي عبد الله، محمد بن عبد الهادي زنيبر، سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف (1281/1864).

وكان الباعث على هذا الإصلاح والسّاعي فيه، الشيخ العلاَّمة، مؤرخ المغرب، أبو العباس، أحمد بن خالد النّاصري رحمه الله، لمَّا كان قائمًا بخطة العدالة وإحصاء دخل وخرج نظارة الأحباس السَّلاوية، فأنقذها - رحمه الله - من التَّحطيم والتَّهديم، ولولاه لكانت دخلت في خبر كان، وأصبحت أثراً بعد عين.

وقد اهتمّت بها في العهد اليوسفي إدارة المحافظة على الآثار القديمة والفنون الجميلة بالمغرب، فأصدرت قراراً وزيريا بإجراء بحث في شأن تقْييدها في جملة الأبنية التّاريخية، نُشر بالجريدة الرّسمية في عددها 468 الصّادر في عشري شعبان عام أربعين وثلاثمائة وألف الموافق لثامن عشر أبريل سنة إثنتين وعشرين و تسعمائة وألف (20 شعبان 1340/18 أبريل 1922)، جاء فيه :

نصّ الظهير اليوسفي الشريف

الحمد لله وحده :

بمقتضى الظّهير الشّريف المؤرّخ بسابع عشر ربيع الاول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف الموافق لثالث عشر ابراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (17 ربيع الأول 1332/13 أبريل 1914) في المحافظة على الأبنية التاريخية.

ونظراً لاقتراح المدير العامّ لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة والآثار القديمة قرّرنا ما ياتي :

الفصل الاول

يُؤذن بإجراء بحث في شأن تقييد المدرسة المرينية التي هي من أحباس سلا، والرّاجع أمر تدبيرها إلى نظر الأحباس الكبرى، في عدد الأبنية التاريخية.

وتحد المدرسة المذكورة طبقا للخريطة الملحقة بهذا القرار.

وإنْ أقرّ على التّقييد المذكور، فيجري العمل عندئذ بالمقتضيات المنصوص عليها في الباب الثاني من الظهير الشريف المشار إليه، المؤرّخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر ابراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (17 ربيع الأول 1332/13 أبريل 1914).

الفصل الثاني

إنّه عملاً بمقتضيات الفصل الرّابع والخامس من الظّهير الشّريف المُشار إليه، يقع تبليغ هذا القرار بالطّريقة الإدارية، حالَما يُنشر بالجريدة الرّسمية للدّولة الحامية، ونشره

وتعليقه حسب الشُّروط المنصوص عليها بالفصلين المُشار إليهما، وذلك بواسطة رئيس الإدارة البلدية بسلا، الذي يُعلمه بالأمر المدير العامّ لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة، والآثار القديمة.

أمّا مسألة التّقييد المشار إليه بهذا القرار، فيُضَمَّنُ حالاً في قائمة أبحاث اللّجنة البلدية بسلا لتتفاوض بشأنه.

ويُوجِّه عاجلاً رئيس الإدارة البلدية بسلا للمدير العامّ لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة، والآثار القديمة، الأوراق المثبتة لإنجاز الموجبات المشار إليها، وكذلك نسخة مطابقة للأصل من المفاوضة التي تكون قد جرت في الأمر.

و السلام.

وحُرِّر برباط الفتح في تاسع وعشري رجب عام أربعين وثلاثمائة وألف الموافق لتاسع وعشري مارس سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف (29 رجب 29/1340 مارس 1922)

محمد المقرى.

وبعد إجراء هذا البحث، صدر بالجريدة المذكورة عدد 490 المؤرّخة في سادس وعشري محرم عام واحد وأربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لتاسع عشر شتنبر من السنة المذكورة ظهيرٍ يوسفي شريف بتقْييدها في جملة الأبنية التّاريخية الأثرية التي تجب المحافظة عليها، ونصّه :

نص الظهير الثاني

الحمد لله وحده :

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعزّ أمره،

أنّه بمقتضى ظهيرنا الشّريف المؤرّخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف الموافق لثالث عشر إبراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (17 ربيع الأول 13/1332 فبراير 1914) في المحافظة على الأبنية التّاريخية.

وبناءً على القرار الوزيري المؤرخ بتاسع وعشري رجب عام أربعين وثلاثمائة وألف الموافق لتاسع وعشري مارس سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف (29 رجب 29/1340 مارس 1922)، الصادر في الإذن بإجراء بحث في تقييد المدرسة المرينية الكائنة بسلا في عدد الأبنية التّاريخية، ونظراً لنتائج البحث الذي أُجري بناءً على القرار المذكور،

ونظراً إلى الرأي الذي أبداه المدير العامّ لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة والآثار التاريخية.

ونظراً لاقتراح وزيرنا الصّدر الأعظم، أصدرنا أمرنا الشريف بما ياتي :

فصل فريد

تُقيَّد في الأبنية التّاريخية، المدرسة المرينية لأبي الحسن، الكائنة بسلا، والمحدودة طبقا للخريطة الملحقة بالقرار الوزيري المُشار إليه، المؤرَّخ بتاسع و عشري رجب عام أربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لتاسع وعشري مارس سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف (19 رجب 09/1340 شتنبر 1922)، والسلام.

وحُرِّر برباط الفتح في سادس عشر محرم عام واحد وأربعين وثلاثمائة وألف الموافق لتاسع شتنبر سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف (16 محرم 19/1341 شتنبر 1922).

قد سُجِّل هذا الظهير الشريف بوزارة الأملاك المخزنية، في تاسع عشر محرَّم عامه، الموافق لثاني عشر شتنبر سنته.

نائب الصّدر : أبو شعيب الدكّالي.

ثم أجْرت فيها الإدارة المذكورة إصلاحات مهمّة، دام العمل جارياً فيها عدّة سنوات، وأنقذت سقوفها من السُّقوط، وجدرانها من الخراب الذي كان شنَّ عليها إغارته فأقوت منذ سنين عديدة ودهر طويل، وأعادت ما أمكنت إعادته ممَّا تناثر من زليجها، وبعض نقوشها وأصباغها، مع المحافظة التامّة على هيأتها القديمة، وشكلها الأثري.

وفي عهدنا هذا، خرجت هذه المدرسة الأثرية من يد الأحباس، كغيرها من الآثار والمدارس التاريخية بالأمصار المغربية، وتولّى أمرها والنّظر فيها، وزارة الفنون الجميلة، والصّناعة التقليدية المغربية، فأوصدت أبوابها، وصارت لا تُفتح إلاّ للسّواحين والمتجوّلين

من الأجانب، وخصوصاً في الأوقات والمناسبات الخاصّة التي تكثر فيها السِّياحة بالمغرب، وجعلت لها قَيِّمًا أو حارساً خاصّاً بها كمحافظ عليها.

وهي الآن شاهد عيان، يمثل الحضارة المغربية، وما بلغه الفن والزخرفة في عهد بني مرين، وخصوصاً بالمعاهد الدّينية والعلمية، منذ نحو ستمائة وخمسين سنة مضت، وفي ذلك عبرة وذكرى.

* زاوية النُّسَّاك

كانت تُعرف في القديم بالمسجد العناني، وبجامع سيدي أبي العباس، كما يؤخذ من أخبارها الآتية ومن منطوق بعض الصُّكوك الرّسمية.

مشهد عظيم، وأثر فخيم، خارج باب فاس، المعروف اليوم بباب الخميس، على نحو ستمائة متر شمال شرق المدينة. أسّسها السُّلطان أبو عنان بن السُّلطان أبي الحسن المريني سنة سبع وخمسين وسبعمائة (757/1356) وهي السَّنة التي رحل فيها إلى سلا متطارحاً على وليّها الأكبر أبي العباس أحمد بن عاشر[33] في المحل الذي كانت به قرية صيبارة، قبالة ضريح الشيخ أبي العباس رحمه الله.

وكانت كغيرها من الزّوايا التي أسّسها أبو عنان بالمغرب منزلاً ينزل به الغُرباء والمسافرون وأبناء السَّبيل، ويأوي إليها النُّسَّاك من أهل الخير والصَّلاح ، والفقراء والمنقطعون، كما يوخذ ذلك من اسمها "زاوية النُّسَّاك"؛ وفي بعض الأحيان كِبَارُ الموظفين ورجال الدولة والأعيان من الآفاق عند مرورهم بمدينة سلا، فيجدون فيها أنواع القِرى والضِّيافات والبرّ والإكرام يومياً ممَّا كان مخصَّصاً لها من الجرايات والمِنَحِ السلطانية، المتوالية الكافية، للقيام بهذا الشأن، كما أشار لذلك ابن جُزَي في «تهذيبه» وابن مرزوق في «مسنده».

وقد كان لهذه الزَّاوية بَابَان، وساحة مفروشة بالزّليج ومِضَئَة للوضوء من ناحية القبلة، وصهريج ياتيه الماء بواسطة قنوات خاصّة به من سور الأقواس المحمول عليه الماء المجلوب إلى المدينة، وقبَّة فسيحة للصَّلاة، بوسطها محراب مُثَمَّن الزوايا، وعليه قُبَّة، وبساحتها أروقة فيها عدة سواري مفردة أو مزدوجة، كان السَّقف محمولاً عليها.

---

33) «الاستقصا»، ص 99 من ج 2، طبع القاهرة. وص 189 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وقد كانت هذه الزّاوية أو الملجأ الخيْري، على طبقتين سفلى وعليا، فيهما معاً بيوت متعدّدة لإيواء النُسّاك والملازمين لها، ولمن ينزل بها من المسافرين وعابري السّبيل.

أمّا البابان فأحدهما كان مفتوحا في مواجهة شالّة، قبالة ضريح الشيخ أبي العباس أحمد بن يوسف، والآخر، وهو الموجود اليوم، مفتوح في مواجهة المدينة السّلاوية.

وقد كان مكتوباً بالخطّ المغربي على الباب المقابل لضريح الشيخ أبي العباس في لوحٍ من حجر مُركّب في تاجه :

الحمد لله :

أمر ببناء هذه الزّاوية المباركة، أمير المومنين، المتوكّل على ربّ العالمين، أبو عنان بن موالينا الخلفاء الراشدين، الملوك الطّاهرين، بني عبد الحق أعلا اللّه آثارهم وشيّد مآثرهم.

فُرغ من بنائها في سابع وعشري شعبان عام سبع وخمسين وسبعمائة (27 شعبان 757/ 27 غشت 1356).

ثم بالخطّ الكوفي :

أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم، بسم الله الرّحمان الرّحيم. وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد وآله وسلّم تسليما...

﴿وما توفيقي إلاّ باللّه، عليه توكّلت، وإليه أُنيب﴾.

ثم :

أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليما

﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتّقين الذين ينفقون في السّرّاء والضّرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾(34).

وكان مكتوباً على العصابات الثّلاث المحيطة بالباب المقابل لمدينة سلا :

---

34) Villes et Tribus du Maroc-Rabat et sa région, T.I. Pages 211 et suivantes.

أعوذ بِاللّه من الشّيطان الرّجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

صلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

﴿فاللّه خير حفظا وهو أرحم الرّاحمين﴾... فمن الله...

وعيّن لمشيختها، الشّيخ الفقيه، الخطيب الصّالح الصّوفي، الحاج أبا إسحاق، إبراهيم ابن أحمد بن إبراهيم الأموي الرُّنْدي، المعروف بأبي حاجة.

وبمجرّد وصوله لسلا للقيام بهذه المُهمّة، بهذه الزاوية، أدركته منيته بها، وسياتي التّعريف به آخرَ هذه التّرجمة.

و قد ذكر زاوية النُّسّاك الشيخ أبو العباس، أحمد بن الخطيب القسمطيني المعروف بابن قنفذ، المتوفى سنة عشر وثمانمائة (810 / 1407) في كتابه المسمى : « أُنس الفقير وعِزّ الحقير»، وأخبر أنّه اجتمع فيها بجماعة من أهل الخير والصّلاح والفضل، وسمّاها المسجد العناني.

ولا باس بنقل ما ذكره، لمَا فيه من الفائدة الدّالة على أنّ مدينة سلا عموما، وهذه الزّاوية خصوصا، كانت مجتمعَ العُبّاد والزُّهّاد، ومقصد الصّالحين وأهل الفضل، من البلاد.

قال رحمه الله :[35]

"ورأيت منهم (يعني من الصّالحين) شيخاً خارج مدينة سلا، في مسجد منقطع بموضع يقال له المسجد العناني، لا أذكر الآن اسمه، ويغلب على ظنّي أنّه من بلاد حاحة، وكنت أسمع عنه أنّه يتحدّث بما سيحدث من أحوال الدُّنيا.

والسّبب في لقائه، أنّي قدمت إلى مدينة سلا في هذا اليوم ولي معرفة بواليها، فقلت لمن معي : إنْ أردتم الاِتّساع فنزولنا يكون بدار الوالي أوْلى، لكنّه عَسُرَ عَلَيّ أنْ أقصده، وتداولنا في هذا.

35) «أنس الفقير وعز الحقير»، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

ثم رأينا فُرسانا أقبلت متوجِّهة إلى طريقنا، فلمَّا وصلوا إلينا إذا به مَنْ تَكَلَّمْنا عليه، فسلَّم علينا فشكرت الله تعالى، فقال لي : خرجت برَسْم صرف كتاب إلى السُّلطان، فإنْ شئْت أن تصحبني حتَّى أفرغ من هذا الكتاب، فرجعتُ معه فقال لي : إنزلْ أنت في ذلك المسجد، فوجدت فيه هذا الشيخ، وهو يقيس الظِّلَّ لوقت الصّلاة، فصلَّى بي الظهر، ولمَّا فرغ من صلاته سألته عن اسمه ومن هو، فأعلمني به، فوجدته الرجل الذي كنت أسْمَعُ عنه، فسُرِرْت بذلك، وجدَّدت عليه السَّلام، وتَمَتَّعْتُ بالحديث معه، وبالتَّبرُّك به إلى آذان العصر، وكان ممَّا قال لي : خرجت من سلا فِرَاراً من صاحبها، لأنَّه طلب لقائي فامتنعتُ من ذلك. ثمَّ قام فأذَّنَ العَصْر، ودخل صاحب سلا ومن معه برسم الصَّلاة، فصلَّيت بالجميع، لأنَّ الشيخ المبارك طلبني بذلك، وصلَّى الوالي لجنبه، وانْفَصل النَّاس بعد الصلاة، وجلست معه ساعة".

ثُمَّ قال :

"وسألته عمّا يحدث، وعرضت له غرضي في سماع شيء من هذا، فسمعت منه أموراً وقعت عليها، وقلت له : بفَضْلك، بأي الوجوه تَطَّلع على مثل هذا، فتبسَّم وقال لي : يا أخي، من أصحابنا من يراه مكتوبا في الهواء... ثم قال : وسُررت بلقائه، وسِرْنا إلى البلد، وبعد مسافة وقع منّي حديث في بعض ما سمعت منه مع والي سلا، فقال لي : من أيْنَ لَكَ هذا. فقلت له : من فلان فقال لي : وأين رأيته، فقلت له: هو الذي صلّى العصر بجنبك، فتأسَّف وقال : حجبني الله عنه، كلُّ ما ذكر لك فإنه يقع، لأنَّه من المشهورين في طريقته، نفع الله تعالى به...

وممَّن آوى إلى هذه الزّاوية وثوى بها، الوزير لسَان الدِّين ابن الخطيب السَّلماني - رحمه الله - أيام نكبته واستقراره بسلا، فكان يتردَّد بينها وبين شالَّة، مستجيرا بقبور بني مرين، متطارحاً على أجداثهم، متقرِّباً إلى الملوك من أبنائهم بالدُّعاء لهم، والترحُّم عليهم، وقراءة القرآن وإهداء ثوابه إلى أرواحهم، يندب بذلك حظه، ويرجو إقبال سعده، واسترجاع ما ضاع من نعمته، وما فقده من رئاسته، وقد أشار إليها في «مقامات البلدان» بقوله :

"والزَّاوية كأنها البستان" وهي زاوية النُّسَّاك.

وقد بسطنا أخبار ابن الخطيب بسلا أثناء التجائه إليها، ببيان وتفصيل في مؤلَّف خاصٍ سمَّيْناه : «ابن الخطيب بسلا»، واستوفينا فيه الكلام على هجرته إليها، واتِّصاله بأهلها، وما أنتجه من المؤلفات القَيِّمة فيها، وحنينه بعد ذلك إليها.

وفي إحدى الزّوايا التي أسَّسها أبو عنان بالمغرب كزاوية النسَّاك هذه، يقول الشيخ أبو عبد الله ابن جُزَي[36]

هَذَا مَحَلُّ الفَضْلِ وَالإيثَارِ — وَالرِّفْقِ بِالسُّكَّانِ وَ الزُّوَّارِ
دَارٌ عَلَى الإحْسَانِ شِيدَتْ وَالتُّقَى — فَجَزَاؤُهَا الْحُسْنَى وَعُقْبَى الدَّارِ
هِيَ مَلْجَأٌ لِلْوَارِدِينَ وَمَوْرِدٌ — لابْنِ السَّبِيلِ وَكُلِّ رَكْبٍ سَارِي
آثَارُ مَوْلاَنَا الخَلِيفَةِ فَارِسٍ — أَكْرِمْ بِهَا فِي المَجْدِ مِنْ آثَارِ
لاَ زَالَ مَنْصُورَ اللِّوَاءِ مُظَفَّراً — مَاضِي العَزَائِمِ سَامِيَ المِقْدَارِ
بُنِيَتْ عَلَى يَدِ عَبْدِهِمْ وَخَدِيمِ بَا — بِهِمُ العَلِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ حِدَارِ
فِي عَامِ أَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ انْقَضَتْ — مِنْ بَعْدِ سَبْعِ مِئِينَ فِي الأَعْصَارِ

وقد تضمّنت هذه القطعة المقصود من تشييد هذه الزّوايا المرينية العنانية في الأمصار المغربية، وما كانت تقوم به من الخدمة للإنسانية، وتوفير الرَّاحة للسكان والزوار، والوافدين والواردين، وأبناء السَّبيل وقوافل المسافرين، فيجدون بها الرَّاحة الكاملة، والإعانة على الدّين، والانقطاع للعبادة لمَنْ أراد ذلك. ولعلَّها كانت في ذلك العصر، شبيهة بما تُشيده الدول المعاصرة الآن من المنازل والخانات والفنادق عند انتهاء المراحل، وتُسَمَّى مأوى المرْحلة "Gîte d'étape".

ويقال إنَّهُ لمَّا كانت زاوية النسَّاك بسلا في منتهى عمرانها، وقيامها بواجبها، في عهد مؤسسها وبعده، كان أهل سلا يتفرقون من صلاة العشاء بها، ومعهم مئات المشاعل يستضيؤون بها في الطَّريق.

ونُقِلَ أيْضاً أنه كان من عادة ملوك بني مرين، أنهم إذا أبردوا بريدا أو أرسلوا رسولا يَحْمِلُ رسالة أو أمراً سلطانياً لوالي سلا، إذا وَصَلَ البريد أو الرَّسول إلى زاوية النسَّاك، خارج المدينة نزل بها، وأعلم الوالي بوصوله، فيركب في حَشَمه وأتباعه، ويأتي إليه يستقبله بالزاوية، ثُمَّ يرافقه في الدخول إلى المدينة في هيأته الخاصّة الرَّسْمية، ويخترق أسواقها ليعلم النَّاس أنَّ بريد السلطان أو رسولَه جاء لتنفيذ أمرٍ أو القيام بمُهِمَّة. وإذا أتَمَّ مهمته، ونفَّذ أوامرَ السُّلطان وأراد الرجوع إليه بالجواب، ركب الوالي في خدمه وحشمه وهَيْأته الرسمية مرة أخرى، وشقَّ المدينة مصاحبا له إلى زاوية النسَّاك، فيودِّعه بها ويرجع.

36) «نفح الطيب»، ص 282 من المجلد الثالث، طبع بولاق.

ويؤخذ هذا صراحة ممّا تقدّم في النص الذي نقلناه عن "أنْسِ الفقير" لأبي العباس، أحمد بن الخطيب القسمطيني، لمّا خرج الوالي بقصد إصدار كتاب للسلطان والتقى به بزاوية النسّاك...

وقد استمرت زاوية النسّاك عامرة زاهرة قائمة بواجبها زمنا طويلا، إلى أن ضعفت الدولة المرينية، واضطربت الأحوال بالمغرب، وانقطع عنها المدد الذي كان مخصصا لها، فَنُسِيَتْ أَوْ تُنُوسِيَ أمرها، لاشتغال الناس بما هو أهم من الحوادث العظام النَّاسخة للدُّول، والمُغَيِّرَةِ مجرى العوائد والأخلاق، فأُهْمِلت شيئا فشيئا، فانقطع زوارها، وهجرها سكّانها، وغابت في ظلام النسيان أقمارها، واستمرت كذلك مُعَرَّضة لحوادث الدهر، إلى أن أصابها في يوم من الأيام حريق هائل، فأكلت النّار سقوفها، وبقيت جدرانها مائلة.

وفي الخامس عشر من صفر عام ثلاثين وثلاثمائة وألف (15 صفر 04/1330 فبراير 1912) هبَّتْ على العدوتين وناحيتهما، رياح وزوابع عاصفة، فقوَّضَت الباب المواجه لضريح الشيخ أبي العبَّاس منها، وسقطت الأحجار المنحوتة التي كانت الكتابة المغربية والكوفية منقوشة عليها، فأخذها من لا يعرف قيمتها، وبنى بها في محل آخر، فذهبت فائدتها التاريخية.

وهكذا لَمْ يبق من هذا الأثر الفخيم، والمشهد العظيم، إلاّ باب واحد، وهو المواجه للمدينة، ورسوم وأطْلال بُيُوت وحُجَر، لَوْ نَطَقَتْ لحدَّثتنا بما سلف لَهَا من عِزٍ وشَان، في سالف الأزمان، ولأخبرتنا عمَّنْ نَزل بها، أو آوى إليها من الأعْلام والأعْيان.

وفي السّنين الأولى من عهد الاحتلال، تنبَّهت لها إدارة الآثار القديمة والفنون الجميلة بالمغرب، فأصدرت ظهيراً شريفاً يوسفيا بالجريدة الرسمية عدد : 94 . 95 المؤرخة بسابع ربيع الأول عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثاني وعشري أبريل سنة خمس عشرة وتسعمائة وألف (07 ربيع الأول 22/1333 أبريل 1915)، تَضمَّنَ تقييد الباب الباقي المواجه للمدينة وكان يُعْرَفُ بباب جامع سيدي أبي العباس في عدد الأبْنية التاريخية جاء فيه :

نص الظهير اليوسفي الشريف :

الحمد لله وحده.

يُعْلَمُ من كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، أنَّه بمقتضى ما يظهر من المنفعة الفنية والتاريخية عن صيانة الباب المعروف بباب جامع سيدي أبي العباس بمدينة سلا.

وبمقتضى ظهيرنا الشريف المؤرخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر فبراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (17 ربيع الأول 1332/13 فبراير 1914).

وبناء على استشارة مدير إدارة الآثار القديمة، والفنون الجميلة والأبْنِيَةِ التاريخية.

وبناء على طلب وزيرنا الصَّدر الأعظم، أصدرنا أمرنا الشريف بما ياتي :

فصل فريد

يقيد الباب المعروف بباب جامع سيدي أبي العباس بسلا في عدد الأبنية التاريخية، والسلام.

وحرر برباط الفتح في ثامن وعشري ربيع الأول عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر يناير سنة خمس عشرة وتسعمائة وألف (28 ربيع الأول 1333/13 يناير 1915).

قد سجل هذا الظهير الشريف بالوزارة الكبرى بتاريخ 29 ربيع الأول، صح به.

مَحمد بن مُحمد الجبَّاص.

ثم أصدرت بعد ذلك قراراً وزيرياً في الجريدة الرسمية أيضاً عدد 625 المؤرخة بسابع وعشري رمضان عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لحادي وعشري أبريل سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف (27 رمضان 1343/21 أبريل 1925)، بإجراء بحث لإدخال قطعة أرض مجاورة لخرائب هذه الزاوية في مصاف هذه الخرائب من حيث تقييدها في عدد الأبنية التاريخية جاء فيه :

نص القرار الوزيري

الحمد لله وحده.

بمقتضى الظهير الشريف المؤرخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر أبريل سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (17 ربيع الأول 1332/13 أبريل

1914)، الصادر في المحافظة على الأبنية التاريخية، المتمم بالظهير الشريف المؤرخ بسادس قعدة عام أربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لرابع يوليوز سنة اثنين وعشرين وتسعمائة وألف (06 قعدة 04/1340 يوليوز 1922).

وبناءً على اقتراح المدير العام لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة والآثار، القديمة، قررنا ما ياتي:

الفصل الأول

يؤذن بإجراء بحث لأجل إدخال قطعة أرض مجاورة لخرائب باب زاوية سيدي أبي العباس بسلا في مصاف هذه الخرائب من حيث تقييدها في عدد الأبنية التاريخية بالظهير الشريف المؤرخ بثامن وعشري ربيع الأول عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر فبراير سنة خمس عشرة وتسعمائة وألف (28 ربيع الأول 13/1333 فبراير 1915)، وقطعة الأرض المذكورة المستقيمة الزوايا والأضلاع، والبالغة مساحتها ثلاثين مترا وثمانين سانتيمترا في سبعة عشر مترا، وسبعين سانتيمترا، هي محددة بالخريطة الملحقة بهذا القرار.

وتستودع نسخة من الخريطة المذكورة بمكتب الإدارة البلدية بسلا.

الفصل الثاني

إنه عملا بمقتضيات الفصلين : الرابع والخامس من الظهير الشريف المؤرخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر فبراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (17 ربيع الأول 13/1332 فبراير 1914)، يكلف رئيس الإدارة البلدية بسلا حالما ينشر هذا القرار بالجريدة الرسمية، بتبليغه على الطريقة الإدارية، وإعلانه وتعليقه طبق الشروط المنصوص عليها في الفصلين المشار إليهما، بعد أن يصدر له الإعلام في ذلك من طرف المدير العام لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة، والآثار القديمة.

أمّا مسألة التقييد المنوي إجراؤه، فتُدوَّن حالا في قائمة أبحاث اللجنة البلدية بسلا، لتتفاوض بشأنه، كما يُوجه عاجلا رئيس الإدارة البلدية بسلا، إلى المدير العام لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة، المتعلقة بإنجاز الموجبات المذكورة بشرط أن يكون قد توصّل بالتبليغ المشار إليه جميع من لهم مصلحة في الأمر. والسلام.

وحرر بالرباط في خامس رمضان عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لثلاثين مارس سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف (05 رمضان 30/1343 مارس 1925).

محمد المقرى

ثم صدر بالجريدة الرسمية عدد 673 المؤرخة بسادس وعشري صفر عام أربعة وأربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لخامس عشر شتنبر سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف (26 صفر 15/1344 شتنبر 1925) ظهير يوسفي شريف بتقييدْ هذه القطعة الأرضية في عدد الأبنية التاريخية المضافة لهذه الزاوية، ونصه :

نص الظهير اليوسفي الشريف :

الحمد لله وحده :

يُعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعزَّ أمره، أنه بمقتضى ظهيرنا الشريف المؤرخ بسابع عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر فبراير سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (17 ربيع الأول 13/1332 فبراير 1914)، الصادر في المحافظة على الأبنية التاريخية والمواقع المبهجة، المتمم بظهيرنا الشريف المؤرخ بثامن قعدة عام أربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لرابع يوليوز سنة اثنين وعشرين وتسعمائة وألف (08 قعدة 1340/ 04 يوليوز 1922).

وبناء على القرار الوزيري المؤرخ بخامس رمضان عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف الموافق لثلاثين مارس سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف (05 رمضان 30/1343 مارس 1925)، الصادر في الإذن بإجراء بحث لإدخال قطعة أرض مجاورة بخرائب زاوية سيدي أبي العبَّاس بسلا، في مصاف هذه الخرائب، من حيث تقييدها في عدد الأبنية التاريخية.

ونظرا إلى نتائج البحث المذكور، وبعد موافقة المدير العام لإدارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة، والآثار القديمة.

ونظرا إلى اقتراح وزيرنا الصدر الأعظم، أصدرنا أمرنا الشريف بما ياتي :

فصل فريد

يأذن جنابنا الشريف بإدخال قطعة الأرض المجاورة لخرائب زاوية سيدي أبي العباس بسلا، في مصاف هذه الخرائب من حيث تقييدها في عدد الأبنية التاريخية، عملا بظهيرنا

الشريف المؤرخ بثامن وعشري ربيع الأول عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثالث عشر فبراير سنة خمس وعشرة وتسعمائة وألف (28 ربيع الأول 13/1333 فبراير 1915). كما هو معلّم على قطعة الأرض المذكورة بالخريطة الملحقة بالقرار الوزيري المشار إليه المؤرخ بخامس رمضان عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لثلاثين مارس سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف (05 رمضان 30/1343 مارس 1925).

وقد أودعت نسخة من الخريطة المذكورة بمكتب الإدارة البلدية بسلا.

والســـــــلام.

وحرر برباط الفتح في تاسع صفر عام أربعة وأربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لتاسع وعشري غشت سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف (09 صفر 29/1344 غشت 1925).

قد سجل هذا الظهير الشريف في الوزارة الكبرى بتاريخ خامس عشر صفر عامه، الموافق لرابع شتنبر سنته.

نائب الصدر الأعظم :

عبد الرحمان بن القرشي

وبعد صدور هذه الظهائر الشريفة، والقرارات الوزيرية، تناولت يد إدارة الفنون الجميلة والآثار القديمة زاوية النساك السلاوية بالبحث والتنقيب عن دِمَنِهَا، وجمع وتنسيق ما أمكن جمعه من شظايا أحجارها، وبعث ما بقي من آثارها، وخصّصت لها وقتاً ومالاً وفنيين يشتغلون بذلك، فعثر تحت الردم وركام الأحجار على حوض أو صهريج الوضوء، وزليج الصحن، وقواعد المحراب، فأصلح ذلك ورُمم على حسب هيأته القديمة وهندامه التاريخي، وجُعل للباب دفف جيدة، منعت الدخول إليها إلاّ بإذن خاص.

وبعبارة جامعة فهي اليوم أطلال بالية ورسوم عافية، وجُدرٌ واهية وحُجُرات خالية، لا تسمع فيها لاغية، وقنوات خاوية، ليست فيها عين جارية، شاهدة بما كان فيها من الزّخرفة والفن البديع، والنقش الرفيع، والزليج المحكم التلوين والترصيع، والترصيف والتنسيق والتصنيع.

ورحم الله أبا عبد الله بن علي الدكالي إذ يقول في «إتحاف أشراف الملا»[37].

37) «الاتحاف الوجيز» لابن علي الدكالي، ص 42، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

واقْـــصِــــدْ إلى زاويـةِ النُّسَّـــاك فَـحَــالُهَــا يُجْـرِي عُـيُـونَ الْبَـاكِـــي
كَــانَتْ رِيـاضـــاً زاهِيـــاً بِالْفَـضْـلِ ومَـــقْـصَـداً لِنـاسِـــكٍ وَعَـــــدْلْ
وَ دَثَرَتْ فَـجِـسْـمُـهَـا جَـرِيـــحُ دَخَلَــهُ الْخَـــرابُ والتَّـشْـــرِيـــحُ

وبإحدى جوانبها شُيد في السنين الأخيرة مستشفى لمعالجة أمراض العيون، حسن البناء، تام الاستعداد، مجهز بأرقى الآلات العصرية، وهو مقصود من سائر أنحاء المغرب.

وأمام الباب، أُحدث في العهد الأخير، سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف (1931/1331) دار النقاهة العسكرية. (Maison de convalescence)، وكان المقصود من إحداثها، معالجة المرضى والمعطوبين العسكريين في عهد الاحتلال.

وقد استعملت الحكومة المغربية هذه الدار بعد الاستقلال مستشفى لمعالجة الأمراض العقلية، وأَطْلَقَتْ عليه إسم الرَّازي فصحَّفته العامةُ بالغازي.

* قرية صِبِيَارَة التي بنيت فيهـا زاويـة النسـاك[37م]

أمَّا قرية صِبِيَارَة التي شُيدت فيها زاوية النسَّاك فقد كانت محل اعتبار وتقديس من السلطان أبي عنان، ولذلك بنى زاويته فيها.

ويقال إنَّ الصِّباريين ينتسبون الى يَغْمْرَاسِنْ بن زيان الذي كان ينتسب الى ءال إدريس.

واستظهر بعض الباحثين فيهم أنَّهم أشراف أدارسة، يرفعون نسبهم الى يحيى الإدريسي الصِّيباري، وبيدهم ظهائر ملكية تشهد لهم بذلك.

وكان ملوك المغرب إلى عهد قريب يعينون لهم نقباء كغيرهم من أشراف المغرب. والمقول والمنقول أنهم كانوا رجال خير وصلاح، و قبورهم معروفة شمال الزاوية، والعامَّة تعظمهم، وتطلق عليهم : رجال صيبارة، وما زالت بقية منهم منازلهم مُفرَّقة بقبيلة الغرب، شمال شرق المولى أبي سلْهامة.

ويقال إنَّهم كانوا في القديم كثيري العدد. ونزلوا بسلا وضواحيها بقصد حراستها، وكانت منازلهم حولها متفرقة، ومنهم ذووا البناء، ومنهم ذووا الخيام، ومنهم ذووا الاخْصاص،

37م) "Archives Marocaines" T 5 - p. 121 et "Villes et Tribus du Maroc, Rabat et sa Région", p. 213.

كما هو الشأن في البوادي المجاورين للمدن والأمصار. فانتشروا حول المدينة يحرسونها وما حولها ممن يسومها بسوء، ليتمكن السلاويون من الاستمتاع بأجنتهم وأملاكهم التي بمطّانة، وكانت ممتدة الى عين إسْمِيرْ التي كانت تدور بها أرحية الماء الكثيرة وآثارها باقية بها الى الآن.

وكان بعضهم ينزل بالقرية المنسوبة إليهم، وبعضهم حول المسجد الأعظم داخل المدينة، والعمران ممتد من هذا الحي الى باب فاس، والحركة مُتصلة بينها وبين القرية في كل وقت وحين من ليل أو نهار حتّى في أوقات الصلوات الليلية، حيث يسعى الصِّيباريون السّاكنون بالمدينة والسلاويون الى الزاوية لادائها بها، حاملين المشاعل التي كانت تعد بالمئات كما تقدمت الإشارة إليه، إلى أنْ انقرضوا ولم يبق إلاّ ذكرهم وآثارهم.

ولمّا شرعت الحكومة في الحفر بمقبرتهم بالقرية المذكورة بقصد مرور السكة الحديدية منها في رمضان عام أربعة وأربعين وثلاث مائة والف (رمضان 1344/مارس 1926)، عثرت على ثلاثة شواهد تحت الردم والتراب مكتوب على الشاهد الأول منها :

﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾.

"هذا قبر الشاب الصالح القارىء لكتاب الله تعالى، أبى العباس، أحمد بن الشيخ المرحوم أبى زيد، عبد الرحمان بن عبد العزيز الغافقي. توفى - عفا الله عنه - في يوم الإثنين الثاني والعشرين لصفر عام خمسين وسبعمائة (750). فرحم الله من دعا له بالرحمة ولسائر المسلمين، وصلّى الله على سيدنا محمد".

وعلى الشاهد الثاني :

"ابنة أبي القاسم بن عبد العزيز الغافقي القبتوري. توفيت - عفا الله عنها - في ليلة يوم الخميس رابع شهر صفر من عام خمسين وسبعمائة (750). لقّاها الله نضرة وسرورا، وبعثها فرحة مسرورة بفضله ومنه كرمه وجوده وطَوْله ورحمته. ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾...

و يظهر أنها بنت عم المتقدِّم، وتوفيا معاً في شهر واحد، وسنة واحدة، قبل بناء الزاوية بسبعة أعوام".

وعلى الشاهد الثالث :

"هذا قبر الشّاب المرحوم، عبد الملك بن أحمد بن أبي الأصبغ الغافقي، توفي - رحمة الله تعالى عليه - لتاسع عشر لشهر رمضان المعظم عام واحد وثمانمائة (801)".

قلت : ولعل هذه الأسرة الغافقية الأندلسية أصلا، السلاوية دارا من ذرية الأمير الشهير عبد الرحمان الغافقي، صاحب وقعة بلاط الشهداء ببواتيي (Poitiers) بفرنسا، سنة أربع عشرة ومائة (732/114). نزحت إلى سلا من الأندلس في ذلك العهد، واستقرت كغيرها من الأسر الأندلسية. وقد انقرضت الآن، ولم يبق لها ذكر ولا أثر، والبقاء والدوام لله تعالى.

ويؤخذ منه رغبة الناس في ذلك العصر في الدفن في مقابر تلك القرية الصِّيبارِيَة، قبل بناء الزاوية بها وبعدها. وفي ذلك دليل على احترامهم لها، وتبركهم بتربتها، أحياءً وأمواتا، وكل يثاب على نيته.

التعريف بأبي حاجة
شيخ زاوية النساك بسلا[38]

هو الشيخ الصالح، القاضي، الخطيب، أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم الأموي نسبا، الرُّنْدي أصلا، السلاوي مدفنا، الشَّنْدَرخ لقبا.

أصله من مدينة رُندة الأندلسية، وبها نشأ، وتولّى قضاءها والخطبة بمسجدها.

وكان صوفيا موصوفا بصفات الخير والزُّهد والتقوى، مَرْجُوَّ البركة مشهوراً بها عند الناس. ورد له ذكر في بعض مجامع الأدباء والرحّالين وتراجم الصّالحين.

وممّن ذكره العلامة القاضي، أبو عبد الله المقّري في تأليفه المعنون بـ "التحف والطرف" (مخطوط) في معرض معاينة كرامة وقعت برندة عند دفن بعض الصالحين بها، وَوَصَفَهُ بخطيب المُتَوَكِّلِيَة، يعني العنانية الفاسية، ولا ندري متى خطب بها.

وذكره الرحّالة ابن بطوطة في رحلته فقال :[39]

"ولقيت بها، يعني برندة، خطيبها الصالح الفاضل أبا إسحاق، إبراهيم، المعروف بالشَّنْدرخ، المتوفى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب".

وذكره أيضا قاضي سلا، الرحّالة المحدث، شهاب الدين، أبو العباس، أحمد بن أبي العافية المكناسي في مجموعة له في الأدب والتاريخ في سياق خبر نصّه :

---

38) استقينا أخبار هذا الشيخ من بعض المراجع التي سننبه عليها في محلها، ومن بعض المقيدات الخاصة، وما تلقيناه من المعلومات من بعض الأعيان المعتنين بصلحاء سلا كابن علي الدكالي وغيره.

39) ص 180 من ج 2، طبع القاهرة عام 1870/1287.

"يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه، علي بن عبد الله، بن محمد، بن عبد الله، ابن الحسين الجذامي المالقي أخذ الله بيده :

حدثني صاحبنا الحاج المتصوف، الخطيب الفاضل، أبو إسحاق، إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم الأموي، المعروف بالشندرخ قراءة عليه قال :

قرأت على الشيخ الإمام، العلامة، صفي الدّين، أبي الفضل، عبد العزيز نجم الدين، سرايا الحلّي العراقي هذه القصيدة الفريدة، وهي التي ورد بها المدينة الشريفة عند حجه، وأنشدها بروضة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأُجيب من الروضة الشريفة والقبر الشريف عنها بِـ : "قبلناها منك يا صفي الدين"، ومطلعها :

كَفَى الْبَدْرَ حُسْناً أَنْ يُقَالَ نَظِيرُهَا فَيَزْهَى وَلَكِنَّا بِذَاكَ نَظِيرُهَا

وهي طويلة تبلغ تسعين بيتا مثبتة في ديوانه".(40)

ولمّا كان هذا الشيخ بهذه المثابة من العلم والفضل والشهرة الذائعة بالصلاح والتقوى، استدعاه السلطان أبو عنان من بلده رندة بالأندلس وعيّنه شيخاً لزاوية النسّاك بسلا. وبمجرد وروده عليها وافداً على الحضرة السلطانية بفاس أدركه أجله، فتوفى بها في حدود سنة سبع وخمسين وسبعمائة (557 /1356)، وهي السنة التي تمَّ فيها بناء الزاوية المذكورة.

ودُفن خارج سورها الغربي من ناحية وادي أبي رقراق، قُبالة مدينة الرباط، في مقابر الغرباء من أهل الآفاق، بجوار قبر الشيخ الفقيه الأديب الشاعر، مَيْمون بن علي، بن عبد الخالق، بن خبّازة، محتسب مراكش، المتوفى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة (1336/737).

وقد كانت المقبرة ممتدّة خارج السّور إلى ناحية الباب الجديد، الموجود اليوم، وكانت مخصّصة في القديم لدفن الغُرباء؛ أُقْبر بها جماعة من الأعيان، واندثرت في زمننا هذا، ولم يبق بها قبرٌ يعرف إلاّ قبرا الشيخين المذكورين، لمَا كان عليهما من البناء، وبإزائه كان بئر عذب يستقي منه الناس، وينسب لأبي حاجة. وقد تقدمت الإشارة إليه عند الكلام على سور الأقواس والماء الجاري بسلا.

ولمّا اتخذت سلطة الاحتلال في العهد الأخير بلدية سلا قبالة ضريحي الشيخين المذكورين رحمهما الله، وأرادت إصلاح الساحة المقابلة لها، قرّرت نقلهما من قبرهما، وبنت

40) ص 47، طبع دمشق، عام 1879/1297.

لهما القبتين والضريحين الموجودين الآن. وبمجرد ما تمَّ البناء وهُيء القبران، حضر منتصف ليلة من الليالي حاكم البلد، وعدلان من قبل قاضيها، ونَبَشَ العملة القبرين، فوجدوا بعض الهيكل العظمي للشيخين مازال موجودا. فجدَّدوا كفنهما، وطيبوهما ونقلوهما للقبرين الجديدين.

وحرر العدلان وثيقة عدلية بذلك، وصفا فيها الحالة التي وجدا الشيخين عليها، ونصّها بعد الحمدلة والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم، تحت رقم 447 بالورقة 155 من كناش تَحْصِين الشهادات بمحكمة سلا الشرعية. قالا :

"في الساعة الثالثة، ليلة عشري شوال عام اثنين وخمسين وثلاثمائة وألف موافق خامس أبريل سنة أربع وثلاثين وتسعمائة وألف (20 شوال 1352/05 أبريل 1934)، توجه شهيداه للوقوف على نقل سيدي إبراهيم المعروف بأبي حاجة، دفين باب الخبّاز، المجاور لأبي حاجة المذكور، فحُفر بمحضرهما ومحضر أبي المواريث، السيد الحاج محمد بوشعرة، قبر أبي حاجة، ونُقل ما أُلفِيَ فيه من العظام المتلاشية مع عظم فك به ثلاثة أضراس، وجُعل لذلك كفن، وطُيِبَ بطيب، ووُضع في بيت العود، ودفن كذلك داخل القبة الجديدة التي بنيت لذلك بإزاء سيدي الخباز المذكور.

ثم جُفِرَ بمحضرهما قبر سيدي الخبّاز المذكور، وعُثر فيه على عظام قليلة جداً، ونُقلت بعد تطييبها وجعلها بكفن ووضعها في بيت العود إلى قبة بنيت جديدا لذلك عن يسار الداخل للقبة التي نقلت إليها بقية أبي حاجة. فمن حضر ما ذكر، وعاين جميع ما سطر قيده شاهداً به مسؤولاً عنه :

محمد العربي بن عبد الله عوّاد، أصلح بوجه صح به محمد العربي.

ومحمد الطيب الناصري بشكليهما.

ثم طمّرت السلطة البير، وهدمت البناء القديم، ولم يبق لهما أثر.

وفي وقتنا هذا، وهو سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف (1389/1969)، شيّد بعض أهل الخير من السلاويين مسجدا حفيلا، مزخرفا جميلا، أمام الضريحين المذكورين سمّاه "مسجد الرضا" تذكارا لولد له كان يسمى بهذا الإسم، وتوفي في حادثة سيارة، وهو عمل مبرور وسعي مشكور.

وإلى الشيخين المذكورين يُنسب الباب الذي كان مفتوحا في هذه الساحة، ويقال له باب بوحاجة "وباب الخبّاز".

وقد هُدِّم في هذه السنة سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف (1389/1969) مع طرف من السور المتصل به، لكثرة الحركة به، ومرور السيارات منه.

هذا وإنما عُرِفَ الشيخ أبو حاجة بهذا الإسم لمَّا ضاع ما كان مكتوبا بأعلى قبره من التعريف به، وتُنُوسِيَ لطول العهد وتناسخ الأجيال، وتعاقب السنين. وكان الناس يقصدونه لقضاء حوائجهم فتتيسر لهم ببركته، فأطلقوا عليه إسم أبي حاجة.

وقد ذكره أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في رجزه المسمى «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار العدوتين الرباط وسلا»، بقوله :[41].

وَمِنْهُمُ الشَّيْخُ أبو إسْحَاقِ ... إبْرَاهِيمُ الرُّنْدِي أَخُو لِحَاقِ
إِلَى سَلاَ إِذْ مَاتَ فِيهَا جَائِزَا ... لِحَضْرَةِ الْمُلْكِ قَضَاءً نَاجِزَا
ذَكَرَهُ الطَّنْجِي[42] لَدَى تُحْفَتِهِ ... لَقِيَهُ يَخْطُبُ فِي مُدَّتِهِ
بِرُنْدَةٍ ثُمَّ تُوُفِّي بِسَلاَ ... قُرْبَ رِبَاطِهَا فَجَلَّ مَنْزِلاَ

* زاوية الشيخ أبي زكرياء بسلا

من الزوايا القديمة المشهورة بسلا، منذ العهد المريني، زاوية الشيخ أبي زكرياء، بحيٍّ الطالعة، قرب الجامع الأعظم.

وهي من الزوايا والمعاهد والمشاهد المبترك بها بسلا، كزاوية النسّاك المتقدمة الذكر التي يقصدها أهل الخير والصلاح والزُّهاد والمنقطعون عن الدنيا، فيجدون فيها ملجئا مُطَمْئِناً آمِناً، وطعاما مهيئا وإعانة على ما هم مشتغلون به من عبادة ربِّهم.

وإليها ءاوى الشيخ أبو العباس أحمد بن عاشر لمَّا انتقل من زاوية شيخه أبي محمد، عبد الله اليابوري، بعد وفاته برباط الفتح.

قال أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر الحضرمي في «السَّلسل العذب»، وأبو العباس أحمد الحافي السلاوي في «تحفة الزائر ببعض مناقب أبي العباس بن عاشر»[43] :

وكان نزوله - يعني أبا العباس ابن عاشر - بدار المُقدَّم عليها - أي على الزاوية المذكورة - إذ ذاك الشيخ أبو عبد الله، محمد بن عيسى، تلميذ الشيخ المذكور.

---

41) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

42) هو ابن بطوطة.

43) «السلسل العذب»، و«تحفة الزّائر»، مخطوطان بالخزانة الناصرية بسلا.

وذكر أبو عبد الله بن علي الدكالي في بعض مقيّداته أن أولاد ابن عيسى بسلا أهل علم وخير وصلاح من قديم، وآخرهم خطيب الجامع الحجّي بسلا، رحمهم الله.

وقد ورد لهذه الزاوية ذكر في كتاب : «أنس الفقير، وعزّ الحقير» لأبي العباس القسمطيني، وأنه اجتمع بها ببعض من كان يتطلّب لقاءه من ذوي الخير والانقطاع عن الدنيا، فقال :[44]

ورأيت بها - يعني بسلا - الحاج عبد الغني - نفع الله به - في زاوية بمقربة من الجامع الأعظم - وهي زاوية الشيخ أبي زكرياء - ياوي إليها الأخيار والمنقطعون للعبادة، وهو واقف في خدمتهم، نفع الله به، ودخلت زاويته، وأنزلني في بيت كتبه، وناولني مفتاح خزانتهما، وتمتعت بلقائه ودعائه.

وقصده مرة وزير المغرب، عمر بن عبد الله بن علي الياني في حاجة فأبى أن يقضيها، وسمع من الوزير ما يكره بسببها، فخرج وهو يقول : "اللهم أرحنا منه"، وكرر ذلك، وسمع دعاءه الناس، فقُتل الوزير بعد أيام، وتعجّب الناس من ذلك.

وبعد طول الزمان، وضعف الدولة المرينية التي تعتني بهذه الملاجئ الخيرية، وتناقص العمران بهذه المدينة السلاوية، خربت هذه الزاوية،[45] وانقسمت أقساما. قسم جعل روضاً وغُرس، وقسم جُعل طرازاً لنسج القطن والكتّان، وقسم جُعل كُتّابًا للصبيان. والباقي صار روضا أيضا. ولم يبق من الزاوية الأصلية إلا بقعة صغيرة، تشتمل على اثنين وعشرين شبراً طولا، وثمانية عشر شبراً عرضا.

وقد كانت هذه الزّاوية في أول عهدها مدفنا لجماعة من الأعلام، فانطمست معالمها، وتغيرت شواهدها، وكاد أن يختفي أثرها.

ومع ذلك فهي من المشاهد التي يُتبرك بها بسلا إلى هذا العهد.

* الزاوية الشريشية بسلا

ومن الزّوايا المؤسسة بسلا في عهد بني مرين الزاوية الشّرِيشَيَّة بحي باب حسين.

---

44) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية كذلك.

45) «الاتحاف الوجيز» لابن علي الدكالي، مخطوط الخزانة الناصرية أيضا.

بنى بنو مرين قبتها، ورفعوا سمكها، على قبر الشيخ أبي علي الحسن الشريشي رحمه الله، احتراما له وصَوناً لضريحه، واتخاذه مزارة يُتَبَرَّكُ بها.

وهو من أهل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، ومن رجال «التشوف».

وقد كانت هذه الزاوية فيما مضى، بيد أصحاب القطب الشيخ أبي العباس أحمد الصقلي، ثم ءالت بعد ذلك في القرن الماضي إلى أتباع طريقة الشيخ مولاي العربي الدرقاوي، وهي بيدهم إلى الآن.

ودُفن بها جماعة وافرة من أعيان سلا وأعلامها في القرنين الماضي والحاضر، رحم الله الجميع.

* الجامع المريني بسلا

من المساجد السلاوية التي أسست في عهد بني مرين بسلا، الجامع المريني المنسوب إليهم بحي باب حسين.

وقد كان تداعى إلى السقوط، فَجدَّدت الأحباس بناءه في زمننا هذا، مع المحافظة على هيأته التي كان عليها. وبه ميضئة للوضوء، وبئر يستقى منها كغيره من المساجد السلاوية المشيدة في ذلك العهد أو قبله، لقلة الماء إذ ذاك بسلا، واختصاص المسجد الأعظم، والمدرسة الحسنية المرينية وزاوية النسَّاك به وبعض المساجد الأخرى التي مرَّ عليها في طريقه إلى المسجد الأعظم المذكور كما تقدم بيانه عند الكلام على الماء الداخل لسلا.

* جامع الزرقاء بسلا

ومنها جامع الزرقاء الكائن بحي زَناتة وبه ميضئة للوضوء، ولكنه امتاز عن غيره من المساجد الأخرى بوجود الماء الجاري من سور الأقواس به، لقربه من باب شَعْفَة الذي دخل منه الماء إلى المسجد الأعظم المذكور.

ويقال : إنه إنَّما سُمي "جامع الزرقاء"، لكون أسطوانه كان مفروشا بالحجارة الزرقاء الصلبة المجلوبة إليه من أنقاض شالة.

وبسلا مساجد أخرى منسوبة لبعض الأعلام، أسست في العهد المريني أيضا كمسجد سيدي الحاج عبد الله، ومسجد الشيخ ابن عباد، ومسجد الشيخ أبي العباس أحمد بن عاشر، وغيرهم ممن يطول تتبعه ويستدعي بحثا خاصا.

* المارَسْتان أو المدرسة الطبية المعروفة بفندق «أسَكُّورْ»

من آثار بني مرين بسلا، المارستان أو المدرسة الطبية العلمية المعروفة اليوم بفندق ءاسكور بحي بابا حسين الذي كان فيما سلف حارة يهودية. وهي من بناء السلطان أبي عنان بن الحسن المريني رحمه الله، كما سياتي.

وقد كان لبني مرين جنوح إلى الخير، واعتناء بالدِّين، فملؤوا المغرب وأمصاره ومدنه مدارس وزوايا ومارستانات.

وممَّن اشتدت عنايته بذلك وَبدَّ من سبقه من الملوك في هذا الشأن السلطان أبو عنان ابن أبي الحسن، فأكثر من بناء الزوايا للغرباء والفقراء، والمارستانات للمرضى والزَّمْنى، والضعفاء، وحبَّس عليها ما تقوم به مصالحها وشؤونها.

قال ابن مرزوق في «المسند الصحيح الحسن، في مآثر المولى أبي الحسن»[46]

جدَّد إمامنا - يعني أبا الحسن - المارستان بمدينة فاس وغيرها، وهي عبارة عن المواضع المتخذة لمداواة المرضى ومعاناتهم، ولأهل المشرق بها عناية كبيرة، وكان له بهذا الشأن أعظم اعتناء.

وقد أحيا سبيله من بعده فيه، ولده المولى أبو عنان، والولد سر أبيه...".

وورد التَّنويه بأعمال هذا السلطان الخيرية، وصدقاته الجارية، ومآثره البرية، في رحلة الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطُّوطة، فقال :[47].

---

46) ص 36، طبع باريس سنة 1345/1926.

47) ص 176، من ج 2، مطبعة وادي النيل، عام 1870/1287.

"وأمَّا صدقاته الجارية، وما أمر به عمارة الزوايا بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصّادر، فذلك ما لم يفعله أحد من الملوك غير السلطان أتابك أحمد، وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم، والتصدق بالزرع على المتسترين من أهل البيوتات".

قال ابن جُزَيّ ملخِّص الرحلة المذكورة :

"إختـرع مولانا – أيده الله – في الكرم والصدقات، أمورا لم تخطر في الأوهام، ولا اهتدت إليها السلاطين.

– منها : إجراء الصَّدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام.

– ومنها : تعيين الصدقات الوافرة للمسجونين في جميع البلاد أيضا.

– ومنها : كوْن تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع به.

– ومنها : كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده.

– ومنها : تعْيين الضحايا لهؤلاء الأصناف في عيد الأضحى.

– ومنها : التصدق بما يجتمع في مجابي أبواب بلاده يوم سبع وعشرين من رمضان، إكراما لذلك اليوم الكريم وقياما بحقه.

– ومنها : إطعام الطعام للناس في جميع البلاد، ليلة المولد الكريم، واجتماعهم لإقامة رسمه.

– ومنها : إعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء.

– ومنها : صدقته على الزَّمْنى والضعفاء بأزواج الحرث يقيمون بها أودهم.

– ومنها : صدقته على المساكين بحضرته بالطَّنافس الوثيرة والقطائف الجياد، يفترشونها عند رقادهم، وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير.

– ومنها : بناء المارستانات في كل بلد من بلاده، وتعْيين الأوقاف الكثيرة لمَأْوى المرضى والأطباء لمعالجتهم، والتصرف في طبهم، إلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم، وضروب المآثر، كافى الله أياديه، وشكر نعمه...".

ومن هذا القبيل، مارستان سلا، وكان بناؤه أواسط المائة الثامنة للهجرة، الموافقة لأواسط القرن الرابع عشر للميلاد

– إما مدرسة على ما جزم به مؤرخ المغرب، الشيخ أبو العباس، أحمد بن خالد الناصري في «الاستقصا»[48]

– وإما مارستاناً على ما ذكره تلميذه مؤرخ سلا، أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في تاريخه : «الإتحاف الوجيز»،[49] قال :

"وقد بنى السلطان أبو عنان بمدينة سلا، المارستان العجيب، وسط حارة اليهود من حومة بابا حسين، وهو بناء حفيل، مشتمل على عدة بيوت لاستقرار المرضى والمجانين به، وأجري له الماء لشدة الحاجة إليه، من الماء الداخل لسلا على سور أبيه.

وكان محلُّ هذا المارستان، فندقا للزيت قديما، وبه سكنى العارف بالله، سيدي موسى الدكّالي، ولا زال بيته معروفا به إلى الآن".

ثم قال :

"وعيَّن له أطباء مهرة، ممَّن يعاني علم الطب قراءة وعلاجا. وكان أكبرهم الشيخ ابن غياث السلاوي،[50] شيخ أبي عبد الله القوري المكناسي، ورتب لهم الجرايات والصلات على ما يُعانون، فكان سوق الطب – كسائر العلوم – رابحا بأقطار المغرب في ذلك العهد، لاعتناء الملوك به".

ولمَّا تقهقر حال الدولة المرينية، وضعف أمر ملوكها أخيرا، وبطل العطاء، وانقطع المدد، هُجر المارستان وأُهمل، وتعطَّل، وأسرع إليه الخراب، وأشرف بناؤه الرفيع على السقوط، فرجع فندقا كما كان في أول عهده، ولم يبق منه شاهدا على ماضيه، إلاَّ بابه الفاره، وعليه كتابة اشتملت على اسم بانيه أبي عنان، وتسميته بالمارستان، كُتب ذلك كله في الزليج الأسود الملصق على تاج الباب المذكور.

---

48) ص 101 من ج 2، طبع القاهرة. وص 194 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

49) مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

50) هو الشيخ سيدي مغيث الموجود ضريحه بحي الطالعة بسلا.

وقد أصدرت إدارة المحافظة على الآثار القديمة والفنون الجميلة بالمغرب ظهيرا شريفا يوسفيا بتاريخ خامس محرم عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف، الموافق لثاني دجنبر سنة أربع وعشرين وتسعمائة وألف (05 محرم 02/1343 دجنبر 1924)، لم يحضرني نصه الآن، بتقييده في عدد الأبنية التاريخية التي تجب المحافظة عليها بمدينة سلا.

هذا حال المارستان القديم الذي ذكره ابن الخطيب السلماني. اهـ.

ويمكن الجمع بين كونه مدرسة ومارستانا، بأنه كان أقساما كما هو الشأن في المدارس والكليات الكبرى: الطبية والعلمية.

على أنَّه ثبت في التاريخ أنَّه كان من عادة ملوك الإسلام قديما، أنَّهم كانوا يجعلون المارستانات مدارس طبية ومعاهد علمية، لأنهم كانوا يقرؤون فيها الطِّبَّ علماً وعملا.

كما كانت المارستانات الإسلامية جامعة بين الأقسام الخاصَّة بالمرضى والمجانين، والأقسام الخاصة بالأطباء المباشرين، وغالبا كان هؤلاء الأطبّاء يشتغلون في أوقات خاصة بتحضير الأدوية واستخراجها من المواد الكيماوية، ويعلمون التلامذة بذلك صناعة الطب علماً وتطبيقا.

فكان المحلُّ يسمّى باعتبار القسم المعدِّ للتعليم وتلقّى الدروس من الأساتذة مدرسة، ويُسمى باعتبار القسم المخصَّص للمرضى والمجانين ومن في معناهم مارستانا، وهذا شأن الكُليات الكبرى في القديم، فلا تنافي بين تسميته مدرسة ومارستانا بهذا الاعتبار.

وأمَّا المال الذي أُنفق في بنائه وتجهيزه وتنميقه، كغيره من المنشئات الكبرى في عهد الموحدين والمرينيين، فالظاهر أنه كان من أخماس الغنائم التي كانت تُخصَّص للدولة بعد المعارك الجهادية في الأندلس، لاسيما وقد ثبت أنَّ ملوك الإسلام، منذ عهد الخلفاء الراشدين، كانوا يُخصصون قدراً وافراً من تلك المغانم للإنفاق في المصالح العامة، ومنها بناء المساجد والمدارس والمارستانات..... كما كانوا يصرفون قسطا مهمّاً من ميزانية الدولة في التعليم وللعلماء والمتعلِّمين، ويجرون عليهم الجرايات الواسعة التي تكفيهم مئونة التكسُّب للمعيشة، فيتفرغون لما هم بصدده من خدمة العامة بالتدريس والتأليف في العلوم الدينية والدنيوية، والبحث في المسائل التي تعود بالخير على الإنسانية، وذلك زيادة على الأحباس والأوقاف المتنوعة على المدارس العمومية، والطوائف الدينية الخصوصية.

وأعظم الدول تنافساً وتسابقاً في هذا الميدان في ذلك العصر بالمغرب دولتا الموحدين وبني مرين. وهذه المدارس الباقية بعد تلك القرون الخالية بفاس ومراكش ومكناس وسلا، جلُّها من تأسيسهم وبنائهم، جزاهم الله خيرا، ولقّاهم مثوبة وأجرا.

هذا، ولمَّا تعطَّلت هذه المدرسة الطبية، أو المارستان العلمي العملي عن العمل، وبقي معطَّلا مهملا قروناً وأجيالا، عاد فندقاً تُربط به الدوابّ كما كان في عهده الأول، فتغيرت محاسنه، وتناثر زليجه، وتُنوسي أمره، وقد أدركناه في زمن الصِّبا على هذا الحال، إلى أن كثُر الانتقاد في عهد الاحتلال على المحتلّين بعد صدور الظهير البربري، بأنهم يبنون ويشيدون محاكمهم وإداراتهم، ويتنافسون في تحسينها وإنفاق الأموال الطائلة من ميزانية الدولة عليها، ومن جملتها محاكم إِيزْرَمْ : بسائر القبائل البربرية، وينفقون عليها أيضاً من الميزانية.

فحينئذ أذنت الإقامة العامَّة في تنفيذ شيء من المال، وإنْ كان تافهاً إعانةً للأحباس لإيجاد وإصلاح محلاَّت تكون محاكم شرعية في المدن الكبرى والقرى المهمة المغربية، ومن جملتها سلا، فصدر الأمر باتخاذ فندق أَسْكُّور محكمة شرعية رعياً لماضيه العلمي، ولكونه في وسط البلد، فأُصلح حينئذ وجُدد ورُمم ما تعين تجديده وترميمه فيه، مع المحافظة على الآثار التاريخية به، تحت إشراف إدارة المحافظة على الآثار القديمة والفنون الجميلة بالمغرب، وأنفقت عليه الأحباس السلاوية، ونُقلت إليه المحكمة الشرعية.

حبس الطائر اللقلق

ولمَّا كان خراباً كان الناس يحملون إليه طائر اللقلق إذا مرض أو أُهيض جناحه، فيبقى فيه إلى أن يحصل له الشفاء أو يموت، ولا ندري هل كان ذلك حبسا أم لا، على أنه لا غرابة في وجود حبس على هذا الطائر، لأن الناس كانوا يحبسون على أنواع من الخير والبر غريبة، وأظن أنه يوجد حبس من هذا النَّوع على هذا الطائر بمدينة فاس.

وقد أخبرني أحد قدماء الموظفين بديوانة العُدْوتين في العهد العزيزي أنَّهم كانوا ينفذُون من مداخيل المرسى قدراً معلوماً كل شهر للمباشرين لطائر اللقلاق بفندق أَسكُّور بمدينة سلا، وهذا يدل على أنه كان هناك شيء، إمَّا منحة ملكية، أو تعويض حُبُس، أو نحو ذلك.

وأمَّا الدار التي بحي القساطلة من سلا المعروفة بدار بَلاَّرَجْ (اللقلق) فقد كانت دار القائد القسطالي الذي ينسب الحي المذكور إليه، وخربت بعده، وأُهملت حقبة من الدهر، فَآوى إليها هذا الطائر وبنى أعشاشه بها، وتكاثر وتناسل حتى صار الناس ينسبونها إليه، ويقولون دار بَلاَّرَجْ. وقد هُدمت وأُعيد بناؤها من جديد في زمننا هذا، كغيرها من جلِّ الدور والأمكنة الخربة بسلا، والبقع الخالية.

وأمَّا لفظ اَسَكُّورْ الذي سُمي به هذا الفندق الذي كان مدرسة أو مارستانا فهو اَزقّور أو اَسكُور. وكانت تسمى به مدينة مغربية قديمة، ذكرها قدماء الجغرافيين بناحية الغرب من أعمال سلا، وكانت عامرة زمن بني يفرن والمرابطين بعدهم، وخربت واندثرت، ومازال الباحثون في الآثار المغربية لم يَتَوَفَّقُوا إلى تعيين موضعها بالضبط.

وكانت بسلا حارة تُسمى باسمها، ولعلها حارة بابا حسين الموجود هذا الفندق أو المدرسة بها. فبقي اسمها عالقاً بها إلى اليوم.

كما كانت بفاس أيضا حارة تسمى حارة اَزقّور، وبها مسجد يُسمى جامع الصابرين، ويقال له مسجد اَزقّور، لا زالت آثاره مائلة إلى اليوم ولعله مِنْ بناء المرابطين، بل هو الراجح كما سياتي.

وقد ذكره أبو العباس، أحمد بن الخطيب القسمطيني في كتابه «أنس الفقير وعز الحقير»[51] لمَّا تكلم على أبي زيد عبد الرحيم الهزميري، فقال :

"إِن قبره داخل باب الفتوح من أبواب مدينة فاس، في روضة الأنوار، بإزاء جامع الصابرين"؛ وقال في محل آخر من الكتاب المذكور:

"إن الشيخ أبا العباس، أحمد المكناسي، نزل بجامع الصابرين، وهو موضع مبارك يأوي إليه أهل الفضل والصلاح. وأفاد الشيخ أبو عبد الله، محمد بن جعفر الكتَّاني، في «سلوة الأنفاس»[52] أن مسجد الصابرين هو المعروف الآن بروضة أبي مدين، وأنه كان في القديم مدرسة..."

51) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

52) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

ثم قال :

"وقد رأيت مقيدا ما نَصُّه : مدرسة أبي مدين هي المعروفة في القديم بمدرسة الصابرين والمرابطين اللمتونية، لأن يوسف بن تاشفين منهم هو الذي بناها".

وقد حرَّر أخونا ،أبو عبد الله، مَحمد الكلام على مدينة أزقور في بحثه في برغواطة من دراسته في كتابه : «تصحيح الصفحة الأولى من تاريخ المغرب»، والله الموفق للصواب بمنه.

المبحث الثالث

سلا ملجأ الصالحين في عهد بني مرين

علمنا من مجموع ما سجلناه من أخبار وأحوال مدينة سلا في عهد بني مرين، وما أُسِّسَ فيها من الزوايا والتّكايا والمعاهد والمساجد، أنَّها تجردت من حلّة الرياسة، وتخلّت عن مظاهر السياسة، وتحلَّت بالحِلْية الصوفية، وأصبحت مدينة علمية، يأوي إليها الزُّهَّاد والأخيار، ويقصدها أهل الصلاح ومن تخلّى عن الدنيا من الأبرار.

ومن تتبع تراجم هؤلاء الأعلام، في ذلك العصر، في كتاب «التشوف» لأبي يعقوب ابن الزيات، و«أنس الفقير» لأبي العباس ابن الخطيب القسمطيني، وغيرهما، علم حقيقة أولئك القوم، وأنهم كانوا ممن يُهْتَدَى بهديهم، ويُقتدى في مقامات السلوك بهم، ويُتبرك بمعاشرتهم، ويُتأدب بأخلاقهم، ولذا قال في حقهم ابن عبَّاد : "قصدتهم لوجدان السلامة معهم".

وقد أفصح عن ذلك صاحب «أنس الفقير»، وهو من رجال ذلك العصر بقوله :(53)

"وهذه المدينة (يعني سلا) مقر الصالحين، ورأيت منهم فيها عدداً كثيرا"، وذكر أفرادا منهم... ثم قال :

"وهذه المدينة أولى بالمريد بالمغرب من غيرها، عمرها الله بالخير والعافية..."

ولمَّا ذكر أبو العباس الصَّوْمعي في كتابه «المُعْزَى في مناقب الشيخ أبي يعزى» استحباب زيارة الأولياء قال :(54)

53) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

54) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية كذلك.

"ولاسيما في مشاهد الأخيار، إذا اجتمعوا في مكان من الأمكنة المشرَّفة، كما كانوا يجتمعون قبل برباط شاكر، وبساحة دكالة وبسلا، وبجبل العلم، وعند الشيخ أبي يعزى في أيام الربيع وغير ذلك..."

فعدَّها من جملة الأمكنة التي كانت مجتمع أهل الله وأوليائه من عباده الصالحين.

وإليها يشير أبو علي اليوسي في قصيدة من قصائده فيها بقوله :

وَسَاحِلِ صِدْقٍ كَانَ مَحْجُوجَ نَاسِكٍ يُلَبِّي المُنَادِي فِيهِ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ

وقال أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا» :

وَوُصِفَتْ فِي كُتُبِ الأَخْلاَقِ بِأَنَّهَا أَقْرَبُ لِلْوِفَاقِ
بِكُلِّ ذِي وِلاَيَةٍ وَذِي صَلاَحْ وَذِي زَهَادَةٍ وَعَوْنٍ ذِي فَلاَحْ
وَأَنَّهَا مُجْتَمَعُ الأَعْيَانِ مِنَ الرِّجَالِ الْعُظَمَاءِ الشَّانِ

ثم قال :

كَانَتْ لَهَا الرِّحْلَةُ فِي الْقَدِيمِ لِمَا حَوَتْ مِنْ مَفْخَرٍ عَظِيمِ
مِنْ جِلَّةِ الشُّيُوخِ وَالنُّظَّارِ وَقَادَةِ الأَسَاتِيذِ الأَخْيَارِ
وَعَيْنِ أَعْيَانِ الْكِبَارِ الصُّلَحَا فَذَا أَبُو عِنَانَ أَمَّ صَالِحَا
وَلِيُّهَا ابْنَ عَاشِرِ الأَنْدَلُسِي حَدِيثُهُ غَضٌّ جَدِيدٌ مَّا نُسِي

ولهذا قصدها الوزير لسان الذين ابن الخطيب - رحمه الله - في عهد نَكْبَتِه واستحكام حلقات محنته، فاتَّخذ بها دارا، وملجأ وقرارا، واستظل بظلها، والتمس بركة رجالها، وأخذ عن مشاهير صلحائها، وتنسك بزاوية نُساكها، ولاذ بأجداث من أُقْبِرَ من الملوك بشالَّتها، وأخلد إلى الراحة، فكتب مُخَلَّداً ما شاء الله أن يكتبه من الكتب القيمة أثناء إقامته بها، وسَوَّدَ ما شاء تبعاً للعواطف النفسية، والأحداث اليومية من الصحف في مدحها أو ذَمِّهَا إلى أن جاءه الفرج، ورجع لخدمة سلطانه ببلده غرناطة، أبي عبد الله ابن فرج، وهو ما بسطناه في كتابنا «ابن الخطيب في سلا"».

الفصل الثاني

عن مدينة رباط الفتح وعمرانها وآثارها
في عهد بني مرين

المبحــث الأول

رباط الفتح في عهد بني مرين

تمهيد

كان رباط الفتح في عهد المنصور، وبُعَيْدَ وفاته، مدينة حربية عسكرية، ورباطا لمرابطة المجاهدين والغُزاة بالديار الأندلسية منذ وجوده.

ولمَّا فترت الحركة الجهادية بعد معركة العقاب، وبعد موت الناصر وابتداء ظهور الضعف والانحلال في الجهاز الإداري والعسكري للدولة الموحدية، أصبح الرباط مجرد قلعة أو حصن للدفاع عن كيانها، وصيانة نفوذها بين شمال المملكة وجنوبها.

ثم لمَّا تقطَّعت أوصالها، وانهدَّت أركانها، قامت على أنقاضها دول جديدة : كدولة بني الأحمر بالأندلس، وبني حفص بتونس، وبني زيان بتلمسان، وبني مرين شمال المغرب، وهؤلاء جاذبوا ملوكها حَبْلَ الرياسة والسلطانة بجنوبه.

فقامت بينهم حروب ومعارك طاحنة، ومدّ وجزر في تيار الحكم والسيطرة على عمران مصب نهر أبي رقراق، الفاصل بين الجنوب، ملجأ الدولة المنهارة، والشمال مهد الدولة الجديدة الناشئة.

وقد كان رباط الفتح – لأهميته الحربية، وموقعه السّتراتيجي من المملكة – مطمح كل من الدولتين، تريد كل واحدة منهما أن تهيمن عليه، وتجعله تحت نفوذها ليكون نقطة انطلاق في حروبها. إمَّا لاسترجاع قوتها، أو لإثبات سيطرتها وحكمها على المغرب كله.

ولهذا، يُعتبر تاريخ العُدْوتين السلاوية والرباطية في ذلك العهد، مُجَرَّدَ سلسلة حروب ومعارك متواصلة بين هاتين الدولتين : القديمة والجديدة، كانت نتيجتها، تعاقب سيطرتها على هذا المصب الرقراقي فترات من الزمان – قبل أن يستقر فيه الأمر لبني مرين – حسب القوة العسكرية التي كانت لكل واحدة منهما، وهو ما سنراه فيما يلي :

استيلاء بني مرين على مصب أبي رقراق وتمكنهم من رباط الفتح

لمّا تمّ الأمر للأمير أبي بكر بن عبد الحق المريني باستيلائه على مدينة فاس، وجّه عزمه وعنايته إلى العدوتين : سلا ورباط الفتح[55] سنة تسع وأربعين وستمائة (649/1251) فملكها، وتاخم الموحدين بثغريهما واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق، وعقد له عليها، وضمّ الأعمال إليه، وكانت هذه أول مرة تجاوزت فيها الجيوش المرينية مصبّ أبي رقراق من العدوة الدنيا إلى العُدوة القُصوى.

وبلغ الخبر إلى المرتضى الموحدي بمراكش، فأهمّه الشأن، وأحضر المَلأ من قومه، وفاوضهم، وسَرَّحَ لرباط الفتح جيشاً من الموحدين والعرب والرّوم سنة خمسين وستمائة (650/1252)، فأحاط بالعدوتين واسترجعهما إلى طاعة المرتضى سنة إحدى وخمسين وستمائة (651/1253).

وعقد عليهما لأبي عبد الله بن يَعْلُو من مشيخة الموحدين.

وخرج المرتضى بعد استرجاع العدوتين، لقتال بني مرين، فالتقى بالأمير أبي بكر بن عبد الحق قرب مكناسة، فهزمه الأمير أبو بكر، وسبى محلته، سنة ثلاث وخمسين وستمائة (653/1255).

وفي ذلك يقول شاعر بني مرين، أبو فارس، عبد العزيز الملزوزي، في رجزه المسمى «نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك» :[56]

وَلَمْ تَزَلْ بِسَيْفِهِ تُحَاطُ   مكناسةٌ وفاسُ والرِّباطُ
ثُمَّ سلا حَاطَ وَأَرْضَ القِبْلَةْ   وَنَالَ مَا لَمْ يَرَهُ مَنْ قَبْلَهْ

وقال ابن الخطيب في «رقم الحلل » :[57]

ثُمَّ تَعَدَّى أَمْرُهُ إِلَى سَلاَ   وَسَارَ فِي القِبْلَةِ قُدْماً وَاعْتَلَى

---

55) ابن خلدون، ص 252، ج 2، طبع الجزائر، و«الذخيرة السنية»، ص 87، و«الاستقصا»، ص 9 من ج 2، طبع القاهرة، وص 22 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001. و«المسند الصحيح الحسن» لابن مرزوق، ص 120، طبع باريس.

56) ص ، المطبعة الملكية بالرباط.

57) ص 77، طبع تونس.

وفي «الذخيرة السنية»[58] أنَّ الأمير أبا بكر بن عبد الحق، لمَّا رجع من سجلماسة سنة خمس وخمسين وستمائة (1257/655)، أقام بفاس أياما، ثم خرج منها إلى رباط الفتح، فوصل إلى خميس فزاره[59]، ورجع إلى فاس.

ثم خرج غازياً العرب بسجلماسة، فانقلب منها عليلا، وأدركه أجله سنة ست وخمسين وستمائة (1258/656).

وبويع خلفا عنه أخوه أمير المسلمين، أبو يوسف، يعقوب بن عبد الحق.

وفي أول عهد هذا السلطان، كان استيلاء نصارى الإصبنيول على العدوة السلاوية، وقد تقدم الكلام مفصّلاً على هذا الاستيلاء في الفصل الخاص به من أخبار بني مرين بسلا، مُحَصَّلُهُ هنا لترتبط الحوادث بعضها ببعض.[60]

وهو أنَّ الأمير أبا بكر لمّا فتح سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستمائة (1251/649)، وَوَلّى عليها أبا عبد الله، يعقوب بن عبد الحق، وهو ابن أخيه، واسترجعها المرتضى سنة خمسين وستمائة (1252/650) وَوَلّى عليها أبا عبد الله بن يَعْلُو، فرَّ يعقوب بن عبد الله بعد انسحابه إلى تامسنا، وبقي متقلّباً في أطرافها، وأخيراً نزل عين غبولة، وتحيَّل حتّى دخل رباط الفتح، وضمَّ إليه سلا، وفرَّ العامل ابن يَعْلُو بحراً إلى أزمور.

وجاهر يعقوب بن عبد الله بالخلاف على عمه أبي يوسف يعقوب، واستبدَّ برباط الفتح، واستدعى الجيوش الإصبانية للإستعانة بها على عمِّه، فجاءت إليه فورا، واحتلَّت مدينة سلا، وحلَّت بها الداهية الكبرى بما أصابها من التخريب والتحريق والتقتيل والسلب والنهب.

كل ذلك ويعقوب بن عبد الله متحصِّن بقصبة الرباط ينظر إليه، ولا قدرة له على إيقافه أو تلافيه، إلى أن جاء عمه أبو يوسف من تازة، كما في ابن خلدون[61] و«الاستقصا»[62] وفي «المسند الصحيح الحسن» لابن مرزوق من فاس،[63] ملبّياً صريخ السلاويين واستنقذ مدينتهم، وأزال معرة العدو عنهم. وحينئذ خشي يعقوب بن عبد الله بادرة عمه أبي يوسف، وكان مَآلُهُ أن قُتِل بعين غبولة.

---

58) ص 91، طبع الجزائر.

59) كذا بالأصل، والصواب أنه خميس فنزارة.

60) يراجع ما تقدم في فصوله الخاصة به المستوعبة لهذه الحوادث وتناسقها.

61) "Histoire des Berberes", Trad. le Baron de Slane, T. 4, p. 47, Edition 1956/1376 - Paris.

62) «الاستقصا» ج 3، ص 21 و 22، طبع الدار البيضاء 1954/1374. وص 25-26 من ج 4، لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

63) «المسند الصحيح الحسن»، ص 21، طبع لاروز (Larose)، باريس 1340/1921.

ومن ذلك العهد، بقيت العدوتان : سلا ورباط الفتح تحت طاعة بني مرين، وَوَلَّى عليهما أبو يوسف، يعقوب بن عبد الحق عَامِلَه عبد الله بن أحمد الفنزاري[64] وأنزل بالقصبة حمية من جنده، وحصَّنها وضبطها لتدرأ في نحر العدو وتحمي مدينة سلا، فلا يتسلَّط عليها مرة أخرى.

ومن ذلك الحين صار ملوك بني مرين يتردَّدون على رباط الفتح أثناء حركاتهم وتنقلاتهم السياسية والحربية كما سيأتي.

وكانوا كلَّما مرُّوا أو حلُّوا فيه، نزلوا بقصور ومنازل عبد المومن وآله بالقصبة، ولا يُعرف أنهم أسَّسوا قصراً ملكياً خاصّاً بهم، سواء بالقصبة أو بالمدينة، لأنهم كانوا يعتبرون الرباط مجرَّد حصن من حصون الدولة، ومسلحة من مسالحها التي يعتمدون عليها في حماية المصبِّ الذي هو الحد الطبيعي الفاصل بين الشمال والجنوب، ولم يُخَلِّدُوا فيه شيئا زيادة على ما وجدوه فيه من الحصون والأبراج والأسوار الموحدية، والآثار التاريخية الفنية إلاَّ قليلا، كما في مدن أخرى من المغرب.

تردُّد ملوك بني مرين على رباط الفتح وإقامتهم به

لمَّا دان عمران مصب أبي رقراق لبني مرين، وتمكَّنوا من رباط الفتح الذي كان كما قلنا المركز الحربي المهيمن على الضَّفتين : اليمنى واليسرى للنهر، صاروا يترددون عليه، ويقيمون فيه الفينة بعد الفينة لتدبير شؤون الدولة، وإنجاز بعض المشاريع الحربية والسياسية المهمة، المتعلقة بالحركة العسكرية، وربّما جهَّزوا منه ومن سلا وسبتة أساطيلهم البحرية وجيوشهم البرِّية للجهاد بالديار الأندلسية، ولاسيما بعد تأسيسهم دار الصناعة بالعدوة السلاوية.

64) «المسند الصحيح الحسن»، ص 21، طبع لاروز (Larose)، باريس 1340/1921.

تردد أبي يوسف يعقوب المنصور على رباط الفتح

قال في «الذخيرة السنية» :[65]

"إن أمير المسلمين، أبا يوسف، يعقوب المنصور، خرج من فاس، قاصداً طنجة سنة خمس وستين وستمائة (1266/665)، ثم بدا له فسار إلى سلا".

قلت : والرباط أيضا، لأن اسم سلا كان يشمل العدوتين معًا في ذلك العهد.

وبعث ولده الأمير أبا مالك إلى طنجة... ثم قال :

"وفي سنة ست وستين وستمائة (1267/666)، سار من رباط الفتح إلى مراكش لحصار أبي دَبُّوس... "

وقال أيضا بعد هذا :[66]

"إنتقل أبو يوسف، يعقوب بن عبد الحق من مراكش إلى رباط الفتح، ودخله آخر يوم من ذي القعدة سنة تسع وستين وستمائة (1270/669). وعيَّد به عيد الأضحى، وأخذ به البيعة على بني مرين لولده أبي مالك، وجعله ولي عهده. ولكنه توفي في حياته سنة إحدى وسبعين وستمائة (1273/671)، ورجع إلى فاس، ثم انتقل منه في السنة نفسها إلى رباط الفتح، وأخذ البيعة لولده الأمير أبي يعقوب يوسف، وجعله ولي عهده خلفا عن أخيه المتوفي، وبعد الفراغ من عقد البيعة توجَّه إلى مراكش[67].

وفي شهر رمضان من السنة المذكورة، رجع إلى رباط الفتح أيضا، وعيَّد به عيد الفطر، ثم ارتحل إلى طنجة، وحاصرها حتى فتحها سنة اثنين وسبعين وستمائة (1273/672)"[68].

وفي ابن خلدون[69] أنه لمَّا كَمُلَ له فَتْحُ بلاد المغرب، وتمشَّت طاعته في أقطاره، عزم على الغزو في سبيل الله بالأندلس، وفي طريقه من سجلماسة إلى مراكش، عرَّج على سلا (يعني رباط الفتح) ونظر في شأنها، وسدَّ ثغورها.

---

65) ص 130، طبع الجزائر.

66) نفس المصدر، ص 139.

67) نفس المصدر، ص 154.

68) نفس المصدر، ص 155.

69) ص 273 من ج 2، طبع الجزائر.

وفي «القـرطاس»[70] أنه خـرج من مـراكش قـاصـدًا رباط الفـتح، فـدخله أول يوم من شعبان، سنة خمس وسبعين وستمائة (1276/675).

وأقام به وكتب إلى الأشياخ والقبائل من بني مرين وسائر العرب يستنفرهم للجهاد، فتثاقلوا عليه، فلم يزل يحرضـهم، وهم يلوذون بالأعذار وَيَتَثَاقَلُونَ إلى أن دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة (1276/675).

فلمَّا تثاقل الناس عن الجهاد، ورأى تثبُّطهم عن الجواز جَدَّ بنفسه وخاصته، فخرج من رباط الفتح في أول يوم من شهر المحرم فاتح سنة ست وسبعين وستمائة (فاتح محرم 676/ 4 يونيه 1277).

فسـار حتى وصل قصـر المجاز فجاز منه إلى جبل طريق في الخامس والعشرين من المحرم المذكور، وكانت إقامته بالرباط نحو خمسة أشهر.

وبعد الفراغ من هذه الغزوة، رجع إلى المغرب فاتح سنة سبع وسبعين وستمائة (677/ 1278)، فحلَّ بعاصمته بفاس، وعَيَّد بها عيد الفطر.

وفي جمـادى الأخيـرة من سنة ثلاث وثمـانين وسـتمـائة (1284/683)، شدَّ الرحلة إلى مراكش، ورجع منه إلى رباط الفتح في شعبان من سنته، فصام به رمضان.

وإلى ذلك يشير أبو فارس، عبد العزيز الملزوزي في رجزه : «نظم السلوك» بقوله : [71].

فَـخَـرَجَ الْمَنْصُــورُ في جُـمَــادَى وَسَــارَ عَنْ مُــرَّاكُــشٍ وَحَــادَا
فَحَلَّ في قَصْرِ سَلاَ في شَعْبَـانْ إِذْ كَـانَ مَشْـغُـولاً بِـأَمْـرِ الْـعُـرْبَـانْ

ووفد عليـه أثناء إقامـته برباط الفتح أشياخ بلاد المـغرب وفقـهاؤه برسم السـلام عليه والتَّهْنِئَة بصحَّته لأنه كان مريضا.

وفي آخر شوال، بارح رباط الفتح إلى قصر المجاز، ومنه جاز إلى الجزيرة الخضراء.

قال ابن خلدون :[72]

70) ص 233، طبع فاس.

71) ص 139، المطبعة الملكية بالرباط، وابن خلدون ص 299 من ج 2، طبع الجزائر.

72) نفس المصدر ونفس الجزء، ص 300.

"لمّا عزم أمير المسلمين، أبو يوسف، يعقوب، على الإجازة إلى الأندلس للمرة الرابعة، إستعرض جنوده وحاشيته، وأزاح عِلَلَهُم، وبعث في قبائل المغرب بالنفير، ونهض من مراكش في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وستمائة (1283/683)، واحتلَّ برباط الفتح منتصف شعبان، فقضى به صومه ونسكه، ثم ارتحل إلى قصر معمورة، وجاز إلى الأندلس غرة صفر من سنة أربع وثمانين وستمائة(1285/684).

وفي أثناء هذه الغزوة أدركه أجله، فتوفى بقصره بالجزيرة الخضراء من الأندلس، ضُحَى يوم الثلاثاء، الثاني والعشرين من المحرم فاتح سنة خمس وثمانين وستمائة (22 محرم 20/685 مارس 1286) رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

السلطان أبو يعقوب يوسف المريني برباط الفتح

لمّا توفي السلطان أبو يوسف، يعقوب المنصور، خلفه ولده ووليُّ عهده المُبايَع له برباط الفتح، كما تقدم، أبو يعقوب يوسف.

وقد تنقَّل هذا السلطان في مملكته المغربية من فاس ومراكش، وفي أثناء تنقلاته بين الشمال والجنوب، كان بالعدوتين : سلا ورباط الفتح، سنة سبع وثمانين وستمائة (687/ 1288)[73] لمّا وفد عليه من الأندلس أبو الحسن بن إسحاق بن إشْقَيْلولَة بعدما أسلم وادي ءَاشٍ لابن الأحمر، فلقيه بالعدوتين، وأعطاه القصر الكبير وأعماله طُعْمَةً سَوَّغه إياها، فلم تزل ولايته متوارثة في بنيه حتى انقرضوا آخر دولة بني مرين[74].

السلطان أبو ثابت عامر بن عبد الله ابن يوسف المريني برباط الفتح

لمّا توفي السلطان أبو يعقوب، يوسف بن أبي يوسف يعقوب المريني بظاهر تلمسان، خلفه السلطان أبو ثابت، عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، فارتحل من تلمسان إلى فاس، ثم توجَّه لمراكش.

---

73) ابن خلدون، ص 309 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا» ص 33 من ج 2، طبع القاهرة. وص 70 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

74) ابن خلدون، ص 346 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا» ص 45 من ج 2، طبع القاهرة. وص 70 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

ومنه جاء إلى رباط الفتح، فدخله في السابع والعشرين من رمضان سنة سبع وسبعمائة (1308/707)، وعيَّد به عيد الفطر، وقتل به ثلاثين من فُتَّاك العرب المتَّهمين بالحرابة وقطع الطريق، وصلبهم على أسوار العدوتين، ثم ارتحل من الرباط منتصف شوال من السنة المذكورة لغزو عرب رياح...(74م).

السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق برباط الفتح

لمَّا ءالت السلطنة إلى أبي سعيد، عثمان بن يعقوب، بن عبد الحق، بعد وفاة السلطان أبي الربيع، سليمان بن عامر بن عبد الله، بن يوسف، بن يعقوب، بن عبد الحق بظاهر تازة ليلة الأربعاء منسلخ جمادى الآخرة سنة عشر وسبعمائة (جمادى الآخرة 710/نونبر 1310) ارتحل إلى فاس، وبمجرد دخوله إليها، وتمهيد شؤون الدولة، خرج منها في ذي القعدة من السنة المذكورة إلى رباط الفتح لتفقد الأحوال، والنظر في مصالح الرعية، وإنشاء الأساطيل بدار الصناعة السلاوية برسم جهاد الفرنج، وأقام به سنة عيد الأضحى، وأصلح الأحوال، ونظم الأمور، وانقلب راجعا إلى فاس(75).

السلطان أبو عنان برباط الفتح

تردَّد السلطان أبو عنان، فارس بن أبي الحسن، أربع مرات إلى العدوتين سلا ورباط الفتح.

- **الأولى** : في رجب سنة خمسين وسبعمائة (رجب 750/ أكتوبر 1349) لحضور جنازة والدته شمس الضُّحى، لمَّا أُقْبِرَتْ بشالة، كما سيأتي، وهو إذ ذاك ثائر على أبيه أبي الحسن الذي كان ملتجئاً إلى هنتاتة.(76)

74م) نفس المصدر المذكور في هامش (73).

75) ابن خلدون، ص 356 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا» ص 50 من ج 2، طبع القاهرة. وص 103 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

76) «الاستقصا»، ص 89 من ج 2، طبع القاهرة. وص 175 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

– **والثانية** : في جمادى الأولى سنة اثنين وخمسين وسبعمائة (1351/752)، لمَّا جاء صحبة شِلْوِ أبيه أبي الحسن لدفنه بشالة[77].

– **والثالثة** : نصَّ عليها الشيخ أبو عبد الله، محمد بن عبد العظيم الأزموري في كتابه المسمى : «بهجة الناظرين، وأنس الحاضرين، في مناقب صلحاء بني امغار، أصحاب تيط عين الفطر»[78]، أثناء الكلام على صحة نسبهم، وذكر أن السلطان أبا عنان كان برباط الفتح نازلاً بالقصر بدار العادل، سنة أربع وخمسين وسبعمائة (1353/754)، وعقد جمعاً حضره خلق كثير من الشرفاء والصلحاء، وأجمعوا على صحة نسبهم الحسني الفاطمي المحمدي...

– **والرابعة** : لمَّا شدَّ الرحلة إلى سلا سنة سبع وخمسين وسبعمائة (1356/757) لزيارة شيخها أبي العباس، أحمد بن عاشر، دفينها، ووقف ببابه مراراً فلم يأذن له، وتبعه يوم الجمعة على رجليه، والناس ينظرون إليه، وهو لا ينظره، فقال : "مُنعنا من هذا الولي".

ثم أرسل إليه ولده مستعطفا، فأجابه بما قطع رجاءه من لقائه فحزن لذلك، وكتب له كتابا وعظه فيه وذَكَّرَه، فسُرَّ بذلك الكتاب، وحزن لِمَا فاته من الاجتماع بالشيخ – رحمه الله –[79].

اتخاذ رباط الفتح رباطا للجيوش المرينية في حروبها الداخلية

لمَّا حوَّل المرينيون وجههم عن الأندلس، بعد معركة ريوسالدو "Rio Salado"، وهي معركة طريف التي محَّص الله فيها المسلمين في عهد السلطان أبي الحسن، تغافلوا عن رباط الفتح من الناحية الجهادية بالديار الأندلسية، ولأنَّ موقعه الجغرافي لا يُخوِّله أن تكون له أهمية حربية، في حروبهم بإفريقية الشمالية، مع بني عبد الواد بتلمسان، والحفصيين بتونس[80].

77) نفس المصدر، ص 85 من ج نفسه والطبعة نفسها. وص 163 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

78) «تحفة الزائر في مناقب ابن عاشر» للحافي، و«كشف العرين» لأبي العباس الناصري، ص 20 كلاهما من مخطوطات الخزانة الناصرية السلاوية.

79) ورقة 24 مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية، من «تحفة الزائر».

80) «تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 181.

ومع ذلك، فقد بقيت أهميته السّتراتيجية، في حروبهم الداخلية، بجنوب المغرب والناحية المراكشية.

وفي إعجاز دولتهم، لمّا بويع السلطان المنتصر بالله، أبو العباس، أحمد بن أبي سالم، سنة ست وسبعين وسبعمائة (1374/776) واشترط عليه الأمير عبد الرحمان بن علي بن أبي يفلوسن، ولايته على مراكش، وعقد له عليها على كُرْه، خشية أن تفترق الكلمة.

فانقسمت مملكة المغرب الأقصى يومئذ على نصفين، وكان الحد الفاصل بين القسمين، ثغر أزمُّور، فكانت في إيالة صاحب فاس، وما وراءها إلى مراكش، في إيالة صاحب مراكش.

ثم كانت بينهما بعد ذلك منازعات ومناقضات، ومسالمات، ومحاربات، يطول جلبها. (81)

وكانت جيوش الفريقين تلتقي غالباً على شواطئ المحيط.

وفي حدود سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (1376/778) إستولى الأمير عبد الرحمان بن أبي يفلوسن على أزمور، وضمّها إلى ولايته، فتحرّك حينئذ سلطان فاس، أبو العباس، أحمد المستنصر بالله، وجاء من فاس إلى العدوتين، ونزل بجيوشه على مصب أبي رقراق برباط الفتح، ومنه سيّرها لملاقاة خصمه، وأرغمه على الرجوع إلى الجنوب.

وفي السنة التي بعدها، أعاد الأمير عبد الرحمان الكَرَّةَ على ولاية السلطان أبي العباس، وتقدّم مولاه منصور إلى أن وصل إلى أنفا.

فانتقل السلطان أبو العباس، في عساكره من فاس، إلى العدوتين، وخرجت جيوشه التي كانت رابضة مرابطة برباط الفتح على الضفة الجنوبية لمصب النهر في البحر، وأجبرته على الرجوع لمراكش.

ونزع إلى السلطان أبي العباس، وهو مقيم بالعدوتين السلاوية والرباطية، جماعة من أعيان أصحاب الأمير عبد الرحمان، فتقبّلهم، وأحسن كرامتهم، وارتحل إلى عاصمته فاس.(82)

---

81) ابن خلدون، ص 500 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 39-35 ج 2. طبع القاهرة. وص 79-73 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

82) ابن خلدون، ص 513-514-515 ج 2، طبع الجزائر.

ثم نكث الأمير عبد الرحمان عهده، واتّصلت الحروب بينه بين السلطان أبي العباس إلى منتصف سنة أربع وثمانين وسبعمائة (1382/784).

وحينئذ إضْطرّ السلطان أبو العباس إلى شدّ الرحلة إليه من فاس إلى مراكش ماراً على رباط الفتح، وحاصره بقصبتها تسعة أشهر إلى أن ظفر به، وقضى عليه وعلى ولديه، وانقلب راجعا إلى عاصمته.

ثم حدثت حوادث وفتن بين أمراء ءال مرين المتطاحنين على الملك والرياسة، نشأ عنها خلع السلطان أبي العباس، وتغريبه إلى الأندلس، سنة ست وسبعين وسبعمائة (1384/776).[83]

وبقي رهينا عند ابن الأحمر إلى سنة تسع وثمانين وسبعمائة (1387/789) فسرَّحه حينئذ، وبعثه إلى المغرب مُشغِّباً على سلطانه ومطالباً بملكه، وبمجرد استقراره بالمغرب، وجّه ولده الأمير محمد المنتصر في البحر من سبتة إلى العدوتين، سلا ورباط الفتح، داعياً لأبيه، وساعياً في مصلحته، واستوزر له عبد الحق بن الحسن بن يوسف، فأقام بهما منفّذا أوامر أبيه ومنتهزاً الفرصة فيمن يعاديه، إلى أن تمَّ له الأمر وولاّه على مراكش فانصرف إليها.[84]

ولمّا سقطت سبتة في يد البرتغال في جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة وثمانمائة (جمادى الآخرة 818/ غشت 1415) في عهد السلطان أبي سعيد، عثمان بن أبي العباس، وامتعض المسلمون لسقوطها بالأندلس والمغرب، وأراد أمراء ناحية الجنوب المتمسّكون بطاعة سلطان فاس مَدَّ يَد الإعانة إليه للدفاع عنها لم يتمكّنوا من الوصول إليه لقيام الفتنة بأنحاء المغرب، وعدم الأمن في الطرق الداخلية، فكانوا يتنكّبون المرور على تادلا والأطلس، ويسلكون طريق الشاطئ، ويمرّون بالعدوتين رباط الفتح وسلا، ويقيمون بهما لياليا وأياما، ذهاباً وإيابا، وبذلك حدث بعض رواج ونمو في الحالتين : الاجتماعية والاقتصادية - موقتا - بهما في ذلك العهد.[85]

وبعد ولاية السلطان عبد الحق بن أبي سعيد - آخر ملوك بني مرين - سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة (1420/823)، كما في «جذوة الاقتباس»[86]، إزدادت الدولة في عهده

83) ابن خلدون، ص 520 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 136 ج 2. طبع القاهرة. وص 269-270 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

84) ابن خلدون، ص 530 من ج 2، طبع الجزائر،

85) أوكيسط كور (Auguste Cour)، «بني وطّاس»، ص 43.

86) ص 289، طبع فاس.

ضعفاً وانحلالا، وسيطر عليه الوزراء والحُجَّاب لصغر سنه وعجزه، ومنهم حاجبه الوزير، أبو زكرياء، يحيى بن عمر بن زيان الوطاسي، الذي كان ولياً على العدوتين سلا ورباط الفتح في التاريخ المذكور، فألزمهما الاعتراف به، والتزام طاعته، وقاوم الثوار الذين كانوا ينازعونه في الأمر، وبوجوده ثبتتْ سلطة بني مرين على ضفتي نهر أبي رقراق في ذلك العهد الذي طبَّقت الفتن فيه أرجاء المغرب، وتكالب العدو على احتلال مراسيه وشواطئه[87]

وفي «جذوة الاقتباس»[88] و«دُرَّة الحجال»[89] و«الاستقصا»[90] أنَّ هذا الوزير غزا الشاوية سنة ست وأربعين وثمانمائة (1442/846)، وكانوا تمردوا على الدولة، وعضَّل داؤهم، فَفَلَّ جَمْعَهم، وخَرَّبَ منازلهم.

وكان اعتماده في هذه الحركة على قصبة رباط الفتح التي كان يجمع بها جيوشه، ويصدر منها سراياه وبعوثه.

كما أنَّ ثائراً آخر من ثوار ذلك العصر الطامحين للملك، وهو أحمد اللحياني الورتاجنِّي الذي كان متغلِّباً على مكناسة الزيتون ما بين سنتي عشرين وثمانمائة (1417/820) وواحد وأربعين وثمانمائة (841 /1457)، زحف أثناء هذه المُدَّة إلى مصب أبي رقراق، وحاول الاستيلاء عليه، ولكنه لم يتمكَّن من ذلك، ورجع على عقبه، بعدما خرَّب شالَّة ونهبها، وفعل بها الأفاعيل، حسبما سياتي تفصيله في فصل خراب شالة.[91]

وهكذا كان سلاطين بني مرين يتردَّدون على رباط الفتح، ويقيمون به حينا بعد حين، كلَّما اضطروا إلى ذلك، إمَّا لتجهيز جيش إلى جنوب المغرب أو الأندلس قبل إعراضهم عنه، أو لدفن سلطان من سلاطينهم، أو أميرة أو أمير من أمرائهم، وحضور جنازتها أو جنازته بمقبرتهم بشالة، ولا ينظرون إليه بالعين التي كان ينظر إليه بها عبد المومن، ويوسف، ويعقوب، والناصر.. من الموحدين، لأنهم جاؤوا من شمال المغرب وعاصمتهم فاس بشماله.

قال كايِّي "Caillé" في تاريخه :[92]

"وبعد هذه المدة سكت المؤرخون عن رباط الفتح وحوادثه نحو خمسين سنة".

---

87) «تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 182.

88) ص 337، طبع فاس.

89) ص 493، طبع الرباط.

90) ص 159 من ج 2، طبع القاهرة. وص 326 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة

91) «تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 182.

92) نفس المصدر ونفس الصفحة.

ولعلَّه كان يتمتع بشيء من السكون والاطمئنان بالنِّسبة لغيره من مدن مغربية أخرى كفاس ومراكش مثلا، ولم يحدث فيه شيء يستوجب الذكر إلى أواسط دولة بني وطَّاس كما سيأتي.

عمران رباط الفتح في عهد بني مرين

كان عمران رباط الفتح في عهد المنصور وقبله، وبُعَيْدَ وفاته، منحصراً ومنتشراً داخل القصبة وحولها، وما اتَّصل بها من المدينة الحالية، إلى حسَّان وما وراءه من الناحية المشرفة على الوادي المعروفة بالمنتزه.

وهو ما ينطبق عليه ما وصفه به صاحب «الاستبصار» من كونه كانت به منتزهات وقصور السَّادات.

أما باقي داخل الأسوار الموحدية، فقد كان فراغاً واسعاً تعمره العساكر المارَّة والجيوش الجرارة التي كانت تجتمع فيه بقصد الغزو والجهاد في سبيل الله بالأندلس ذهاباً وإيابا.

وكان يَنْضَمُّ إلى هذه الجيوش من يأتي إليه من المرتزقة الراغبين في الربح معها والملبِّين لدعوة المنصور بما ضَمِنَه لهم من العطاء من مال الدولة.

واستمر الحال على ذلك إلى آخر دولة ولده الناصر لمَّا فَتَرَت الحركة الجهادية، وانقطع العطاء والتعويض الذي كان مفروضا من قبل الخليفة، وظهرت علامات الارتباك والتدهور في السياسة الداخلية والخارجية في الدولة الموحدية.

ولمَّا دالت الدولة إلى بني مرين، واستولوا على سلا والقصبة، لم يتغيَّر عمران الرباط ولم يتسع نطاقه.

وكان أهم شارع فيه هو الشارع المعروف الآن بشارع القناصل، لأنهم سكنوه ونزلوا به بعد ذلك فسُمي بهم، وهو يمتد من ساحة سوق الغزْل ومدرسة الوداية اليوم، التي هي المدرسة الرشيدية إلى مدخل سوق السبّاط وباب وقّاصة المؤدي إلى الملاَّح.

وساحةُ سوق الغزْل عُرفت بهذا الإسم لأنها كانت فيما سلف مَحَلَّ رَوَجَانٍ وبيعِ الصُّوفِ والغزْلِ ونحوِ ذلك.

والظاهرُ أنَّ عُمرانَ المدينةِ في عهد بني مرين كان متكتِّلاً في الناحية الوُسطى منها، ويشتمل على زقاق سيدي الحاج الضاوي، وسقاية ابن المكّي، وحمّام العلو، والدُّورة، وشارع ا لجزاء، وسيدي فاتح، وسيدي العكّاري، والسُّويقة إلى سوق السبّاط، حيث الجامعُ الكبير، إلى أن يَتَّصِلَ بوقّاصة والناحية المُطلة على الوادي، التي أُحدث بها الملاّح بعد ذلك كما سيأتي.

ولعلَّ هذه العمارة وُجدت من ذاتها بحسب الاحتياج إليها عند مرور الجيوش بالرباط، أو مرور الملوك منه، لأنَّ بني مرين لم يهتمُّوا به اهتماماً يوجب انتشار العمران به كما كان يراه مؤسسه ومنشئه، أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي.

وإنْ كان ملوكهم تردَّدوا عليه أثناء انتقالاتهم وحركاتهم في حروبهم بين الشمال والجنوب، ونزلت به جيوشهم في بعض الأحيان في انتظار ذهابها للجهاد والمقاومة بالأندلس، قبل انقطاع مددهم الجهادي عنه بعد أبي الحسن أو للحروب الداخلية بالحوز والناحية المراكشية، حسبما سبقت الإشارة إليه في محلها، فإنه لم ينشأ عن ذلك عمران يستحق التنويه والإعجاب.

وزيادة على هذا، فقد كان في أول عهد بني مرين، ميداناً لحروب عاتية كانت بينهم وبين الموحدين في زمن اليعقوبيين وبعدهما.

ونشأ عن هذه الحروب كما قال الحسن الوزّان (Léon l'Africain) في جغرافيته الوصفية[93] تَنَاقُضٌ، وخراب في عمرانه، بحيث لم يبق من المدينة المنصورية إلاَّ نحو العُشْرِ، وتهدّمت ساقية عين غبولة وتقاطعت مجاريها، وربَّما في هذه الحروب، تحطَّم الجسر الذي كان على الوادي رابطاً بين الضفتين، وجامعاً بين العدوتين، وصلةَ وصْل بين المدينتين.

قلت : ولكن مع هذا كله، فإنَّ الآثار الموحدية، والأسوار العادية، والقصور العبد المومنية، بالقصبة المهدية، ظلت شامخة بأنفها، راسخة في عُلوِّها، معبِّرة عن سالف مجدها وعزِّها، منتظرة إقبال الأيام عليها، بعد إدْبارها عنها، لمَّا ياتي الله بمنقذها، وباعثها من أجداثها، ومجدِّدها بعد عفائها، ولو بعد أعصار متطاولة، وأجيال متعاقبة متناسخة متناقلة.

---

93) ص 165 من ج 2، طبع باريس، سنة 1376/1956.

وهذا هو الرباط الذي زاره ابن الخطيب في ذلك العهد، وعبَّر عنه في مقاماته البلدانية بقوله : [94]

"وقابلها (يعني سلا) الرباط، الذي ظهر به من المنصور الاغتباط، حيث القصبة وَالسّاباط، ووقع منه بنظره الاعتباط، فاتّسع الخرق وعظم الاشتطاط، وبعد الكمال يكون الانحطاط...". اهـ.

فقد تعاقبت السنون، وتوالت القرون، ووقع ردُّ الفعل، فتحقَّقت الظنون، وظهر رباط الفتح، في عصرنا هذا، متجلِّياً في ميدان الرقي والحضارة، في أحسن زي وأجمل شارة، وطلع في أفقه طالع السعد والأنس والانبساط، ما بين القصبة والسّاباط، وحُقَّ لمنصوره الآن، أنْ يظهرَ به الاغتباطُ، ويَقَعَ منه بنظره الاعتباط، ولا يتَّسعَ الخرقُ ويعظمَ الاشتطاطُ، وبعد هذا الكمال، لا يكون إن شاء الله الانحطاط.

94) «مشاهدات ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس»، ص 105، طبع الإسكندرية.

المبحث الثاني

آثار بني مرين برباط الفتح

إذا استعرضنا آثار بني مرين، وما أسَّسوه من المدارس والمساجد والمعاهد الدينية، بفاس، ومكناس، ومراكش، وسلا، بل وبتلمسان، وغيرها من البلدان، وقابلناه بما يُنسب إليهم منها برباط الفتح، نجدها قليلة جدا.

وذلك لأنَّ وجهتهم كانت منصرفة عنه كما بَيَّنَّاه فيما سبق، إلاَّ لضرورة ملزومة، ولعلَّة محتومة، في أوقات معلومة.

ولا غرابة في ذلك، لأنَّ الآثار نتيجةُ انتشار العمران، وتزاحم السكان، في سائر الأمصار والبلدان.

ولهذا، نراهم لم يشيِّدوا برباط الفتح قصراً من القصور السلطانية، كما فعلوه بعاصمتهم الفاسية، وإنما كانوا كلما طرقوا ساحته، نزلوا بالقصور الموحدية، وتحصَّنوا بالحصون والأسوار والأبراج اليعقوبية. وأهمُّ ما يُنسب إليهم من الآثار بهذه الحضرة الرباطية :

* الجامع الكبير بسوق السبّاط بالرباط[95]

يقع الجامع الكبير برباط الفتح، على رأس الزاوية التي يلتقي فيها سوق السبّاط بزقاق شالَّة عند اتصاله بشارع السويقة.

95) اعتمدنا في هذا الفصل على بعض ما كتبه كابي (Caillé) في تاريخه، وخصوصا فيما يرجع للأوصاف الفنية والهندسية.

ويُحَدُّ اليوم من واجهة القبلة بمقبرة إسلامية قديمة عافية تمتد منه إلى السور الأندلسي المفتوح فيه بابُ شالة، بإزاء الضريح المنسوب لسيدي علي بورحَى.

وعن يمين القبلة بزقاق شالة.

وعن يسارها بعِدَّة دور للسكنى، وبزاوية سيدي التلمساني المفتوح بابها الصغير في أحد أركانه.

وأمامها، بسوق السبَّاط.

وتاريخ هذا المسجد وإيجاده الأولي وتأسيسه غامض جدا.

وقد نقل كايّي "Caillé" في «تاريخه»[96] أسطورة قال إنها كانت شائعة بالرباط، مضمنها :

أنَّ أصله وابتداءه يرجع إلى أن امرأة كانت تطوعت ببنائه، ولما ماتت دفنت بمحرابه، ولا يُعرف تاريخ هذه المرأة، ولا اسمها ولا زمنها.

ثم قال : ولمَّا جُدد المحراب وأُعيد بناؤه، لم يُعثر فيه على أثر لهذا القبر المزعوم.

وتعقَّبه بأنَّ هذه الأسطورة، قلَّد فيها راويها، ما نُقل عن القرويين بفاس، الذي يرجع تارخ تأسيسه إلى فاطمة أم البنين.

وأمَّا ما كانت ادَّعته البعثة العلمية الفرنسية المغربية في مقال لها : (Mission Scientifique au Maroc) نُشر في العدد التاسع من مجلة فرانس ماروك الصادر في 15 شتنبر سنة 28/1917 ذي القعدة عام 1335 من أنَّ مؤسسه هو عبد الحق المريني أول أمراء بني مرين، فلا يُعتدُّ به، لأنَّه لا يرتكز على أساس من الصحة.

وقد حذفته البعثة المذكورة فيما كتبته بعد ذلك عن الرباط سنة (1336/1918) في كتاب «المدن والقبائل المغربية» قسم الرباط وناحيته[97].

قلت : يكفي في إبطال هذه الدعوى أنَّ عبد الحق المذكور، كان مجرد أمير في قومه وقبيله في ابتداء أمره، ولم يصل بنو مرين إلى مصب أبي رقراق إلاَّ في زمن ولده الأمير أبي بكر، ولم يتم استيلاؤهم على العدوتين : سلا ورباط الفتح إلاَّ في زمن أخيه السلطان، أبي يوسف، يعقوب المنصور، كما تقدم.

---

96) «تاريخ الرباط» لكايي، ص 185.

97) نفس المصدر، ص 186.

ولا يُتصور أن يؤسس عبد الحق مسجداً بالرباط، وهو بعيد عنه، وليس تحت نفوذه وإمْرته.

وعلى كل حال، فهو المسجد الوحيد الذي يُنسب إلى بني مرين برباط الفتح، ويقال إنه بنى في زمنهم، ولا نعلم على التحقيق تاريخ تأسيسه، ولا اسم السلطان الذي أسَّسه، أو بُني في عهده، أو أمر به، ولم نقف على من نصَّ على ذلك صراحة من المؤرخين، الذين كتبوا في تاريخ بني مرين، واعتنوا بتسجيل ما خلَّدوه من الآثار بفاس، ومكناس، وسلا، ومراكش، وتلمسان، وغيرها من المدن بالمغربين الأقصى والأوسط.

وزيادة على هذا، فإنه لم يُعثر على أي كتابة أو تاريخ منقوش على باب من أبوابه، أو جدار من جدرانه، أو سارية من سواريه، تتضمن الإشارة إلى تاريخ تأسيسه وإيجاده.

ونحن مع هذا كله، نعلم أنه ليس من عمل الموحدين، لأنه مخالف في هيأته وشكله لهيأة وشكل المساجد الموحدية، فلا مشابهة بينه وبين مسجد الكتبيين بمراكش، ولا مسجد القصبة قبل تجديده بالرباط، ولا المسجد الأعظم بسلا.

ولم يبق إلاَّ ترجيح القول بأنه وُجد في عهد بني مرين، ولذلك نُسب إليهم، ولا يمكن أن تكون هذه النسبة المقولة المنقولة منذ عدة أجيال وقرون عارية عن الصحة، لأنَّها متواترة، والتواتر كما عند الأصوليين : أخبار جماعة لا يمكن تواطؤهم عن الكذب.

وعليه، فإذا قلنا إنه وُجد في عهد بني مرين، فإنَّ سكان رباط الفتح في عهد الدولة الموحدية، وأول الدولة المرينية، كانوا مكتفين بمسجد القصبة الذي هو العتيق، لتكتل العمران بها وحولها.

ولمَّا امتدَّ البناء منها إلى وسط المدينة القديمة، حسب اتِّساع نطاق العمران، اضطر الناس إلى إحداث مسجد آخر للقيام بشعائرهم الدينية فيه، فأحدثوا هذا المسجد للضرورة المذكورة.

والظاهر أنه كان صغيراً في أول عهده، على قدر الحاجة التي أُنشئ من أجلها، وهو ما حقَّقه المهندسون المعماريون، والفنيون الأركيولوجيون من درس مواد بنائه، وزياداته المتلاحقة، وبعض حناياه وسواريه غير المتناسقة، ومقابلة بعضها ببعض، كما سيأتي مزيد بيانه.

ولا نعلم هل كانت به خطبة الجمعة في ذلك العهد أم لا، ولا متى أحدثت به، والغالب على الظن أنه لم تُحدث به الخطبة إلاَّ بعد الهجرة الأندلسية إلى الرباط، لمَّا كثرت العمارة به وازدحم فيه السكان.

وممَّا استدلَّ به الفنِّيُّونَ على أنه مريني، وكان في أول عهده على طراز مريني، اختلاف حناياه وأقواسه وأروقته وسواريه، طولاً وعرضا، وقصراً ورقة وغلظا.

قالوا : وقد كان في أول عهده يشتمل على الأروقة الخمسة الوسطى، وزيد فيه بعد ذلك من جانبيه عدة دور وأملاك خاصة لأجل توسعته، لمَّا ضاق عن المصلين.

وإذا اعتبرنا هذا البناء الأصلي الأولي، نجده شبيهاً بالمساجد التي أُسست في عهد بني مرين، وخصوصاً مسجد العبَّاد بتلمسان.

وممَّا يدل على أقدميته ومرينيته أنَّ القوس الكبير المفصَّص الذي أمام المحراب، هو في شكله عَيْنُ الأقواس التي استُعْملت أمام محاريب المساجد التي شُيدت في عهد المرابطين والموحدين، وبها جرى العمل في مساجد بني مرين، وخصوصاً بالجامع الكبير بفاس الجديد، ولم يجر العمل بذلك غالباً فيما بُني بعدهم من المساجد.

وزيادة على هذا، فإنَّ نفس الزخرفة والزينة المحلَّى بها هذا القوس، هي عين الزخرفة والزينة الموجودة بباب المدرسة العنانية بمكناس، ومنبر المدرسة العنانية أيضاً بفاس.

ولا يخفى أنَّ وجوده أمام المرستان العزيزي المريني، والسقاية المرينية بزقاق شالة، أوْ وجودهما أمامه، فيه ترجيح لوجوده وقت وجودهما، أو ما يقرب منه.

ولعلَّ المرينيين كانوا وجَّهوا عنايتهم لذلك الحي من المدينة، لأنه محْور العمارة، ومركز التجارة، لاتِّصال الأسواق بعضها ببعض في زمنهم، كما هي الحالة اليوم، لأن المساجد تُبنى في وسط الأحياء الكبرى والأسواق العامرة، تسهيلا على الناس في الوصول إليها، وترغيباً في عمارتها، وأداء الصلوات الخمس والجماعة والجمعة، في أوقاتها الموقوتة، وصفتها المحدودة المنعوتة.

هذا، وقد جُدد هذا المسجد منذ إنشائه مرارا، وأُلحقت به إلحاقات، وزيدت فيه زيادات، وأُدخلت عليه تغييرات وإصلاحات، حسبما اقتضته المصلحة، وأوجبه اتِّصال البناء الناشئ عن تضاعف السكان، وامتداد نطاق العمران.

ولعلَّ أول تجديد أو زيادة أُلحقت به، كانت من عمل المهاجرين الأندلسيين لمَّا استقرُّوا بالرباط، ومزجوا الآثار المرينية المغربية بالآثار الأندلسية الغرناطية، كما يُلاحَظ ذلك ويُشاهَد في هذا المسجد، وفي عدة آثار أخرى برباط الفتح.

ثم إنَّ ملوك دولتنا الشريفة العلوية مدَّ الله في ظلها، كلهم شاركوا في تجديده وتوسيعه، كل بحسبه، وفي زمنه، وبمقتضى الحاجة الداعية إليه.

ومنهم سيدي محمد بن عبد الله، وولده المولى سليمان بعده.

وقد أشار أبو عبد الله الضُّعَيِّف في مجموعة مقيداته التاريخية[98] إلى اهتمامه به حتى إنَّه وجَّه أحد خُدَّامه للرباط سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف (1231/1816) للمذاكرة مع المعلم الحسن السوداني، والحاج قاسم الفاسي الرباطي في الاصلاحات التي ستُجرى به، وهو الذي جدد أحد أبوابه.

وتوجد مشابهة كبيرة بينه وبين المسجد المنسوب إليه بحي السويقة، خصوصاً في الأبواب ومجاري المياه وهذا يرجح أنه زاد فيه زيادة كبيرة، وألحق به إلحاقات، وأضاف إلى جوانبه مضافات، صيَّرته مسجداً يستحق أن يوصف بالكبير.

وقد كان المولى سليمان – رحمه الله –، يوليه اهتماماً كبيرا، وإليه يرجع فضل توسعته، وتجديد سقوفه وبرشلاته، ويقصد إقامة صلاة الجمعة به إذا كان بالرباط.

وحبَّسَ على الحزَّابين به وبالمسجد الأعظم بسلا، سانية الباشا الغازي الشاوي التي على البحر، كما عند الضعيف.[99]

وأشركه في الحُبُس الإسماعيلي في مداخيل الحوت الشابل الذي كان خاصّاً بإصلاح مجاري ماء المسجد الأعظم بسلا، وجعله إنصافاً بينهما.

وفي عهد السلطان المولى الحسن الأول رحمه الله، جُدد بابه الكبير المفتوح بسوق السبَّاط، وزُيِّن بالنقوش الجبسية، وكُتب عليه :

"ببركة محمد، جُدد هذا الباب في سنة تسع وتسعين ومائتين وألف (1299/1882)".

---

98) ص 297 من ج 3، مخطوط الخزانة لناصرية السلاوية.

99) ص 245 من ج 3، مخطوط الخزانة لناصرية السلاوية.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف (1915/1333) قامت وزارة الأوقاف بأمر من السلطان المرحوم المولى يوسف بإجراء إصلاحات مهمة به، فجددت سقوفه وبرشلاته، ورمِّمت ما تداعى إلى السقوط من جوانبه وأركانه.

ثم أعيد إليه الإصلاح والتجديد، سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف (1937/1355)، وشمل واجهة قبلته، وبعض أبوابه وصحنه.

وفي عهد جلالة الملك أبي عبد الله، محمد الخامس، - قدس الله روحه -، جُددت واجهة محرابه، وما اتَّصل بها بعدة أنواع من النقوش المتشابكة الجبسية، وكتابات مزخرفة، لكنها لا تتضمن شيئا من تاريخ بنائه.

وأمَّا المنار الموجود به الآن، المفتوح بابه في الصحن، فهو غير المنار القديم، وقد تمَّ تجديده وتحسينه أيضاً سنة ثمان وخمسين ثلاثمائة وألف (1939/1358)، وطوله من سطح الأرض إلى نهايته، ثلاثة وثلاثون متراً وخمسة عشر سنتمترا (33.15 م)

وقد كان المنار الذي قبله لا يتجاوز طوله سبعة وعشرين مترا، (27 م)، وله اتصال ببيت الموقت.

هذا ملخص تاريخ هذا المسجد وتطوره منذ وجوده إلى الآن.

وأما حالته اليوم :

فإنَّ مساحته تبلغ نحو ألف وثمانمائة متر مربع (1800 م^2)، غير مستقيمة التربيع، للانحراف الواقع في جوانبها وأركانها، لأنه لم يُبْنَ من أول مرة في بقعة خاصَّة به، وإنما زيد فيه وفي جوانبه وأركانه دور وبقع وأملاك أخرى كلَّما دعت الضرورة إلى توسيعه والزيادة فيه، كما تقدم.

وفي كل مرة كان المهندس أو المعلم المكلف ببنائه، يحرص كل الحرص على ألاَّ يضيِّع شبراً من البقعة التي تحت يده، ليكون هذا المسجد أكبر ما يمكن في ذلك الحي المعمور من المدينة.

وبهذا الاعتبار، وهذه المساحة يُعَدُّ اليوم أوسع وأفسح مسجد في رباط الفتح بعد جامع السنة.

وله ستة أبواب،

إثنان منها مفتوحان بسوق السبّاط، أهمها الباب الكبير المقابل للمحراب، ويليه باب المصرية، والباب الخاص بالنساء. وثلاثة أبواب أخرى مفتوحة بزقاق شالة.

ويشتمل على سبعة أروقة، بعضها أوسع أو أطول من بعض، وصحن واحد منحرف الأركان أيضا، تبلغ مساحته نحو مائتي متر وعشرة أمتار (210 $م^2$) مربعة مفروش كله بالزليج الفاخر الجميل الملون.

واقْتُطع من ركنه الشمالي الشرقي قطعة خصصت للنساء.

وبجانبيه عن يمين ويسار الباب الكبير المشروع إلى سوق السبّاط، خصّتان رخاميتان معدّتان لمن يريد تجديد الوضوء من المصلين، ويحيط بهما سُرادِق من العود المخروط المسقوف بالقرمود.

وأمّا الميضئة، فهي خارجة عنه، كميضئة جامع مولاي سليمان وميضئة الجامع الأعظم بسلا، وغيرهما من المساجد.

وأُلحق بواجهة قبلته أيضاً مُضافاته، كما هو الشأن في غيره من المساجد، كمقصورة الإمام والخطيب، وبيت المنبر، وبيت الجنائز، وخزانة المصاحف القرآنية.

وكانت به خزانة علمية تشتمل على كمية وافرة من المؤلفات النادرة المخطوطة من تحبيس السلطان المرحوم أبي عبد الله، سيدي محمد بن عبد الله، لمّا حبّس الكتب على جل مساجد المغرب.

ويقال إنّه لمّا كان السلطان المولى عبد الحفيظ - رحمه الله - برباط الفتح سنة ثلاثين وثلاثمائة وألف (1912/1330)، إستعار منها نحو ثلاثين ومائة مجلد (130) ثم ردُّها إلى نظارة الأحباس عند تنازله.

وقد أُلحقت هذه الكتب الآن بالخزانة العامّة بالرباط كوديعة محافظة عليها من الضياع والاضمحلال، وذلك سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف (1956/1376)، وأحدثت به وزارة الأحباس عِوَضاً عنها مكتبة أخرى مجاورة للباب المقابل للمارستان العزيزي الذي سياتي الكلام عليه بزقاق شالة.

وبنت لها أوّلاً قاعة خاصة متوسطة في الكبر، اقتطعتها من المقبرة الإسلامية المتصلة بالمسجد، ثم وسّعتها، وزادت فيها قاعات أخرى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف (1953/1373)، وزخرفتها بأنواع الزينة والرفوف والأدوات اللازمة لها، وزودتها بالكتب

المطبوعة المتنوعة، وجعلتها رهن إشارة المطالعين الباحثين من الطلبة، وخصَّصت لها محافظاً وقَيِّماً يقوم بشؤونها، تحت إشراف الخزانة العامة، وأطلقت عليها إسم «المكتبة الوطنية».

وقد بلغ عدد المؤلفات التي فيها الآن ما يقرب من تسعة آلاف ومائتين وأربعين مؤلفاً (9240)، ولا ينقطع زُوّارها، ومازالت في نمو وزيادة.

هذه حالة الجامع الكبير برباط الفتح في وقتنا هذا، وهو من أعمر مساجده وأبهاها، ينتابه في كل وقت - زيادة على المصلين - الطلبة والفقهاء والعلماء والوُعّاظ والمرشدون الذين ينتفع بهم الخاص والعام في دينهم ودنياهم، والله يهدي إلى سواء السبيل.

* المارستان العزيزي

من الأبنية التاريخية الأثرية القديمة برباط الفتح، التي تُنسب إلى بني مرين المارستان العزيزي.

وموقعه في القسم الشمالي من الجانب الغربي من زقاق باب شالة، قبالة الجامع الكبير.

ويُنسب إلى السلطان أبي فارس، عبد العزيز المريني.

وحيث كان في بني مرين سلطانان كل منهما اسمه عبد العزيز :

- الأول : عبد العزيز بن أبي الحسن، الذي تولى سنة سبع وستين وسبعمائة (767/ 1366)، وتوفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة (1372/774).

- والثاني : عبد العزيز، أبي العباس بن أبي سالم، تولى سنة ست وتسعين وسبعمائة (1393/796) وتوفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة (1396/799).

فلا نعلم من هو الذي يُنسب إليه هذا المارستان.

والذي نرجِّحه، أنَّه عبد العزيز الأول، لأنه طالت مدته، ورحل من فاس إلى مراكش مرتين :

- الأولى : لمحاربة الأمير، أبي الفضل، ابن أبي سالم الذي كان ثائراً بها عليه.

والثانية : لمحاربة عامر بن محمد الهنتاتي حتى ظفر به، وربَّما كانت جيوشه وولاته المتنقِّلون بين فاس ومراكش، يمرُّون برباط الفتح، وفي أثناء مرورهم وإقامتهم به، حدث بناء

هذا المارستان أو المدرسة على ما قيل، أو ربَّما كان أَمَرَ عبد العزيز ببنائه أو بنائها، لأننا لم نقف على من ذكر أنه دخل رباط الفتح أو نزل بساحته.

وأمَّا عبد العزيز الثاني بن أبي العباس، فقد كانت مدته قصيرة، ولم يُنقل عنه عمل مهم في الدولة، ولا أنَّه تحرَّك لناحية الجنوب، أو وصل إلى رباط الفتح.

وعليه، فبالنِّسبة لعبد العزيز الأول أرجح وأصح.

ويقال إنَّ هذا المارستان، كان في ابتداء أمره مدرسة قبل أن يصير مارستاناً، وكانت هذه المدرسة مضافة للمسجد كغيرها من المدارس المرينية حول المساجد بفاس، ومكناس، وسلا...

وهو عبارة عن ساحة مربَّعة، تحيط بها أروقة محمولة على سواري وحنايا وأقواس بسيطة، تشتمل على عدة بيوت صغيرة. ومجموع هذا البناء، شبيه في ذاته وهيأته ببناء المدارس المرينية، ولكن تنقصه الزخرفة وقاعة الصلاة.

يقول الفنِّيون من المهندسين والباحثين في الآثار القديمة وتمييز خصائصها، ومقابلة بعضها ببعض إنَّ بناء هذا المارستان الموجود اليوم، مطبوع بالطابع العلوي، ولا مشابهة بينه وبين المعاهد الدينية المرينية[100].

ونقول : لعلَّ أصله كان مرينيا، وأعيد بناؤه، فطبع بالطابع العلوي، لأنَّ النسبة المرينية عالقة به، لاسيما وهو مجاور لأثر مريني، وهو السقاية التي سنتحدَّث عنها في الفصل الآتي بعد هذا، ومقابل للمسجد المنسوب لبني مرين. وبه الآن نظارة الأحباس الرباطية، وقد أصلحته وصيَّرته موافقاً مطابقاً لِمَا تتطلَّبه مصالحها.

* السقاية المرينية بباب شالة[101]

من آثار بني مرين برباط الفتح، السِّقاية العزيزية المرينية الكائنة بآخر زقاق شالَّة عند اتِّصاله بسوق السويقة أمام الجامع الكبير.

100) «تاريخ الرباط» لكايي (Caillé)، ص 202.

101) نفس المصدر، صفحات : 199-200-201.

وقد كانت مهملة، وتسرّع الخراب والبِلاَ إليها فأخفى جمالها ومحاسنها الأثرية، حتى تنبّهت لها في السنين الأخيرة مصلحة المحافظة على الآثار التاريخية، فاعتنت بها وأصلحتها، وأزالت ما كان على واجهاتها من الجير والوسخ، فاكتشفت كتابتها المنقوشة على عصابة فوقها تناثرت بعض حروفها، ولم يبق منها إلاّ اسم السلطان أبي فارس عبد العزيز بن علي بن عثمان، وهو عبد العزيز بن أبي الحسن المتقدم الذكر في الفصل السابق، المبايع سنة سبع وستين وسبعمائة (1366/767)، والمتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة (1372/774).

وعليه، فهذه السِّقَايَة مرينية قطعاً وبُنِيَتْ في عهده، وواجِهَتُهَا ذات ثلاثة أقواس مرفوعة على أربعة أعمدة، مبنية بالحجر الصلب المنحوث المؤلف بعضه فوق بعض بإحكام وإتقان، مرفوعة على أربعة أعمدة مزينة من أعلاها بنقوش فاخرة جميلة شبيهة بالنقوش التي على باب قصبة الودايا وخصوصا باب شالة الكبير.

وهي من أقدم سقايات الرباط، وقُلِّدَ في بنائها ما حدث بعدها من السِّقايات بالرباط، وصهريجها يبلغ طوله سبعة أمتار وثلاثة أرباع المتر وعرضه ثمانون سنتمتراً، وقد تعطّلت في وقتنا هذا وانقطع الماء الجاري فيها وصارت مكتبة يباع فيها الكتب العربية مع المحافظة على هيأتها وزينتها.

* الحَمَّامُ الجديد(102)

الحمّام الجديد من الآثار المرينية المعلومة برباط الفتح، وموقعه ما بين الأزقة الثلاثة : زقاق الحمّام، وزقاق العلو، وزقاق الدورة.

أسّسه السلطان أبو عنان، وحبّسه على قبر والده أبي الحسن بشالة، وخصص دخله لصيانة ضريحه وتعاهده والنفقة عليه، وإطعام الطعام للفقراء والمساكين الذين ياوُون إليه، ويحتمون بحماه.

وسجّل تحبيسه في رخامة مربّعة الشكل، كما فعل والده أبو الحسن في تسجيل أحباسه على مدرسته بسلا جاء فيها :

102) «تاريخ الرباط» لكايي (Caillé)، ص 202 وما بعدها.

الحمد لله وحده.

ممَّا حبَّسه مولانا الخليفة الإمام، المتوكل على الله، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبو عنان بن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سعيد بن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف بن عبد الحق، تقبَّل الله منه، وبلَّغه في نصر الإسلام أمله، الحَمَّام الجديد برباط الفتح حرسه الله، على ضريح مولانا المرحوم والده - رضوان الله عليه - وإطعام المساكين بشالة، عمَّرها الله تعالى.

وذلك في عام خمسة وخمسين وسبعمائة (1354/755 - 1355) عرف الله خيره.

وهذه الرخامة محفوظة الآن بالجامع الكبير، ملصقة بأعلى السارية اليمنى للعنزة من الواجهة الموالية للصَّحن. ولعلها كانت محفوظة بشالة، وبعد خرابها في حروب عرب الصبَّاح في العهد اليزيدي، - كما سيأتي - نُقلت منها إلى الجامع الكبير محافظة عليها.

وهذا الحمَّام، بسيط في بنائه وهندسته، وليْس فيه فن ولا زخرفة، وليْس كبيراً جدا، ولكنه متْقَن البناء محكمه، شبيه جداً بحمَّام شالة، وهو أوسع منه رقعة، ولا نسبة بينه وبين الحمَّامات المرينية الأخرى كحمَّام المخفية بفاس، وحمَّام وجدة، قرب جامعها الأعظم، بل وحتى بحمَّامات رباط الفتح التي بُنيت بعد الهجرة الأندلسية، ولكنه يمتاز عنها بكونه أثراً مرينياً مَحْظاً، وحُبِّس على جدث سلطان من أشهر سلاطين آل مرين، شَمِلَ نفوذه إفريقية الشمالية كلها، رحمه الله.

الفصل الثالث

عن شالة وقدسيتها وآثارها
واتخاذها مَدْفَناً لبني مرين،
وازدهارها في عهدهم وخرابها بعدهم

المبحث الأول

شالة وقدسيتها

توجد خرائب شالةَ فوق الهضبة العالية المطلَّة على الضفة اليسرى لنهر أبي رقراق.

ويفصلها عن الأسوار الموحدية الرباطية، وباب زعير، نحو مائة وستين متراً فقط.

وتبعد عن الأسوار الأندلسية للمدينة الرباطية، بنحو كيلومترين ونصف.

ولها تاريخ قديم، منذ عهد الرُّومان قبل الإسلام، وفي زمن الفتح، ليس من موضوع بحثنا هذا.

وقد كانت قبل اتِّخاذها مدفناً لسلاطين بني مرين وأسرتهم المالكة أرضاً خالية فيها آثار خرائب قديمة، منذ هاجر منها بعض سكانها وقطَّانها إلى الضفة اليمنى لمصب النهر في البحر، حيث خلفتها سميتها المحرفة عنها بالسين المهملة، مدينة سلا الحديثة، وتكتَّل عمرانها وازدهر، وامتدَّ حول شاطئ المحيط وانتشر، وأصبحت مدينة مهمة معدودة في جملة مدن المغرب التاريخية العامرة.

وهاجر آخرون إلى أرض الرباط للمرابطة حولها، والجهاد في الفئة الضالَّة البرغواطية، طوال عهد الدولة المرابطية إلى أن جاءت الدولة الموحدية، وبرز رباط الفتح للوجود، فانضمُّوا إلى من انسال إليه من المرتزقة استجابة لدعوة الموحدين الحارصين على عمارته بكلِّ وسيلة، وطمعاً في الرِّبح المزدوج مع الجيوش المحشودة به، والعطاء الموعود به من مالية الدولة.

ولمّا استقرّ سلطانهم ورسخت في الملك أقدامهم، عَمَرُوا القصبة، واتَّخذوها مَقَرَّ ملوكهم، ومُتَبَوَّأ خلفائهم، بما أسَّسوه فيها من القصور والدور والأبنية الضخمة العادية،

وصرفُوا عنايتهم ووجهتهم لمدينتهم الجديدة المؤسَّسة لمقاصدهم الحربية والجهادية، بالعدوتين : الأندلسية والمغربية، وسائر إفريقية الشَّمالية، ولم يلتفتوا إلى شالة، ولا إلى سابق وجودها وحرمتها وقدسيتها المعروفة لها، استغناءً عنها بتِينْمَل والقصبة المهدية، ولم يحفظ التاريخُ فيما نعلم أنَّهم عملوا فيها عملا يذكر أو يُسطَّر.

حتَّى جاء بنو مرين، فاتخذوها مدفناً لملوكهم وأمرائهم وحاشيتهم، لِمَا كانوا يعلمونه من سابق قداسة أرضها، وحرمتها وبركتها، وأنَّها كانت دار جهاد في سبيل اللّه، ومرابطة منذ عهد برغواطة وبعده، فآوى إليها الصَّالحون، وثَوَى بها الفضلاء والأعيان والمصلحون.

وإلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه : «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا» بقوله :[103]

ثُمَّ قَضَى حَالُ بَنِي مَرِينِ   تَخْصِيصَهَا بِالمَدْفَنِ الثَّمِينِ
إِذْ كَوْنُهَا ثَغْرَ جِهَادٍ مُحْتَرَمْ   وَمَوْطِنِ السَّادَاتِ مِنْ كُلِّ عَلَمْ
وَكَمْ بِهَا مِنْ زَاهِدٍ مَعْرُوفِ   وعَالِمٍ أخِي سَنىً مَوْصُوفِ
فَصَيَّرُوهَا حَرَماً مُشَرَّفَا   ابْنُ الخَطِيبِ دَامَ فِيهَا عَاكِفاً

قال ابن مرزوق : في «المسند الصحيح الحسن، في مآثر المولى أبي الحسن» :[104]

"موضع شالة معروف بالبركة، مقصود لذلك، وقد ذكره بعض من له عناية بالخبر، وأوْرد ما يَشهدُ بفضله، ولولا تقلُّد العُهدة لأوْردت ما على ذكرى من ذلك".

وقال أبو علي اليوسي في «المحاضرات» :[105] عند الكلام على ما وقع التَّغالي فيه من مواضع الصالحين بالمغرب :

"وفي بلاد المغرب مواضع اشتهرت بآثار الصالحين، ووقع التَّغالي فيها، منها شالة في رباط سلا، فلا يُعْرَفُ لها أصل إلاَّ أنَّها مزارة يزُورها النَّاس ويتبرَّكُون بمن فيها، ولم يظهر فيها بعد هذا العهد إلاَّ يحيى بن يونس، وهو مشهور عند النَّاس، ولا تُعْرف له ترجمة،

103) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا، ورقة 20.

104) ورقة 30، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

105) ص 37، طبع فاس.

وملوك بني عبد الحق، (يعني مرين) وهم معروفون، ولا بَاس بهم، وكلُّ ما يُذكر فيها، ممَّا سوى ذلك، ويوجد في بعض الأوراق المجهولة من الأخبار، فلا يعرف له أصل، ولا يعوَّل عليه".

قالوا : ولأجل ما اشتهرت به شالَّة من هذه الحرمة، وهذه القدسية، إختارها أبو يوسف، يعقوب بن عبد الحق، لتكون مدْفنا لآله ونويه، ودَفَن بها زوجته أوَّلاً، كما سيأتي، وربَّما أَوْصَى بأن يُدْفَن بها هو أيضاً لأنَّها أرض جهاد، فينبغي أن يدفن بها المجاهدون.

وأطلق عليها أبو الحسن المريني لمَّا بنى أسوارها اسم "الرباط المبارك".

المبحث الثاني

آثار بني مرين بشالة

لمَّا اتخذ بنو مرين شالة مدفناً لملوكهم، وكبار حرمهم، وأمَّهات أولادهم، وخاصَّتهم من قرابتهم وذويهم، أحيوا آثارها، وأعادوا لها قدسيتها وحرمتها، وبنوا فيها المساجد والمشاهد، والمعاهد والمعابد، والقبب والزَّوايا، وملاجئ الخير والتَّكايا، اعتباراً لمَا سلف لها من الجهاد القديم، وتبركاً بمَا حَوَتْهُ تربتها من رِمَم الشهداء الأحياء في النعيم المقيم، وتشبيهاً لهم بأصحاب الكهف والرَّقيم، حسبما أفصح عنه ابن الخطيب في «مقاماته البلدانية» بقوله :[106]

"... شالة مرعى الذِّمم، ونتيجة الهمَم، ومشمخ الأنوف ذوات الشَّمم، وعنوان الرِّمم، حيث الحسنة المُكتتبة، والأوقاف المُرتَّبة، والقباب كالأزهار، مُجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار".

وقال أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في رجزه المتقدم :[107]

وَأَنْشَأَتْ مَرِينُ لِلْفَخَارِ ... بِشَلَّةٍ قِبَابَ الاعْتِبَارِ
فَكَمْ جَمَالٍ زَخْرَفَتْهُ الأَيْدِي ... وَكَمْ مَحَاسِنٍ بِهَا لِلْفَيْدِ
فَهْيَ بُرُوجٌ فِي سَمَاءٍ لِلْعُلاَ ... وَزَهَرٌ عَلَى ضَرَائِحِ الْمَلاَ...

---

106) ص 105، طبع الإسكندرية.

107) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية، ورقة 20.

* مسجـد أبـي يوسـف
يعقوب المنصور المريني

أول بناء أحدثه بنو مرين بشالة، لمّا اتخذوها مقبرة لهم، المسجد الذي بناه السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور.

وقد كان هذا المسجد في أول أمره صغيراً بسيطاً بالنسبة لما أُحدث بعده من الأبنية الفخيمة المزخرفة، مُشَيَّداً في فضاء واسع خالٍ من العمران، مُقَفَّلاً من الخارج صيانةً له ومحافظةً عليه.

ولمّا جاء أبو الحسن، أحْدث به باباً جديدا، وهدّم الحائط الجنوبي منه ووسّعه. وبنى مسجداً آخر أكبر منه، وأحدث روضة عظيمة، ومشهداً من المشاهد المقصودة، واحتفظ بمساحة واسعة من الأرض، أدار عليها الأسوار وحصّنها، وهي شالّة الموجودة اليوم.

* أسوار شالة

أحاط أبو الحسن أرض شالة بسور مشرف على مجرى الوادي أسفله، يرتفع فوق الأرض المرتفعة، وينخفض بانخفاض الأرض المنخفضة، قُبالة الأسوار الموحدية الرباطية.

وهذا السور المسور لهذه الأرض، مُخمّس الزوايا الغير المستقيمة، يبلغ طوله من الواجهة الشمالية الغربية، نحو ثلاثمائة متر (300 م)، ومن الواجهة الجنوبية الشرقية، نحو ثمانين متراً (80 م)، وتخلّله عشرون بُرْجًا (20)، وبرجان على واجهة الباب الكبير.

وعلوه يتراوح ما بين ستة إلى سبعة أمتار (6-7 م). ومن تأمّل هذه الأسوار المرينية المحيطة بشالة، تبيّن له أنّها لا قيمة لها عسكرية ولا حربية، وليست كأسوار الرباط وحصونه وأبراجه المقابلة لها ضخامة ومتانة وموادّ بناء.

لأنّ أسوار الرباط شُيِّدَت لتحصين مدينة عسكرية حربية، وأسوار شالة بُنِيت لصيانة مدافن الملوك، وحفْظ ما حفّ بها من المساجد والمشاهد والزوايا والقباب المزخرفة المزينة بأبرع النُّقوش، وأبَدع ما بلغه الفنُّ في العهد المريني.

أبواب شالة

لمّا أحاط أبو الحسن روضة شالة وساحتها بالأسوار، اتّخذ بها ثلاثة أبواب وهي :

- الباب الأثري الكبير
- وباب عين أجنة
- وباب البساتين.

* الباب الأثري الكبير

هذا الباب مفتوح في الواجهة الغربية للسّور، قُبَالة باب زعير المفتوح في الأسوار الموحدية الرباطية.

وهو آية في الفن وجمال المنظر، يُمثِّل الشكل المعماري للأبواب المرينية. وبأعلاه عِصابة نُقِشَ عليها بالخطّ الكوفي الجميل تاريخ إِتْمام العمل فيه وتشييده، وهو :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم،

بسم الله الرحمان الرحيم   وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم

أمر ببناء هذا الرباط المبارك، مولانا السلطان، أمير المسلمين، أبو الحسن، بن مولانا السلطان، أمير المسلمين المقدّس المرحوم، أبي سعيد، بن مولانا السلطان، أمير المسلمين المقدّس المرحوم، أبي يوسف بن عبد الحق، خلّد الله ملكهم.

وكان الفراغ منه في آخر ذي الحجة عام تسعة وثلاثين وسبعمائة (آخر حجة 8/739 يوليوز 1339).

وكُتب على القناطير الصغيرة لهذا الباب بالخط الكوفي أيضا :

"الملك لله"

وبالخط الكوفي على أركان البرجين اللذين فوق الواجهة الخارجية للباب :

"البقاء للّه" "العزُّ للّه"

وفيه يقول أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في رجزه :[108]

108) ورقة 29، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وَاغْـتَـبِطَــنْ بِبَـابِهَــا الغَـرْبِــيِّ   فَلَمْ يَــزَلْ ذَا المَنْظَــرِ البَـهِــيِّ

وقد عثر الباحثون الأثريون في هذا الباب، على صُوَرِ سفن منقوشة على جُدُرات الدرج الداخلية التي يُصْعد منها إلى سطحه والطريق المفرزة الدائرة بالأسوار.

وهذه الصُّوَر تمثل السفن القرصانية المغربية، ذات القلوع والمجاذيف.

وتصدى لوصفها وصفاً كاشفاً الأستاذان كامباردو "Campardau"، وهانري باسِّي "Henri Basset" في مقال خصَّصاه لها، نُشِرَ في مجلة هيسبيريس "Hespéris" [(109)]. وفرضا عدة احتمالات فيمن صوّرها ونقشها، هل بعضُ الأسرى من الأوربيين، أو البحَّارة منهم، أو بعض المسلمين الذين لهم اعتناء بالصُّوَر والتَّصوير ؟ لاسيما وقد عُثِر على صُوَر سفن اَخرى في مواضع أثرية أخرى من المغرب، كبستيون تازا، وبعض أبراج مكناس، ووليلي، ومرسى المهدية، وبداخل باب المُرَيْسِي بسلا، وبداخل باب قصبة الودايا، وبقصبة كناوة، قرب ضريح سيدي موسى الدكالي بسلا أيضا...

ولاحظا أنَّ رسم السفن وتصويرها كان شائعا بالمغرب حتى على الأواني الخزفية القديمة... اهـ.

والذي يَظْهَر لنا أنَّ هذه الصُّور رُسمت قديماً بباب شالة وغيرها من المحلات الأخرى، إمَّا في العهد المريني، أوْ بعده، وكأنها كانت شعار المرينيين على الجهاد في البحر، وترغيباً في عمل الأساطيل.

كما كان شعار الموحدين رسم الأقواس الموترة والسيوف على المباني والأبواب العظيمة القديمة بالرباط، ومنار حسّان.

ولا يعْزُبُ عن الفكر، أنَّ بني مرين كان لهم اعتناء خاص بالأساطيل البحرية وإنشائها، وهم الذين شيَّدوا دار صناعة السفن بسلا.

وإذا لم تكن رُسِمت في العهد المريني، فلا يبعد أنَّها رُسِمَت في عهد استفحال القرصنة السلاوية الرباطية في القرنين الحادي عشر، والثاني عشر الهجريين، الموافقين للقرنين السابع عشر، والثامن عشر الملاديين، وقام برسمها بعض الرُّؤساء أو البحَّارة دعاية لها، وترغيباً فيها.

109) العدد الأول من سنة 1921، ص 87 وما بعدها إلى ص 90.

* باب عين أجنّة

عين أجنّة، هي العين المتفجرة بأعلى شالة.

قيل : سميت بهذا الإسم نسبة إلى الجنَّة.

والذي يظهر لنا أنها عين الأجِنَّة، وسُميت بهذا الإسم لأنَّها تُسقى منها أجنة شالّة. والباب المنسوب إليها، مفتوح في الواجهة الشمالية الشرقية من السُّور في أرض منخفضة.

وحصل فيه تخريب غيَّر هَيْأَتَهُ ومنظره، وهو بالنسبة للباب الكبير بسيط جداً، وليس فيه شيء من الفن والجمال يلفِتُ النظر إليه.

وقد عثر الباحثون في مواد بنائه، وخصوصا في جدراته الدَّاخلية على أحجار وصخور رومانية استُعملت فيه.

واستدل الأركيولوجيون منها على أنه شُيِّد فوق الأرض التي كان فيها عمران المدينة القديمة الرومانية، لاسيما وآثار البناء الروماني لازال ظاهرا مشاهداً على وجه الأرض حول الباب هنا وهناك.

بل قالوا : إنَّ سائر البناءات التي بناها السلطان أبو الحسن بشالَّة بُنِيت فوق بناءات أخرى رومانية، واستُعْملت أُسُسُها وأنقاضها في تشييد قباب أضرحة الملوك وما جاورها.

* باب البساتين

باب البساتين هو الباب الثالث من أبواب شالة، وقد كان مفتوحاً في الواجهة الجنوبية الشرقية من القسم الأسفل من السُّور، فوق عين أجنّة، خارج الحدّ الموجود اليوم حول الخلْوة، ولا مشابهة بينه وبين باب عين أجنة في الهيأة والمنظر.

وقد شَنَّ الخراب عليه إغارته، وأشرف على السقوط، وكاد أن يخفيه التُّراب الذي علا فوقه، حتَّى لم يبق بادياً منه إلاَّ نحو نصفه، وأحاطت به النباتات من كل ناحية حتى كاد أن يعفى أثره بالكلية.

ولعلَّه كان مجرد فتحة شُرعت في السُّور لمقصد من المقاصد، إذْ ليس بداخله ساحة وُسْطى، ولا باب داخلي، كالباب الكبير وغيره من الأبواب الكبرى، بالمُدُن المغربية الأخرى.

* مسجد أبي الحسن

لمَّا فرغ أبو الحسن من بناء أسوار شالة وأبوابها، شرع أوَّلاً في إصلاح وتوسيع القبة المخصَّصة لأجداث الملوك، ثم أتْبَعها بالعمل في تشييد مسجده المنسوب إليه، وجعله أكبر من مسجد أبي يوسف، فجاء رِواقُه القَبْلي أوْسع منه، وأتمَّه بثلاث بلاطات، عِوَضاً عن بلاطين في المسجد القديم.

وقد كانت سقوف هذا المسجد مرفوعة على أربعة عشر سارية من الطُّوب أو الآجُر المطبوخ، وصحنه أصغر من صحن المسجد الأول.

وطول هذا المسجد ثمانية عشر مترا وتسعون سنتمترا (18.90 م)، وعرضه تسعة أمتار وخمسة وتسعون سنتمترا (9.95 م). ويُعَدُّ صغيراً بالنِّسبة لبعض المساجد المغربية التاريخية.

وفي حائط قبلته المحراب، وعرضه متر واحد (1.00 م)، وعمقه نحو المتر أيضا، ولم تكُنْ على واجهته زخرفة مهمَّة.

ومن ورائه مقصورة الإمام والخطيب، وخزانة المصاحف، وبيت النَّظافة، وبيت الجنائز، كما هي العادة في سائر المساجد الأخرى.

وأُلْحق به من ورائه رياضات وبساتين ذات أزهار ووُرُودٍ طيِّبة.

* المنار

كان بالمسجد الأول منار بسيط صغير جداًّ، فعوَّضه السلطان أبو الحسن بمناره الذي بالزاوية الشمالية من المسجد، وزيّنه، بأنواع النُّقوش الفنّية الرفيعة الرّائعة، وكسى جوانبه بالزّلّيج المُحْكم الصنْع، المتشابك الوضع، وجعل علوه أربعة عشر مترا وخمسة وثلاثين سنتيمترا (14.35 م)، وعرضه أربعة أمتار غير ربع (3.75 م). والبناء الزائد فوقه المعروف عند العامة بالعزْرى، طولُه خمسة أمتار (5.00 م)، وعرضه متر واحد وثلث المتر (1.33 م).

وهو شبيه في هيأته وشكله بالمنارات المرينية، التي شيّدها أبو سعيد، وأبو الحسن، وأبو عنان في عدة مدن أخرى.

* قبّة أضرحة الملوك

إتّخذ أبو الحسن، بين المسجدين، قبّة واسعة أعدّها لدفن الملوك والأمراء.

وقد كانت هذه القبة في عهدها الأول، آية في الفن، ومثالاً عالياً في الزخرفة و الزينة، يحيط بها إزارٌ من الزّلّيج الرفيع من نوع التّسطير، يَعُمُّ سائر جوانبها الأربعة، ويعلوه منطقة واسعة من النُّقوش الجميلة في الجبس، وفوق هذه المنطقة الجبسية، عِصَابة جبسية أخرى كُتِبَ فيها بخط رائق :

"العزُّ القائم لله" "الملك الدّائم لله"

وفوقها عصابة أخرى، تُمثّل أشكال الرّياحين والوُرُود، وبعدها كتب :

"البقاء لله"

أمر بهذه القبة المباركة، مولانا السلطان الأجل الصالح العادل المجاهد، أمير المسلمين، وناصر الدين، أبو الحسن بن مولانا السلطان الأجل العادل المجاهد المقدس المرحوم، أمير المسلمين، وناصر الدين، أبي سعيد، بن السلطان الأجل، أبي يوسف، يعقوب ابن عبد الحق، بجوار هذه المقابر المرعية، عامله الله بجميل الجزاء، أصلحه الله وجاعل (كذا) .... نفع الله .... مولانا بالمقاصد المهمة .... وأعد لنفسه ......

وقد كادت الزينة الزّليجية والجبسية أن تزول وتضمحل، ولم يبق منها إلاّ القليل، كعنوان على تجانس الفن المريني وشاهد ودليل.

* قبة ضريح أبي الحسن

لمّا فرغ أبو الحسن من بناء قبة أضرحة الملوك، أعدّ لنفسه ضريحا تأنّق فيه ما شاء، وهو عبارة عن قبة مربّعة الشكل، طول كل جانب من جوانبها الأربعة، ستة أمتار (6.00 م).

بناها بالحجر المنحوت المؤلف بعضه فوق بعض بالرصاص المذاب، فكان ذلك سبباً في خرابها، لأنّ اللُّصوص في الأزمنة المتأخرة ظنّوا أن ذلك الرصاص فضة مذابة، فهدّموا الجدرات، وبعثروا الأرض، وحفروها إلى عمْق قامة الرجل، باحثين عن الكنز الدّفين تحتها.

وقد كانت هذه الجُدُرات كلها مكسوة بالزليج الرّفيع المُلوَّن المتناسب المتجانس أحسن تجنيس وأبدعه، كما هو الشأن في المدارس المرينية بفاس ومكناس وسلا.

وممّا زادها زينة وبهاء، ما رُسم في حائط أقْواسها الصمّاء، المحمولة على الأعمدة الرخامية، من الكتابة الكوفية المتضمنة للحمدلة.

وفوقها منطقة أخرى كتب عليها بالخط الكوفي :

"المُلك الله" "للّه المُلك"

واكتنف الجميع عصائب نقش عليها بالكتابة الكوفية :

أعوذ باللّه من الشيطان الرّجيم

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد

﴿كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾.

وفوق العمود الرّخامي الفاصل بين القوسين كُتب :

"المُلْك للّه"

﴿جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون. كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾.

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمومنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير﴾.

﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها...﴾

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة وظلموا أنفسهم...﴾

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد...

"العزة لله" "البقاء لله"

ثم التصلية على مولانا رسول الله.

وقبالة هذه القبة، إتخذ قبة أخرى تماثلها وتضاهيها، لعلَّها كانت خاصة باجتماع الطلبة قُرَّاءِ القرآن، وإهداء ثوابه لروحه.

* دار الوضوء وماء عين شالة

توجد آثار دار الوضوء خارج الخلوة، قريباً منها، على بعض خطوات من الضريح في الناحية الجنوبية الغربية، آخر الساحة الموصلة إلى طريق الباب الكبير.

ومساحتها تقريباً عشرة أمتار ونصف طولا (10،50م)، و تسعة أمتار ونصف عرضا (9،50 م).

وتحتوي على سبع ميضئات صغيرة مسقَّفة بالآجر.

وفيها يتفجَّر ماء عين شالة المشهورة النَّابعة داخل بناء خاص بها، ثم يجري في قنوات، وينصب في صهريج مربع ، طوله أربعة أمتار ونصف (4،50 م)، وعرضه أربعة أمتار (4،00 م) فقط، ويعمُّ سائر مراحيضها.

وللعامَّة في هذه العين اعتقاد خاص، فيغتسلون ويغسلون بها ثيابهم وأمتعتهم ويتبركون بها، وبما فيها من النِّينان والسلاحيف، ويقدمون لها الصدقات والهدايا، ويتناقلون عنها خرافات وأساطير.

وقد عُرفت هذه العين بالرباط بنقاوة مائها وصفائه وعذوبته، حتى كانوا فيما مضى يفضلونه على غيره من المياه، ويشربون منه، ويأتيهم به "الگرَّابَة" في قربهم المحمولة على ظهورهم.

واستعملتها حكومة الاحتلال في أول عهدها، وجرَّت قنوات منها إلى دار إقامتها سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف (1913/1331).

* المدرسة أو دار الأضياف

من جملة الأبنية الأثرية الموجودة بشالة، الجناح الذي عن يسار الداخل إليها من الباب الكبير، مستنداً في بنائه على الزّاوية الشمالية الغربية من السّور.

ويشتمل هذا الجناح على مساحة واسعة بها عدة بيوت وحُجر صغيرة وقاعات فسيحة، تحيط بها الحدائق والبساتين الجميلة، وفيها يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه[110]

وَعُجْ عَلَى الحَديقَةِ المَعْرُوفَةْ ذَاتِ الجَمَالِ وَالسَّنَا الظَّرِيفَةْ

وقد اختلف الباحثون في آثار شالة في المقصود من بناء هذا الجناح وإنشائه.

فقال بعضهم : إنه كان بيرمَارَسْتَان، أو مستشفى.

وقال آخرون : إنّه كان مدرسة أو دار ضيافة.

ويمكن الجمع بين القولين، يعني أنه كان مدرسة، باعتبار من يجتمع به من الطلبة والفقراء الملازمين لقراءة القرآن على أجداث الملوك، حسبما أفْصَح عنه ابن الخطيب في إحدى رسائله التي خاطب بها السلطان أبا سالم من شالة، لمّا كان ثاويًا بسلا، ومترددًا عليها، شاكراً له فضله، لمّا أعلمه بأنه وجّه رسلا من قبله إلى ابن الأحمر بغرناطة في شأن استرجاع ماله ومتاعه بقوله :[111].

"ثم قلت للطلبة : أيها السادة بيني وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام، ومناسبة النِّحلة، وأخوة التآلف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم، فأمّنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم، واندفعت في الدعاء والتوسل..."

فَيُؤخذ من هذا، أنّ الطلبة كانوا مُلازمين لشالّة.

وعليه، فهذا الجناح، بهذا الاعتبار ، كان مدرسة.

ويؤخذ من قوله : والسُّكنى بين أظهركم، أنه كان دار أضياف، وكان ساكناً أيْ نازلاً بها، لأننا نعلم أنه كان مقيما بسلا وبها كانت داره.

وجاء في ترجمة الشيخ أبي عبد الله اليابوري، أنه لمّا انتقل من بلده يابورة إلى رباط الفتح، في عهد ازدهار شالة – لأن وفاته كانت أوائل القرن الثامن الهجري – (الرابع عشر الميلادي) إتخذ لنفسه زاوية بشالة، قيل هي الزاوية الغربية، يعني غربي السور بشالة ، عن يسار الدّاخل إليها من الباب الكبير.

---

110) ورقة 29، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

111) «الإستقصا»، ص 118 من ج 2، طبع القاهرة. وص 232 من ج 4، لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

وكان معه بها الشيخ أبو العباس أحمد بن عاشر دفين سلا، وأسكنه في خلوة منها، وتسبّب له في إقراء الصبيان القرآن بها[112].

وأمّا القول بأنه كان مستشفى، أو بيمارستان، فقد ذكره هانري باسي "Henri Basset" وليڤي بروفنسال "Levy Provençal" في كتابهما عن شالة "المقبرة المرينية"[113]، نقلا عن الترجمة الفرنسية من اللاتينية لجغرافية الحسن الوزّان، أو ليون الإفريقي، المطبوعة بڤيينا "Vienne" سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وألف (991/1583)، صفحة 93 من الجزء الأول.

والذي في الطبعة الباريسية الجديدة سنة ، ست وخمسين وخمسمائة وألف (6137/1956) بترجمة أ. إيبُولاَرْ "A. Epaulard" من الإيطالية، صفحة 166 من الجزء الأول، التعبير بلفظة : هوسْبِسْ "Hospice" وهي لا تفيد المستشفى، وإنما تفيد دار ضيافة، أو زاوية، أو منزل.

فترجّح حينئذٍ أنّ البناء المذكور، كان في أول عهده، إمّا مدرسة، باعتبار من كان يُرابط فيه من الطلبة، أو دار ضيافة، باعتبار من كان يأوي إليه وينزل به من أهل الخير والصّلاح، والزُّوار والوفود المترددين على شالة لقدسيتها وبركتها قديما وحديثا، ولاسيما بعد دفن الملوك بها، واتخاذ أسباب الضيافة وتيسيرها لهم، كما هو الشأن في سائر الرّباطات والزّوايا شرقاً وغربا.

وأمّا القول بأن تلك الحُجَر أو البيوت، كانت مخازن للحبوب، ففي قبوله واعتباره توقُّف، وحتى إن وقع، فَرُبَّما كان ذلك في وقت خاص، ولأسباب وموجبات خاصّة، في عهد خراب شالّة وتعدّي الأيدي العادية عليها، ولعلّه كان في فتنة عرب الصُّبَّاح، والْتِجَائِهم إليها في العهد اليزيدي، حسبما سيأتي بيانه وتفصيله في فصل الكلام على خرابها.

والظّاهر أن هذه الزاوية، أو المدرسة، أو دار الأضياف، بُنِيت بعد بناء السور، لأنَّها مستندة عليه، إمّا في عهد أبي الحسن، لمّا شيّد المسجد والأضرحة، أو في عهد وَلَدِهِ أبي عنان، لمّا كَثُر الزوار والمجاورون بشالة، واللأجِئُون إليها، والمُحْتمون بحماها، والمحترمون بحُرمتها لبركتها واعتقادهم في قداسة تربتها.

---

112) «السلسل العذب» لابن الحضرمي، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

113) مجلة «هسبيريس»، سنة 1922، ص 83.

وفي السنين الأخيرة، كانت مصلحة المحافظة على الآثار القديمة بالمغرب حوّلت هذا الجناح إلى مقهى ينتابه السياح والزوار، من سائر الأمصار والأقطار.

وفي وقتنا هذا، عُطِّل ذلك المقهى، وشرعت المصلحة المذكورة في إصلاحه وترميمه من جديد، ليكون متحفا تُعرَض فيه آثار شالة المكتشفة فيها، وكُلُّ ما يرجع إليها ويتعلق بها قديما وحديثا.

* القصر ؟ [114]

يلاحظ الزائر لشالّة عن يسار الطريق المنحدرة من الباب الكبير إلى أضرحة الملوك كُتْلة مُربعة عظيمة من الأحجار المنحوتة والحصى، كأنّها بقية بناء مهم كان بها وتهدّم، وظنُّوا أنها قصر كان هناك، إمّا من بناء المنصور، كما قال الحسن الوزان، أو ليون الإفريقي[115]، أو بناء أبي الحسن المريني. ولكن ليون الإفريقي، خلط في كلامه عن شالّة، ولم يُميِّز بين المنصورين : الموحدي، والمريني، وهو مُتأخِّر عن زمنهما بكثير.

وأما أبو الحسن، فليس لدينا حتى الآن نص صريح مُفْصح بأنّه لمّا بنى أضرحة أسلافه وما احتفّ بها من المشاهد، شَيَّد بإزائها قصراً له ولمن أتى بعده من الملوك، لاسيما والمعروف هو أنّ ملوك بني مرين لم يَتَّخذوا برباط الفتح قصورا، وإنّما اتَّخذوا بشالَّتِه قبورا.

وكانوا إذا طرقوا ساحة الرباط أوْ مرُّوا به، نزلوا بالقصبة بقصور الموحدين التي كانت مازالت قائمة موجودة بها، وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك، كما أنّهم كانوا لا ينتابون شالة إلاّ للزيارة أو لحضور جنـــازة.

وعليه، فلا يمكن الجَزْمُ بحقيقة هذا البناء الذي كان بموضع تلك الكتلة الحجرية الأثرية المُشْرفة على أضرحة الملوك، حتّى نقف على نص صريح، أو تعبير فصيح، أَوْ أَثَرٍ صحيح، يكشف عن أوّليتها ومبدئها.

على أنه لو كان هناك قصر مريني سلطاني لأشَار له المؤرخون كما أشاروا إلى قبورهم وأبْنيتهم الأخرى بشالّة، ولَذَكَرَهُ ابن الخطيب في رسائله وشعره ونثره، كما ذكر غيره من آثار شالّة ووصفها.

---

114) مجلة «هسبيريس»، سنة 1922، ص 255.

115) ص 166 من ج 1، طبع باريس، سنة 1956.

تحصيل بعد التفصيل

تحصّل لنا ممّا قدمناه مفصّلا، أنّ أول بناء أثري شيّده بنو مرين بشالة : هو مسجد السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور.

وجاء بعده السلطان أبو الحسن، فأدار الأسوار والأبواب وبنى مسجده ومناره، وقبّة أضرحة الملوك، وقبّة ضريحه، ودار الوضوء، ودار الأضياف، وما يتبع ذلك ويُضاف له من القباب والمعاهد.

وكان هذا العمل المهم في أَوْجِ دولته وعنفوان قوتها، وامتداد نفوذه وسلطانه في إفريقيا الشمالية كلها، ومحاولته تخطي المجاز للقيام بالجهاد في سبيل الله على عادة أسلافه من قبله.

وعليه، فإنه يُعْتبر المجدّد لشالة والمُعمِّر لها بعد خرابها، ومُحْيِيها بعد مماتها، لتكون مقرّا له بعد مماته، بما شيّده فيها من المباني الفاخرة، والآثار الخالدة الزاهرة.

وفي ذلك يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه[116] :

وَهَـذِهِ شَلَّـةُ مِنْ آثَـارِهِ ... بِمَا لَدَيْهَا مِنْ سَنَا اعْتِبَارِهِ
أَدَارَ سُورَهَا وَشَادَ القِبَبَا ... وَزَخْرَفَ الكُلَّ بِحَالٍ عَجَبَا
وَشَيَّدَ الزَّاوِيَةَ المَعْرُوفَةْ ... بِغَرْبِهَا لِنَوْلِهِ مَوْصُوفَهْ
فَأَوْقَفَ الأَوْقَافَ لِلرُّغَّابِ ... فِي سُبُلِ البِرِّ وَلِلطُّلاَّبِ
وَتَمَّمَ العَمَلَ فِيهَا مُحْسِنَا ... بِعَامِ طَـ(739) لٍ وَسَنَاهُ أَعْلَنَا

عمل أبي عنان بشالة

لمّا توفي أبو الحسن، ودُفن بشالة، وتولّى بعده ولده أبو عنان، تصدّى للاهتمام بشالة وإتمام عمل والده بها، وتزيينها، فرتّب القُرّاءَ والمترحمين على أسلافه السابقين إليها، ومن سيلحق بهم من الملوك والأمراء بعدهم. وكسى قبورهم بستور ا لكعبة الحريرية، ورصّع أضرحتهم بأنواع النقوش والزخرفة الرائعة، وحلّى جوانبها وأركانها - زيادة على عمل والده - بالزليج الرفيع البديع الملون المتجانس الرصف، وزوّدها بالمجامير والمباخر المذهبة

116) ورقة 120، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

للتَّجمير والتَّبخير، والأواني الملكية لمن يقْصِدُها، أوْ ينزل بساحتها من الزوار والأعيان، وفجَّر الماء من عيونها بساحاتها، ودور طِهارتها، وانتفع النّاس به في سقْيِ أجِنَّتهم وبساتينهم.

وأحدث بها بناءات جديدة، لاستقبال الأضياف، ودور السَّدَنَة والقَوَمَة القائمين بخدمتهم، وخدمة الأضرحة والقبب والمساجد. وحبَّس عليها خزانة كتب فيها عدد كبير من المصاحف القرآنية المُحلاّة بالذهب، وأملاكاً مُغِلّة برباط الفتح.

وهكذا صارت شالة في عهده مقاماً محمودا، ومشهداً من مشاهد الخير والبركة مقصودا، وتأكدت قُدسيتها، وتجدّدت حرمتها، بما دُفِن من ملوك وأمراء الدولة المرينية فيها.

المبحث الثالث

مدافن بني مرين بشالة

كان السلطان، أبو يوسف، يعقوب المنصـور بن عبد الحق، أول من تنبّه من ملوك بني مرين لقُدسية شالة وحرمتها، وعمل على أنْ تكون مدفناً لمن سيأتي من الملوك من ذريته، لأنّها أرض جهاد، فينبغي أنْ يُدفن فيها المجاهدون .

وقيل إنّه أوصى بأنْ يُدفن فيها، وبنى مسجده لهذه الغاية.

ومن ذلك العهد، صار كلّما مات أمير أوْ أميرة أوْ حضية من الأسرة المالكة، نُقل إلى المدفن الرّسمي المخصّص له بشالة، إلى أن دخلت الدولة في طور الهرم بكثرة الثّوار واستبداد الوزراء والحُجّاب، فصار الملوك حينئذ يُدْفنون في القُبّة خارج باب الجيسة، بأعلى جبل الزعفران بفاس، أو حيث تدركهم منيتهم، وأول من دفن بشالة :

* أم العز زوجة السلطان يعقوب المنصور

أول من دُفن من الأسرة المرينية بشالة، الحرة المباركة أم العز بنت محمد بن حازم من أسرة بني علي، زوج أبي يوسف يعقوب المنصور، وأم ولده أبي يعقوب يوسف.

أدركتها منيتها أثناء إقامة زوجها برباط الفتح، في السابع والعشرين من رمضان، عام ثلاثة وثمانين وستمائة (27 رمضان 8/683 دجنبر سنة 1284)، فدفنها بشالة.

قالوا : وكانت فيها رأفة ورحمة على الضعفاء والمساكين، واتّفق أنْ كان الناس في حالة حسرة وجفاف بسبب انحباس المطر، فأغاثهم الله يوم وفاتها، فاستبشروا بذلك، وعدّوه كرامة لها.

وفيها يقول شاعر الدولة، أبو فارس، عبد العزيز الملزوزي، في رجزه : "نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك":(117).

وَمَــاتَــتْ أُمُّ العِــزِّ أُمُّ يُوسُــف وَكَانَ فِـيهَا رَحْمَـةٌ لِّلْمُسْـتَضْـعَف
فِي سَابِعِ العِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ الصِّيَامْ مَـاتَتْ وَكَانَ الْقَحْطُ فَانْهَلَّ الْغَمَـامْ
كَـانَتْ لَعَـمْرُ اللهِ غَـيْـثـاً لِلْوَرَى فِي عَـيْشِـهَا وَيَوْمَ حَلَّتْ فِي الثَّرَى
فَـقُـدِّسَتْ مِنْ حُـرَّةٍ شَـرِيفَـةْ طَاهِرَةٍ عَـفِـيفَـةٍ مُنِيـفَـةْ

السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور

كان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور بن عبد الحق، جاز إلى الأندلس جوازه الرابع، غرة صفر سنة أربع وثمانين وستمائة (فاتح صفر8/684 أبريل 1285)، غازيا على عادته، فأدركه أجله بقصره بالجزيرة الخضراء من الأندلس، ضحى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم فاتح سنة خمس وثمانين وستمائة (22 محرم 20/685 مارس 1286).

فحمل إلى رباط الفتح، ودفن بمسجده بشالة مع زوجه أم العزّ المتقدمة الذكر.

قال في «الاستقصا»(117م): «وقبره اليوم طامس الأعلام، رحمه الله».

وقيل إن رخامة قبره سُرقت وحُملت لمتحف الجزائر، وفي ذلك يقول أبو عبد الله محمد ابن علي الدكالي في رجزه «إتحاف أشراف الملا»(118).

وَلَـمْ يَزَلْ فِـي مُلْكِهِ مَنْصُـورَا وَسَـعْـيُـهُ طُولَ الْمَـدَا مَشْكُورَا
حَتَّى أَتَى الْحَيْنُ بِحِصْنِ الْخَضْرَا وَكَـانَ قَـدْ حُمَّ بِهَـا وَضُـرَّا
فَـتَمَّ مِنْ حَـيَـاتِهِ الأَطْمَـاعُ وَلَـمْ يَقُـمْ مِـنْ بَـعْـدِهِ نِـزَاعُ
سَنَةَ خَـمْسٍ وَثَمَـانِينَ مَـضَى مِنْ سَابِعِ الْمِئِينَ سَيْفاً يُنْتَضَى
وَسِـيقَ مِـنْ تُرْبِ دِيَارِ الأَنْدَلُسْ إِلَـى سَـلاَ بِشَلَّةَ حَلَّ النُّدُسْ

---

117) ص 139، المطبعة الملكية بالرباط، سنة 1963/1383.

117م) ص 32 من ج 2، طبع القاهرة، وص 65 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

118) ورقة 114، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

وَصَـارَ فِي مَسْجِدِهَا دَفِينَا ... وَكَانَ قَبْرُهُ يُرَى ثَمِينَا
مَا شِئْتَ مِنْ صُنْعٍ عَجِيبٍ وَرُخَامْ ... وَمَنْ زَخَارِف تُحَيِّرُ مَنْ أَقَامْ
ثُمَّ طَرَا عَلَى الضَّرِيحِ مَا طَرَا ... مِنَ الْخَرَابِ وَخَلَاءٍ مُنْكَرَا
فَحُمِلَتْ رُخَامَةُ الضَّرِيحِ ... إِلَى الْجَزَائِرِ عَلَى التَّرْجِيحِ
وَهْيَ لَدَى الْمَتْحَفِ قَوْلاً رَاجِحَا ... أَفَادَهُ مُؤَلِّفٌ قَدْ رَجَحَا
وَقَبْرُهُ لِعَصْرِنَا يُزَارُ ... وَيَنْتَحِي ضَرِيحَهُ الأَخْبَارُ

* السلطان أبو يعقوب يوسف ابن أبي يوسف يعقوب

لمَّا اغتيل السلطان أبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب، بظاهر تلمسان وهو محاصر لها يوم الأربعاء سابع ذي القعدة، سنة ست وسبعمائة (07 قعدة 3/706 ماي 1307)، نُقل منها إلى رباط الفتح، ودُفن بشالة جوار المسجد مع سلفه، وأطلال ضريحه لا زالت ماثلة إلى الآن.

وقد عُثر على قبرية رخامية مربَّعة، لم يبق مقْرُوءاً ممَّا كان مكتوباً عليها إلاَّ هذه الجمل :

... منها بإِذْنِ ...

التقى الأخشى، الأطهر، أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبو الحسن، ابن الخلفاء الراشدين ....

.... بقصرهما المبارك بمقصورة تلمسان الجديدة...

ولعلَّها كانت قبرية السلطان أبي يعقوب، يوسف بن أبي يوسف يعقوب، باني المنصورة، لأنه السلطان المريني الوحيد، الذي مات بالمنصورة، وحُمِلَ منها إلى شالة، فأُقْبِر بها باتِّفاق المؤرخين.

وقد استشكل باسي "Basset" وبروفنسال "Provençal" [118م] هذه القبرية، لأنَّ القبرية التي كانت على قبر أبي يعقوب يوسف، فُقدت، أوْ سُرقت كما سُرقت قبرية أبيه، وحُملت إلى الخارج.

قالا : ولكن لحسن الحظ، عُثر على ما كان منقوشاً عليها، منقولاً مرسوماً على ورق شفاف، حُفظ بمكتبة "بريتش ميوزيوم" "British Museum" بلوندرة جاء فيه :

118م) هيسبيريس، ص 40 من سنة 1922.

هذا قبر سيدنا ومولانا الملك العادل ... المجاهد الشهيد، أمير المسلمين، وناصر الدين، المقدس المرحوم، أبي (يعقوب) بن مولانا الملك العادل، الزّاهد، المرابط، الصّالح، أمير المسلمين، وناصر الدّين، المقدّس، المرحوم، أبي يوسف، يعقوب بن عبد الحق، قدّس الله روحه، وشرّفَ ضريحه.

توفي شهيداً يوم الأربعاء السابع لشهر ذي القعدة عام ستة وسبعمائة (07 قعدة 3/706 ماي 1307).

والغالب على الظّن أنّه لمّا نُقل من تلمسان إلى شالة، وُضع على قبره القبرية المتضمنة لتاريخ وفاته ولم ينصّ فيها على أنها كانت بتلمسان، وهي القبرية التي عُثِر على ما كان مكتوباً عليها بمكتبة لونْدْرة.

ولمّا جاء السلطان أبو الحسن، وبنى قبّة أضرحة الملوك، واعتنى بقبور من دُفن فيها منهم، أضاف إليها القبرية المربّعة، ونصّ فيها على أنه نُقل منها، أي من تلمسان، بإذن من السلطان المتولي بعده، وأنَّ الاستشهاد كان بقصرهما، أي السلطان الشهيد وخلفه بمنصورة تلمسان الجديدة، وأن تجديد الضّريح، وَوَضْع القبرية الجديدة عليه، أمَرَ به ... التّقي ... أبو الحسن.

وإلى هذا يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه بقوله :[119]

فَاغْتِيلَ بِالقَصْرِ الذي قَدِ ابْتَنَى ... بِالبَلَدِ الجَدِيدِ مِنْهَا بَيِّنَا
بِعَامِ سِتَّةٍ وَسَبْعِمِائَةِ 706 ... وَسِيقَ لِلرِّبَاطِ ثَانِي الزُّمْرَةِ
ضَرِيحُهُ مُجَاوِرٌ لِلْمَسْجِدِ ... وَفَوْقَ قَبْرِهِ رُخَامٌ قَدْ صَدِي
مُكَسَّرٌ تَبْدُو الكِتَابَةُ عَلَيْهْ ... مُتَرْجَمٌ بِهِ وَفَاتُهُ لَدَيْهْ

* السلطان أبو ثابت
عامر بن عبد الله

كانت وفاةُ السلطان أبي ثابت، عامر بن عبد الله بن يوسف، بن يعقوب مسموماً بطنجة، يوم الأحد ثامن من صفر من عام ثمانية وسبعمائة (08 صفر 29/708 يولوز 1308).

119) ورقة 116، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

فدُفن أوّلاً بطنجة، ثم حُمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة، فَوُري هناك ضجيعًا لجده أبي يعقوب يوسف[120].

ولمْ أقف له على قبرية مكتوبة كغيره من الملوك والأمراء والأميرات، ولعلّها ضَاعَتْ أوْ سُرِقت كغيرها من آثار شالة أوْ لازالت مطمورة تحت التراب ؟

* السلطان أبو سعيد عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق

كانت وفاة هذا السلطان بعلة النِّقْرس مَرْجِعَهُ من تازا لِفَاس، ليلة الجمعة خامس وعشري ذي القعدة، عام واحد وثلاثين وسبعمائة (25 ذي القعدة 731/ متم غشت 1332)، فدفن أولاً ببعض قبابه بفاس[121].

وذكر السيد بِيلْ "Bel" في كتابه المسمى «الكتابات العربية المنقوشة بفاس»

"Inscriptions Arabes de Fès" [122] احتمال وجود قبره بجامع الجنائز من المسجد الكبير بفاس الجديد، لأنّه عُثِر على قبرية هناك عليها اسمه.

ولكن يُحْتمل أنَّ هذه القبرية كانت وُضعت على قبره قبل نقله إلى شالة، وهو ما في "المسند الصحيح الحسن" لابن مرزوق.[123]

وفي "روضة النسرين في دولة بني مرين" لابن الأحمر[124] كذلك، أنه نُقل إلى رباط الفتح، ودُفن مع أسلافه جوار أخيه أبي يعقوب يوسف ؛ وقبره اليوم غير معروف.

ويُقال إن رخامته نُقلت لبعض المتاحف.

---

120) ابن خلدون، ص 349، ج 2، طبع الجزائر «وروضة النسرين»، ص 17، طبع الجزائر.

121) «الاستقصا»، ص 57، ج 2، طبع القاهرة، وص 116 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001. و«كشف العرين»، ص 16، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

122) ورقة 43-44.

123) ورقة 30، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

124) ص 19، طبع باريس سنة 1336/1917.

وفي ذلك يقول أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في رجزه :[125].

وَلَمْ يَزَلْ أَبُو سَعِيدٍ فِي عُلاَهْ حتَّى أَتَى الخَيْرُ فَجَدٌّ مُنْتَهَاهْ
أُصِيبَ بِالنِّقْرِسِ تُمَّتَ قَضَى سَنَةَ إِحْدَى وَثَلاَثِينَ مَضَى
مِنْ بَعْدِ سَبْعِمِائَةٍ بِفَاسِ (731) وَسِيقَ لِلْمَدْفَنِ فِي ائْتِنَاسِ
مَعْ سَلَفٍ لَهُ بِشَلَّةَ وَقَرّ لِصْقَ أَخِيهِ يُوسُفٍ فَلْيُعْتَبَرْ
وَقَبْرُهُ لِلْعَهْدِ لَيْسَ يُعْرَفُ وَنُقِلَ المَشْهَدُ فِيمَا يُتْحَفُ

* الحرة عائشة والدة أبي سعيد

لما تُوُفيت الحرة عائشة، بنت الأمير أبي عطية مُهَلْهِل بن يحيى الخلطي، والدة أبي سعيد المتقدم الذكر بتلمسان، سنة ست وثلاثين وسبعمائة (1335/736)، نُقِلَ شَلْوُها إلى رباط الفتح، ودُفن بشالة في المقبرة الملكية، مع الأسرة المالكة، وكانت من فضليات النساء وصالحتهن.[126]

* الأمير أبو مالك بن السلطان أبي الحسن

ولمَّا استُشهد أمير الثُّغور الأندلسية، أبو مالك بن السلطان أبي الحسن في وقعة طريف التي محّص الله فيها المسلمين سنة أربعين وسبعمائة (1339/740)، تفجّع عليه والده واحتسب أجره عند الله.[127]

ثُمَّ نُقلت جثّته إلى رباط الفتح ، وأُقْبِرت بشالة في مقبرة الدّولة الرسمية.

وقد وقف القنصل الفرنسي شينيي "Chénier" على رخامة ضريحه، ونصّ على ذلك في كتابه المسمى : « أبحاث في تاريخ المغرب والمغاربة» ، واستدلّ عليه بالأثر الذي عثر عليه بنفسه[128].

---

125) ص 118، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

126) «المسند الصحيح الحسن»، لابن مرزوق، ص 30، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

127) «الاستقصا»، ص 65، من ج 2، طبع القاهرة، وص 133 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

128) ص 287، من ج 3، طبع باريس.

* شمس الضحى زوج أبي الحسن وأم أبي عنان

شمس الضُّحى - حظية السلطان أبي الحسن، وأمُّ السلطان أبي عنان - أم ولد رومية. توفيت أثناء محنة أبي الحسن، وانتزاء ولدها أبي عنان على الملك.

فحملها إلى رباط الفتح بعد وفاتها بواحد وعشرين يوما، واحتفل بجنازتها احتفالاً عظيما، حضره أعيان المشرق والمغرب(129)، ودفنها بقبة أضرحة الملوك، وقبرها بشالة معروف إلى الآن.

وكتب على القبرية التي وُضعت عليه ما نصه :

الحمد لله

هذا قبر مولاتنا الحرَّة الطاهرة التَّقية الصَّالحة، أمُّ السلطان الخليفة الإمام، الذي جلَّت أوصافه الجميلة، ومحامده الجليلة، عن أن تُحصى بلسان، أوْ تُرسم ببنان، أمير المومنين، المتوكل على رب العالمين، أبي عنان بن أمير المسلمين أبي الحسن، بن الخلفاء الأئمة العظماء الأعيان، أسكنها الله فسيح الجنان، وتلقَّاها بالعفو والغفران.

وكانت وفاتها، في ليلة السبت الرابع لرجب الفرد عام خمسين وسبعمائة (04 رجب الفرد 750/19 شتنبر 1349).

ودُفنت في إثر صلاة الجمعة الخامس والعشرين من الشهر المذكور، بمشهد مولانا الخليفة المنصور، ومن وَفَدَ لحضور دَفْنها من أعيان المشرق والمغرب.

أيَّد الله تعالى أوامره، وشيَّد معاليه ومفاخره، وأبَّد آثاره الكريمة ومئاثره، وكان وليه وناصره، وجمع له بين خير الدنيا والآخرة.

وقد عُثر مؤخرا أثناء البحث الأرْكيولوجي في أنقاض شالة، قُرْبَ قبَّة ضريح السلطان أبي الحسن على عدَّة سواري رخامية محطمَّة، منها سارية قطر دائرتها 0،40 م، مطوَّقة أسفلَ تاجها بخاتمٍ نُقش عليه بالخط المغربي العادي :

"اللهم ارحمها، رب اغفر وارحم، وتجاوز عمَّا تعلم، الكريم ... العلي الأعظم..."

---

129) «الاستقصا»، ص 89، من ج 2، طبع القاهرة،

و«كشف العرين»، ص 19، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا. وص 175 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وقيل : لعلَّ السَّارية كانت بضريحها، ونُقِلَتْ إلى ضريح أبي الحسن، لأنَّ الدعاء المكتوب عليها للمؤنَّث.

* السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق

لمَّا رجع السلطان أبو الحسن من حروبه بإفريقية الشمالية وتونس مهيض الجناح، مضيما منكوبا، ونَجَا من الغرق في البحر على سبيل خرق العادة، وأدَّتْه خاتمة المطاف إلى الالتجاء لجبل هنتاته، فحاصره فيه ولده أبو عنان، حتَّى أتاه أجله في الثالث والعشرين من ربيع الثاني، سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة (752).

هكذا عند ابن خلدون[130] وابن الخطيب في «رقم الحلل»[131].

وقال أبو العباس الناصري في "الاستقصا "[132] "وكشف العرين عن ليوث بني مرين"[133] :

والذي رأيته مكتوبا على رخامة قبره بشالة، أنَّ وفاته كانت ليلة السابع والعشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة.

ويُؤيّده ما عُثر عليه منقوشاً على الرخامة التي كانت على قبره بمراكش كما سيأتي.

فُدفن أولاً قُبْلى جامع المنصور من القصبة المراكشية في الروضة التي هي قبور ملوك الأشراف السّعديين.

وكُتِب على الرخامة التي وُضعت على قبره موقَّتاً ما ياتي :

"الحمد لله

هذا أول ضريح دُفن به مولانا السلطان المرحوم، أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن بن مولانا السلطان المرحوم، أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي يوسف، يعقوب بن عبد الحق.

130) ص 425، من ج 2، طبع الجزائر.

131) ص 96، من ج 3، طبع تونس، سنة 1937/1316.

132) «الاستقصا»، ص 85، من ج 2، طبع القاهرة، وص 163 من ج 4، لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

133) ص 17، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وكانت وفاته في ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الأول عام اثنين وخمسين وسبعمائة (752).

ودُفِنَ بهذا الضريح المبارك، عصْرَ يوم الأربعاء التَّالي لليوم المذكور.

ونُقِل إلى تربة أسلافه الكرام - رحمهم الله - بشالّة في اليوم السادس عشر من جمادى الأولى من العام المذكور".

وقد تضمّنت هذه الرخامة تاريخ وفاته، وتاريخ دفنه بمراكش وتاريخ نقله إلى شالة.

ثم لمّا نهض أبو عنان من مراكش إلى فاس، حمل شلو أبيه معه، وعرّج على رباط الفتح، ودفنه بالضريح الذي كان أعدّه لنفسه، وكتب على القبرية التي وضعت عليه :

"هذا قبر مولانا السلطان، الخليفة الإمام، أمير المسلمين وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن بن مولانا السلطان الخليفة الإمام، أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سعيد بن مولانا السلطان، الخليفة، أمير المسلمين وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، قدّس الله روحه، ونوَّر ضريحه.

تُوفي - رضي اللّه عنه - بجبل هنتاتة، في ليلة الثلاثاء السابع والعشرين لشهر ربيع الأول، عام اثنين وخمسين وسبعمائة (752).

وَقُبِرَ في قِبلة جامع المنصور من مرّاكش، عمَّره اللّه بذكره، ثُمَّ نُقِل من هناك، إلى هذا الضريح المبارك المقدّس من شالّة، ألحقَه الله رضوانه، وبوّأه جنانه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم ".

ومازال ضريحه قائم العيْن والأثر إلى الآن.

وفيه يقول أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في رجزه :[134]

ثُمَّتَ سِيقَ لِلضَّرِيحِ الأَكْرَمِ	الذي بَنَاهُ رَبُّهُ فِي القِدَمِ
حَوْلَ الجُدُودِ وَالذِين سَلَفُوا	بِشَلَّةٍ وَحُسْنُهُ مُعَرَّفُ
فَأَوْدَعُوهُ لَحْدَهُ المُكَرَّمَا	وَدَامَ لِلْحِينِ مَزَارًا عُظِّمَا

134) ورقة 120، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وقد حضر مواراته الوزير لسان الدين ابن الخطيب بشالّة، لمّا جاء مُعَزّيًا فيه من قبل سلطانه ابن الأحمر. قال في «رقم الحلل»: [135].

"وكان من مواهب الله قبلى المخلفة ذخرًا للولد، وعُدة لليوم والغد، ما خصّني به من مَزِيّة حب هذا المولى الصالح، والتشيع إلى جنابه العلوي وقربه، وإحراز الوسيلة به، وانْفِرادي ما بين أبناء جنسي بالعدوتين بخدمته، من بعد موته.

فحضرت موارَاته على بُعد الدار، وشَحْط المزار، في غرض الرسالة، عن السلطان الذي عَصَب بي خطّة الوزارة والكتابة بالأندلس، المَولى أبي الحجّاج بن نصر، رحمة الله تعالى عليه.

فأخذت بالحظّ الرّغيب من بركة مشهده، وتلاوة الكتاب العزيز على ملحده، وتأدية حقّه في الدّعاء إلى الله بإعلاء درجته، وإكرام نزله في دار كرامته، والتّردُّد على زكي تربته".

وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا في بحث أخباره بسلا أثناء الكلام على قدومه المرة الأولى للمغرب.[136]

ثم إنّه بعد ما رجع إلى المغرب في عهد محنته، واستقراره بسلا، صار يتردّد على شالّة محترما بمن أُقْبِرَ بها من الملوك، وخصوصاً السلطان أبا الحسن، متقرّبا بذلك إلى ولده السلطان أبي سالم، وحينئذ رثاه بقصيدة مؤثرة تُعدُّ من غُرَرِ شِعْره، ضمّنها قُدسية شالّة وحُرمتها، وأشاد بذكر السلاطين والأمراء المقبُورين بها.

- قال في «رقم الحلل»: [137]

"ولمّا ضرب الدهر ضرباته، واستقرت حملته بالمغرب عند الانزعاج من الأندلس، والحادثة بها على الدّولة، انتدبت إلى القيام بما أغفل الدهر من حقّه، وشغل عنه من مكافأة نعمته، لنكير من استولى بعده على أمره.

فصرفتُ وِجهتي إليه، واخترت حماه دارًا، ومثواه للأهل والأولاد قراراً، وقصرتُ غرض وجهتي على خدمته، وحَطَطْتُ الرّحل في كَريم جواره، وأنشدت بقبره، يوم الوفادة عليه، وقد حُشرت الأعلام، وأنصتَ الجمع إلى قوْلي في رثائه، والثّناء عليه، بما سار به المثل، وتحدّث به الركبان:

135) ص 97، طبع تونس سنة 1335/1916.

136) يراجع كتاب المؤلف المعنون: «ابن الخطيب بسلا»، وهو من منشورات الخزانة الصبيحية بسلا سنة: 1988/1409.

137) ص 97، طبع تونس، سنة 1916/1335.

إنْ بَانَ مَنْزِلُهُ وَشَطَّتْ دَارُهُ ... قَامَتْ مَقَامَ عِيَانِه أَخْبَارُهُ
قَسِّمْ زَمَانَكَ عِبْرَةً أَوْ عَبْرَةً ... هَذِي ثَرَاهُ وَهَذِه آثَارُهُ
إنَّا إلَى الرَّحْمَانِ منَّا أنْفُساً ... تَدْرِي الصَّوَابَ وَشَأْنُهَا إنْكَارُهُ
مُدَّتْ منَ الآمَالِ إلاَّ كَاذِباً ... يَاطَالَمَا خَدَعَ النُّهيَّ غَرَارُهُ
لاَ تَخْدَعَنَّ بِزِينَةٍ مَنْ زُخْرُفٍ ... عَمَّا قَلِيلٍ يُسْتَرَدُّ مُعَارُهُ
مَنْ سَالَمَ الدُّنْيَا يُسَالِمْ حَيَّةً ... مَرْهُوبَةً فَلْيَدْرِ كَيْفَ حِذَارُهُ
كَيْفَ الخَلاَصُ لِهَارِبٍ قَدْ جَدَّ فِي ... طَلَبٍ حَثِيثٍ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ
جَيْشَانِ مِنْ رُومٍ وَزَنْجٍ أَحْدَاقَا ... بِطَرِيدِ مَعْرَكَةٍ فَبَانَ فِرَارُهُ
يَدْعُو بِنَا الدَّاعِي وَيُغْرِي بِالمُنَى ... شَأْنَ امْرِئٍ قَدْ خَانَهُ اسْتِبْصَارُهُ
وَالمُتَّقَى كَثَبٌ وَإنْ طَالَ المَدَى ... وَتَقَلَّبَتْ بِمُعَمَّرٍ أَطْوَارُهُ
وَوَرَاءَ غَفْلَتِنَا مَعَادٌ جَامِعٌ ... هَاتِيكَ جَنَّتُهُ وَهَاذِي نَارُهُ
أَيْنَ المُلُوكُ بَنُو المُلُوكِ وَمَنْ إذَا ... طَلَبَ الصِّعَابَ تَيَسَّرَتْ أَوْطَارُهُ
مِنْ كُلِّ بَدْرِ دُجًى وَشَمْسِ ظَهِيرَةٍ ... وَغَمَامِ جُودٍ لاَ يَنِي مِدْرَارُهُ
فَاذَا غَزَا فَمِنَ الدِّمَاءِ مُدَامُهُ ... وَمِنَ الصَّهِيلِ إذَا انْتَشَى مِزْمَارُهُ
هَذَا أَمِيرُ المُسْلِمِينَ وَمَنْ جَرَى ... مَثَلاً شَرُودًا مَجْدُهُ وَفَخَارُهُ
هَذَا أَبُو حَسَنِ بْنِ عُثْمَانَ الذِي ... كَرُمَتْ عَنَاصِرُهُ وَطَابَ نِجَارُهُ
قَصَدَتْهُ عَادِيَةُ الزَّمَانِ فَأَقْصَدَتْ ... لَمْ تُغْنِ عَنْهُ عِنْدَهَا أَنْصَارُهُ
مِنْ بَعْدِ مَا فَتَحَ الفُتُوحَ وَدَوَّخَ الْـ ... ـمَعْمُورَ حَتَّى أَذْعَنَتْ أَقْطَارُهُ
مِنْ بَعْدِ مَا خَلَفَ الغَمَائِمَ جُودُهُ ... عِنْدَ الهُطُولِ فَأَغْرَقَتْ أَمْطَارُهُ
مِنْ بَعْدِ مَا قَضَتِ النُّذُورَ رِمَاحُهُ ... مِنْ بَعْدِ مَا شَفَتِ الصُّدُورَ شِفَارُهُ
يَا زَاجِرَ البُدْنِ القِلاَصِ يُقِيمُهُ ... إنْجَادُهُ وَتُقِيمُهُ أَغْوَارُهُ
وَتحُثُّهُ الزُّلْفَى لِيَقْصِدَ عِبْرَةً ... فِي الدَّهْرِ طَالَ لأَجْلِهَا اسْتِعْبَارُهُ
عَرِّجْ عَلَى الْوَادِي المقدَّس[138] والحمَى ... وَاقْصِدْ ضَرِيحاً لاَ يَخِيبُ جِوَارُهُ
وَمَقَامَ بِرٍّ عُظِّمَتْ حُرُمَاتُهُ ... وَاخْتَالَ فِي خِلَعِ الرِّضَى زُوَّارُهُ
تُقْضَى مَنَاسِكُهُ وَيُمْسَحُ رُكْنُهُ ... أَبَداً وَتُقْذَفُ بِالدُّمُوعِ جِمَارُهُ

---

138) الوادي المقدّس هو شالّة.

كَمْ فِيهِ مِنْ لَيْثٍ هِزَبْرٍ مَّا سَطَا ... إِلاَّ وَمِنْ بِيضِ الظُّبَا أَظْفَارُهُ
وَمُنَاخِ فَضْلٍ أَقْصَرَتْهُ يَدُ الرَّدَى ... وَهِلاَلَ تَمٍّ خَانَهُ إِبْدَارُهُ
فَكَأَنَّمَا أَجْدَاثُهُمْ لَمَّا بَدَتْ ... آيَاتُ وَعْظٍ رُتِّبَتْ أَسْطَارُهُ
رَوْضٌ تَأَرَّجَ عَرْفُهُ وَتَرَنَّمَتْ ... أَطْيَارُهُ وَتَهَدَّلَتْ أَشْجَارُهُ
خَضِرُ الجَنَابِ سَقَى مَعَاهِدَهُ الحَيَا ... وَعَلاَ عَلَى كَنْزِ الجَلاَلِ جِدَارُهُ
لِلَّهِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ثِيَابُهُ ... مِنْ مَّفْخَرٍ بِالحَمْدِ طَارَ مَطَارُهُ
وَلَرُبَّ رَكْبٍ أَعْمَلَتْ لِمَزَارِهَا ... أَقْتَادَهُ وَاسْتَوْتَرَتْ أَكْوَارُهُ
جَعَلُوا النَّسِيمَ دَلِيلَهُمْ وَقَدِ اخْتَفَى ... عَلَمُ الطَّرِيقِ فَدَلَّهُمْ مِّعْطَارُهُ
طَابَتْ مَعَاهِدُهَا بِخَيْرِ خَلِيفَةٍ ... مَنْ زَارَهُ غُفِرَتْ لَهُ أَوْزَارُهُ
مَنْ كَانَ يُعْدَلُ بِالسَّحَائِبِ جُودُهُ ... مَنْ كَانَ يُوزَنُ بِالجِبَالِ وَقَارُهُ
لَوْ رَامَ... النُّجُومِ...(139) ... حَتَّى يَحِطَّ عُلُوهَا اسْتِقْرَارُهُ
وَلَكَانَ دِرْهَمُهُ الذِي يَسْمُو بِهِ ... بَدْرُ السَّمَاءِ وَشَمْسُهَا دِينَارُهُ
أَوْ خَافَ طَيْرُ الجَوِّ مِنْ سَطَوَاتِهِ ... لَفَظَتْهُ مِنْ أَرْجَائِهَا أَوْكَارُهُ
مَلِكُ المُلُوكِ أَجَلُّ مَنْ كُسِيَ التُّقَى ... بُرْداً وَشُدَّ عَلَى العَفَافِ إِزَارُهُ
مَلِكُ المُلُوكِ وَنُخْبَةُ النُّخَبِ الذِي ... عُرِفَتْ عَلَى طُولِ المَدَى أَنْوَارُهُ
يَا فَارِجَ الأَزَمَاتِ بِالقَلْبِ الذِي ... مَهْمَا ارْتَمَى ذُلَّتْ لَهُ أَخْطَارُهُ
يَا مُجْزِلَ الصَّدَقَاتِ فِي جُنْحِ الدُّجَى ... وَاللَّيْلُ قَدْ سُدِلَتْ لَهُ أَسْتَارُهُ
يَا كَافِلَ الأَيْتَامِ يَدْفَعُ عَنْهُمُ ... بِنَدَاهُ جَوْرَ الدَّهْرِ أَوْ أَضْرَارُهُ
يَا مَنْ تَكَفَّلَ بِالأَمَانِ يَمِينُهُ ... لِلآمِلِينَ وَبِاليَسَارِ يَسَارُهُ
يَا مَنْ بِوَحْيِ اللَّهِ فِي خَلَوَاتِهِ ... ضَاءَ الدُّجَى وَتَأَرَّجَتْ أَسْحَارُهُ
يَا عَابِرَ الجَيْشِ الكَثِيفِ كَأَنَّهُ ... بَحْرٌ تَلاَطَمَ بِالقَنَى زَخَّارُهُ
حُشِرَ الأَنَامُ فَمَا يُؤَمَّلُ حَصْرُهُ ... بِشَبَا اليَرَاعِ وَلاَ يُطَاقُ حِصَارُهُ
يَا مُلْبِسَ الأَوْرَاقِ مِنْ نُّورِ الهُدَى ... حُلَلَ الجَمَالِ تَأَلَّقَتْ أَنْوَارُهُ
فَكَأَنَّمَا أَطْرَاسُهَا مُبْيَضَّةٌ ... غُرَرُ الصَّبَاحِ إِذَا بَدَا إِسْفَارُهُ
وَكَأَنَّ ذَاكَ الحِبْرَ مِنْ غَسَقِ الدُّجَى ... وَكَأَنَّ زُهْرَ نُجُومِهِ أَعْشَارُهُ

139) بياض بالأصل.

يَا سَـابِقَ الخُلَفَـاءِ فِي طَلْقِ العُـلاَ   وَالمَكْرُومَـاتِ فَـمَـا يُشَقُّ غُـبَـارُهُ
يَا مُـسْتَـهِينَ الخَطْبِ لَمَّا أَعْضَلَتْ   أَدْوَاؤُهُ وَتَـكَـالَـبَـتْ أَشْـــــــرَارُهُ
وَمُـقَابِلَ التَّمْـحِيصِ بِالصَّبْرِ الذِي   زُرَّتْ عَلَى مَـبْـدَا الهُـدَى أَزْرَارُهُ
وَالتِّبْرُ لَوْلاَ السَّبْكِ وَالتَّمْـحِيصِ لَمْ   يُشْـتَقَّ مِنْ خُبْثِ التُّـرَابِ نُضَـارُهُ
تَبْكِي عَلَيْكَ مَـعَـاهِدُ المُلْكِ التِـي   كَـانَتْ بِشَـمْسِكَ تَهْتَـدِي أَقْـمَـارُهُ
تَبْكِي عَلَيْكَ مَـــدَارِسُ العِلْمِ الذِي   بِكَ صَـاحَ حَيَّ عَلَى الفَـلاَحِ مَنَارُهُ
نَمْ وَادِعـاً وَاهْنَأْ جِـوَارَكَ فِي جِـوَا   رِ اللَّهِ قَـدْ نَالَ السَّـعَـادَةَ جَـارُهُ
وَاعْلَـمْ بِأَنَّ سَـــرِيرَ مُلْكِكَ حَلَّـهُ   مَنْ أَنْتَ لَوْ خُـيِّــرْتَهُ مُـخْـتَـارُهُ
مَنْ هـزَّ دَوْحَ رِضَـاكَ مُـمْـتَـازاً بِهِ   حَـتَّى دَنَتْ مِنْ رَاحَـتَـيْـهِ ثِمَـارُهُ
خَلَّفْتَ إِبْرَاهِيمَ خَـيْـرَ خَلِيـفَـةٍ   لِلْمُـسْلِمِـينَ قَـدِ اسْتَـقَـرَّ قَـرَارُهُ
مَـــوْلاَكَ مَـــوْلاَهُ وَعَـــدْلُكَ عَـــدْلُهُ   وَحُـــلاَكَ حِلْيَـــتُـــهُ وَدَارُكَ دَارُهُ
وَرِضَـــاكَ طَاعَـــتُـــهُ وَبِرُّكَ دَأْبُهُ   وَدُعَـــاؤُهُ لِعُـلاَكَ وَاسْـتِـغْـفَـارُهُ
حَـتَّى كَـأَنَّكَ لَمْ تُغَـيَّبْ فِي الثَّـرَى   وَكَـأَنَّ عُـمْـرَكَ سَاعَـدَ اسْـتِمْـرَارُهُ
وَالغَـيْثُ يُقْلِعُ ثُمَّ تَحْـيَـا بَعْـدَهُ   فِي الرَّوْضِ عَنْ بَرَكَـــاتِهِ أَزْهَـارُهُ
يَغْنِيكَ مِنْهُ سَـعَـادَةَ البَـدْرِ الذِي   لَزِمَ الكَمَـالَ فَـمَـا يُخَـافُ سِـرَارُهُ
مِنْ شَـمْسِ ذَاتِكَ قَـدْ أَمَـدَّ هِلاَلَهُ   وَبِقُطْبِ سِيـرَتِكَ اسْـتَـقَامَ جِـدَارُهُ
زَوَّدْتَهُ بِـرِضَـــاكَ عِنْدَ وِدَاعِـــهِ   وَالهَـوْلُ قَـدْ مَـاجَتْ لَدَيْكَ بِحَـارُهُ
وَتَرَكْـتَـــهُ بِيَـــدِ الإِلاَهِ وَدِيعَـــةً   فَـتَـضَـمَّنَتْ لَكَ حِـفْظَهَـا أَقْـدَارُهُ
عُـــوِّضْتَ مِنْ دَارِ الغُـــرُورِ بِمَنْزِلٍ   لِلْخُلْدِ تَجْـرِي تَحْـتَـــهُ أَنْهَـارُهُ
وَتَعَـاهَدَتْكَ مِنَ ابْنِكَ القُـرْبَى التِي   تَمْـتَـارُ نَحْـوَ رِضَـاكَ مَـا تَمْـتَـارُهُ
لاَ يَشْـمَتِ الأَعْدَاءُ كَوْنَكَ فِي الثَّرَى   فَـالمَـوْتُ حُكْمٌ لَيْسَ يُخْشَى عَـارُهُ
وَإِذَا جَرَى المَقْدُورُ فِي بَدْرِ الدُّجَى   يَوْمًـا أُيُجْـهَلُ بَعْـدَهُ مِـقْـدَارُهُ
وَالخَلْقُ زَرْعٌ لِّلْحِـصَـــادِ مَـــآلُهُ   وَإِذَا اسْـتُـحِقَّ فَمَا عَسَى إِنْظَارُهُ
فَإِلَى المَمَـاتِ إِذَا اسْـتَهَلَّ حَيَاتُهُ   وَإِلَى المَـشِـــيبِ إِذَا أَطَلَّ عِـذَارُهُ

وَهْيَ اللَّيَالِي كُلَّمَا عَثَرَ امْرُؤٌ   يَوْمًا أَبَتْ مِنْ أَنْ يُقَالَ عِثَارُهُ
وَالدَّهْرُ مِنْ فَتَكَاتِهِ لاَ يَنْثَنِي   وَأَخَصُّ مَنْ يَشْقَى بِهِ أَحْرَارُهُ
مَا بَالُ قَيْصَرَ إِذْ جَفَتْهُ قُصُورُهُ   لَمْ تُغْنِ عَنْهُ طِوَالُهُ وَقِصَارُهُ
مَا بَالُ كِسْرَى لَمْ يُدَافِعْ سُورُهُ   عَنْهُ الرَّدَى يَوْمًا وَلاَ أَسْوَارُهُ
وَاسْأَلْ عَنِ النُّعْمَانِ حِيرَتَهُ وَقَدْ   عَشِقَ الشَّقِيقَ الغَضَّ فَهْوَ شِعَارُهُ
شَقَّتْ عَلَى مَنْعَاهُ حُمْرُ قِبَابِهِ   وَشَقِيقُهُ أَلِفَ الذَّوَى وَبَهَارُهُ
عَبَسَ الزَّمَانُ لآلِ عَبَّاسٍ فَمَا   يُرْجَى تَهَلُّلُهُ وَلاَ اسْتِبْشَارُهُ
وَبَنُوا أُمَيَّةَ قَدْ أَدَارَ عَلَيْهِمُ   قَدَحًا تَفَشَّتْ فِي الجَمِيعِ عُقَارُهُ
وَبَنُوا عُبَيْدٍ إِذْ تَعَبَّدَ مُلْكَهُمْ   سُلْطَانُ مِصْرٍ أَذْعَنَتْ أَمْصَارُهُ
أَخْنَى عَلَى آثَارِهِمْ فَأَبَادَهُمْ   فَلَكٌ فَكَرَّ عَلَيْهِمُ دَوَّارُهُ
مَوْلاَيَ خُذْهَا خِدْمَةً مِنْ نَادِبٍ   ذَكَرَ العُهُودَ فَهَاجَهُ تَذْكَارُهُ
يَرْضَى الرَّضِيُّ بِهَا إِذَا مَا أُنْشِدَتْ   يَوْمًا وَيَعْرِفُ فَضْلَهَا...[140] رُهُ
قَدَحَتْ زِنَادُ الشَّوْقِ نَارَ شُجُونِهِ   وَإِذَا قَدَحْتَ الزَّنْدَ طَارَ شَرَارُهُ
عَاقَ الأَعَادِي عَنْ رِثَائِكَ بُرْهَةً   فَغَدَا الغَبِيُّ وَشَانَهُ إِسْرَارُهُ
وَاليَوْمَ حَلَّ عِقَابُ كُلِّ مُدَرَّبٍ   مَاضِي الشَّبَا يَفْرِي الْفَرِيَّ غِرَارُهُ
وَكَذَا الحُسَيْنُ مَضَى وَلَمْ يُنْدَبْ إِلَى   زَمَنٍ تَوَالَتْ بَعْدَهُ أَعْصَارُهُ
حَقٌّ عَلَى مَنْ يَسْتَطِيعُ لِسَانُهُ   صَوْغَ النِّظَامِ أَوِ النِّثَارِ بِدَارُهُ
لَمْ يَبْقَ عَنْ أَهْلِ الضَّرُورَةِ مَانِعٌ   فَاليَومَ يَنْفَعُ مُكْثِرًا إِكْثَارُهُ
وَعَلَى الإِطَالَةِ وَالإِصَابَةِ إِنَّمَا   هِيَ تَافِهٌ يُزْرِي بِهِ اسْتِنْزَارُهُ
عُذْرًا لِقَوْمِكَ عَنْ مَقَامِ مُقَصِّرٍ   وَالعَبْدُ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ إِقْرَارُهُ
مَنْ رَامَ أَمْرًا لاَ يُنَالُ مَرَامُهُ   بِالجَهْدِ كَانَ إِلَى القُصُورِ قِصَارُهُ
وَإِذَا امْرُؤٌ وَافَى بِمَا فِي وُسْعِهِ   سَقَطَ المَلاَمُ وَرُوعِيَتْ أَعْذَارُهُ

140) بياض بالأصل.

ثم قال :[141]

وبعد الفراغ من إنشادها عند لحده المقدس، ذيَّلتها بكلام في هذا المعنى، وقرَّرتُ ما ورد في الشرع من سماعه ما يلقى، وانتفاعه بما يذكر ويتلى، وارتديت بثوبه في مآرب الدنيا والآخرة ". اهـ.

هذا، وبعد أبي الحسن لا نعرف أحداً من سلاطين بني مرين أُقْبر بمقبرتهم بشالّة، وإنَّما كانوا يقبرون بالمقبرة التي كانت خاصَّة بهم بالقلّة، بِأعلى جبل الزعفران، خارج باب الجيسة بفاس.

ما عدا واحد منهم، وهو الواثق بالله، أبو زيان، محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن، فقد قُتل بطنجة، ودُفن بها، سنة تسع وثمانين وسبعمائة (789/1387).

على أنَّ السُّور المحيط بهذه المقبرة الشلاّوية المرينية، يَضُمُّ عدداً آخر من أجداث الأمراء وأفراد الأسرة المالكة المرينية، حسبما يؤخذ ذلك ممَّا عُثر عليه مُبَعثرا من الشواهد والقبريات المحطَّمة في فضائه، وكلُّها تناثرتْ حروفها، وتقاطعت جُمَلها، وصعُبت قراءتها، لاختفاء معانيها.

ومنها قبرية عُثر عليها وراء ضريح سيدي الحسن الإمام، لم يبق مِمَّا كان مكتوبا عليها إلاَّ هذه الجمل المُقطَّعة :

"الحمد لله

هذا قبر مولانا ابن الا .... العبَّاس بن مولانا أبي سالم بن أبي الحسن توفي........ لسابع شوال عام تسعة وستين وسبعمائة (769) ....

ودفن بالبقعة ....

الموفى عشرين من جمادى الأولى عام ستة وسبعين وسبعمائة 776.

ولا يخفى أنّ سابع شوال عام تسعة وستين وسبعمائة (769) يُوافق 27 ماي سنة 1386، وعشرين جمادى الأولى عام ستة وسبعين وسبعمائة (776) يوافق 27 أكتوبر سنة 1374.

ويُؤخذ من هذا، أنَّ صاحب هذه القبرية، نُقِل إلى شالّة، بعد وفاته بنحو سبعة أعوام.

141) «رقم الحلل»، ص 102، طبع تونس.

وليس هذا الأمير، هو السلطان أبو العباس بن أبي سالم، لأنّ وفاته كانت بتازا في المحرم عام ستة وتسعين وسبعمائة (1393/796).

وَسِيقَ إلى مدينة فاس، ودُفن فيها مع من تقدّمه من أسلافه بالقلّة، التي هي مدفن بني مرين بفاس كما في «الاستقصا»[142] و«سلوة الأنفاس»[143].

وتاريخ وفاة هذا الأمير صاحب القبرية، جمادى الأولى سنة تسع وستين وسبعمائة (1368/769)، فبينهما نحو سبع وعشرين سنة، والله أعلم.

ومنها قبرية أخرى أخذ منها البِلَى كل مأخذ، وكلها كانت مُلطّخة بالجبس والجير والطين، عُثِرَ عليها يسار الطريق المحصّبة المُمْتدّة من الباب الأثري الكبير، إلى قبة الضريح، وهي الآن خارج الخلوة، ولم يبق مقروءًا مِمَّا كان مكتوبا عليها إلاّ هذه الجمل :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

هذا قبر ... ؟

ومنها عدة قبريات أخرى، إمّا كاملة، أوْ ناقصة، مفرّقة حول المسجديْن، لا يُدْرَى ما فيها، لذهاب كتابتها، واختفاء حروفها، فضلاً عن معانيها.

ولا يبعد أنّ عددا آخر منها اضمحلّ أوْ سُرِقَ، أوْ استُعمل في غير ما جعل له، أوْ لا زال مَطْوياً تحت طبقات الأرض وأطْنان التُّراب.

لأنّ الحسن الوزّان، أوْ ليون الإفريقي، زار شالة سنة خمس عشرة وتسعمائة (1510/915)، وذكر أنّه وقف على ثلاثين قبراً أو قبرية مرينية مكتوبة، مع اعتبار أنّ زيارته لشالّة، كانت بعد مرور ما يزيد على مائتي سنة من إحْدَاثِ المقبرة المرينية بشالة .

وجاء في تاريخ أبي عبد الله الضُّعيف[144] أنّ السلطان المولى سليمان، دَخل رباط الفتح يوم الإثنين عاشر جمادى الآخرة سنة أربع وعشرين ومائتين وألف (10 جمادى الآخرة 23/1224 يناير سنة 1809)، وزار قبر والده سيدي محمد بن عبد الله، فوجد فوقه ثابوتا (نقيرا) فقال : "هذا ليس بِسُنَّة، وإنّما هو بِدعة"، ثم خاطب محتسب سلا السيد محمد

142) ص 141 من ج 2، طبع القاهرة. وص 276 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

143) ص 167 من ج 2، طبع فاس.

144) ص 152 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

المصلوحي قائلا : "هذا الأمر من وظيفتك "، وأمره بإزالته ووضعه بشالة على قبر عبد الحق المريني (؟) فرفعه المحتسب ووضعه على القبر المذكور.

ولا نعرف من هو عبد الحق هذا، إذْ لا يوجد بين ملوك بني مرين دفناء شالة من اسمه عبد الحق، اللّهم إلاّ أنْ يكون يعقوب بن عبد الحق، فسقطت لفظة الإسم والبنوّة.

* الوزيـر أبـو زيـان
عريف بن أبي يحيى

وممّن دُفن من وزراء بني مرين مع سلاطينهم بشالّة، الوزير، أبو زيان عريف بن يحيى، ابن عثمان السويدي، ثم الزنجي، ذكره ابن مرزوق "في المسند الصحيح الحسن" (145) وقال :

"إنه كان من وُزراء وَجُلساء السلطان أبي الحسن، وتُوفي في حجْري في قصّة غريبة، لوْلا الإطالة لذكرتها، وذلك بسلا، في صحبة المولى أبي عنان، ودُفن حيث طَلَب، إلى جنْب خليله المولى أبي الحسن بشالّة سنة خمس وخمسين وسبعمائة (755/1354).

وجاء في تعليق على الهامش : أظنه "سنة ثمان".

145) ورقة 27، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

المبحث الرابع

إزدهار شالّة في عهد بني مرين

شالّة ملجأ الصالحين والزّوار والمنقطعين.

تقدّم لنا أنّ بني مرين وجدوا شالّة خاوية على عروشها، فعَمَرُوها، وعاطلة من السكان فحلّوها، وأعادوا الحركة إليها، وأحْيوها بما أسَّسُوه فيها من المؤسسات الخيرية المقدّسة التي جدَّدت لها حرمتها وقدسيتها، واتَّخذها عظماء ملوكهم دار جوار، تُقرب من الرب الكريم الغفّار، وأنّ الآخرة لهي دار القرار، فكانت بهذا الاعتبار، كزاوية النساك بسلا، يقصدها الزُّوار، من سائر الأقطار والأمصار، ويأوي إليها الغُرباء والطلبة والقُراء وأهل الخير والصلاح، المُشار إليهم بالبنان، من الأندلس والمغرب وإفريقية الشمالية كلها في تلك الأزمان.

وممَّن أوى إليها، وثوى بها، الشيخ أبو عبد الله اليابوري،[146] وكانت له بها زاوية خاصَّة، يجتمع عليه فيها الآخذون عنه من الفقراء وطُلاَّب الهداية والإرشاد.

قيل : وهي الزاوية الغربية التي عن يسار الداخل إلى مدافن الملوك من الباب الأثري الكبير.

وبهذه الزّاوية الشلاَّوية[147] لازمه وأخذ عنه الشيخ أبو العبَّاس أحمد بن عاشر دفين سلا، وأقَام معه بها دهراً طويلا، على برّ واستحسان من الشيخ لحاله، رحمه الله.

وكان يسمّيه بالشاب الصّالح، ويامر أهل الفضل ممن تُلْتمس بركته بإيناسه والنظر في مصالحه، وأسْكنه خلوة بهذه الزّاوية، وتسبّب له في إقراء الأولاد القرآن، لأنه كان يختار أنْ ياكل من كَسْبه.

---

146) «السلسل العذب» لابن الحضرمي، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

147) نفس المصدر، و«تحفة الزائر بترجمة أبي العباس ابن عاشر» لأبي العباس الحافي السلاوي، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وكان في مُدة إقامته بهذه الزّاوية تقع له كرامات ومكاشفات مع تلامذته وزُوّاره الآخذين عنه.

وبعد وفاة شيخه – رحمه الله – انتقل إلى سلا، واستقرّ بها إلى أن توفي بها سنة أربع وستين وسبعمائة (1363/764).

وقد تقدمت الإشارة إلى هذا في فصل الكلام على المدرسة أوْ دار الأضياف أوِ الزّاوية بشالّة.

وممَّن كان يتردّد على شالة أيضا من الأعلام، ويُقِيمُ بها اللّيَالي والأيام، الوزير لسان الدين ابن الخطيب، لمَّا كان لاجئًا إلى سلا أيّام نكبته، فكان يَضْرِبُ خيامه بساحتها، ودار أضيافها، ويَصْرِفُ أوقاته ملازماً لأضرحة الملوك المقبورين بها، عاكفًا أمام أجداثهم، متوسلاً إلى سلطان الوقت بهم، مناجيًا أرواحهم، ومستوحيًا منها أفكاره، التي ضمّنها رسائله المختارة، ودبَّج بها قصائده الممتازة وأشعاره، راجيًا استرجاع ماله المسلوب، ومتاعه المنهوب، وذاكرًا أنّه سيبقى مُحترما بشالّة، حتى تُقْضى أغراضه، وتُشْفى أمراضه، وتُزاح عِلَله، وتَزُول أعراضه، ويُوَظف ولده، ويَحُج بإعانة بني مرين، ويُعوَّض بذمته بالأندلس ذمة برباط شالّة ترثها ذُرّيته من بعده، ويُعَيَّن هو من جملة سَدَنة وقَوَمة أضرحة أولئك الملوك، متشرِّفًا بهم، ومخلصاً في خدمتهم، في حياتهم، وبعد مماتهم.

ووصفها ووصف حالتها العمرانية، وقبابها ومشاهدها ومبانيها الفاخرة الزاهرة في «مقامات البلدان»، وفي رسالته المؤرخة في سابع عشر شعبان، عام واحد وستين وسبعمائة (17 شعبان 3/761 يوليوز سنة 1360)، التي خاطب بها السلطان أبَا سالم بعد فتحه تلمسان بأوصاف رائعة، تُشَخِّصُ ازدهارها وعمرانها، واجتماع القُرّاء والمترحِّمين بها، وأنّه كان من جملتهم، منْحَشرًا في زمرتهم، منقطعًا إليهم، وملازمًا لهم، يَدْعو للملوك ويؤمّنون على دعائه.

وقد بَيَّنا ذلك كلَّه مستوفًى في فصل تردده على شالة، في كتابنا "ابن الخطيب بسلا" فليرجع القارئُ إليه إن شاء.

وأشار لها في قصيدته العينية التي خاطب بها أهل سلا، بعد رُجُوعه إلى غرناطة، متشوِّقًا إليهم، وذاكرًا عهدهم، ومشيدًا بمعاهدهم بقوله :

وَسَقَى شَلَّةَ عَهْدٌ مُغْدِقٌ   إنْ هَمَا فِي الرَّبْعِ مِنْهَا وَهَمَعْ

مواسم شالة وأسواقها

لمَّا كانت شالّة بالمثابة التي وصَفْناها بها من أنَّها مشهد مقدَّس، من مشاهد رباط الفتح، ورباط من رباطات الجهاد في سالف عهدها، وماضي تاريخها، ومدفن لملوك الدولة المرينية، ومجتمع لأهل العلم والصّلاح، وحرم ياوي إليه من مسَّه الضر، وعضَّه بنابه الدَّهر، يحتمي بحماهُ ذَوُوا الحاجات، إذَا اشتَدَّت حلقات الأزمات، وعصفت بهم عواصف النائبات.

فقد كانت محلَّ تعظيم وتقديس عند العامّة والخاصَة، ولذلك كانوا يُقيمون بها موسمَيْن مهمَّيْن في كل سنة في وقت مُعيَّن، كما هي العادة في غيرها من أضرحة الأولياء والمقامات المعظمة في المغرب، فيجتمع حول أسوارها وفي ساحاتها المملوءة بالمدافن السلطانية، والمشاهد القديمة والحديثة، الظاهرة والخفية، الوفود الكثيرة، والجماهير الغفيرة، التي تنْسال إليْها من كل صوب وحدب، قاصدة الزيارة، والرّبح والتّجارة، والفوز ببركة تُربتها وما حوته من الآثار العافية، والرّمم البالية.

وينشأ عن هذا الاجتماع سوق عامة، يكثر فيها الأخذ والعطاء، ويكون الّربح مزدوجا : ربْح الدنيا، وربْح الآخرة.

وَلِذلك يُشير أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي، في رجزه بقوله :[148]

وَكَـانَ يَعْـمُـرُ بِهَـا سُـوقَـانِ   فِي كُلِّ عَـامٍ عِـبْـرَةَ الأزْمَـانِ
يُحْـشَـرُ فِـيـهَـا العَـالَمُ الغَـرْبِـيُّ   مِنْ عَـدْوَتَيْـهِ وَكَـذَا الشَّـرْقِـيُ
وَتُجْلَبُ السِّلَعُ وَالبَـضَـائِـعْ   وَيَكْثُـرُ البَـيْعُ وَيُثْـرِي البَـائِـعْ...

وتاريخ إقامة هذه المواسم والأسواق السنوية بها قديم جدا، وما أشبهها بأسواق الغُبَار، التي كانت تُقام بالبادية وحول المدن، فتزدحم فيها المناكب، ويصطدم الرَّاجل بالرَّاكب، وتختلف الأصوات، وتتعدّد اللغات واللهجات.

وقد وصفها ابن الخطيب في «مقامات البلدان»[149] وصفاً كاشفا، يمثل حقيقتها، ويُصوِّر في الخيال مناظرها، بقلمه السّاخر، وبيانه السّاحر. والقلم كاللّسان يقول للنَّاس حُسْنا وينطِقُ لَغْوًا وَهُجْرًا. وإنَّ من البيان لَسِحْرًا.

148) ورقة 20، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

149) ص 97 من «مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب».

وذكرها ووصفها أيضاً الإمام أبو عبد الله، محمد بن عبَّاد في «رسائله الكبرى»،[150] فقال متمثلا بكثرة ضجيجها، وصياح الملا المجتمع بها :

"وأمَّا عمران سوق شالّة، فهو منَّا كمثل وكناية، لأنّها تعمر في الوقتين المعلومين من السنة، ولا تكاد تسمع فيها بأذُن من كثرة الصّياح والضّجيج".

ثم قال :

"ولكن هذا كان فيما خلا من الزمان، وأمَّا اليوم فهي بمنزلة أحد أسواق الغُبار الضعيفة التي تكون في البوادي".

ويؤخذ من قوله : "فيما خلا من الزَّمان"، أنَّها ضعفت أهميتها في زمنه.

وبعد طول الزّمن تناسى النَّاس هذا الموسم، وعوَّضته العامة بموسم آخر يقال له : "موسم كرَّابة الماء بشالّة" أيْ الذين يبيعون الماء في القِرَب المحْمولة على ظهورهم.

فكانوا يُقيمونه في فصل الربيع من كل سنة، وقبل حلُول موعده بنحو الأسبوع، يجتمع هؤلاء الكرّابة، ويطوفون أسواق مدينة الرباط وشوارعها، وربَّما حتى أسواق سلا، بالطبول والغيطات، رافعين الأعلام والرايات، ومعهم ثور كبير، مُزين بزينة خاصّة، ومن ورائهم الجماهير الغفيرة من البطَّالين رجالاً ونساءً وصبيانا، يتقدمهم أربعة منهم، ناشرين إزارا لجمع التبرعات والصدقات.

وفي اليوم المحدّد للموسم، يخرجون صباحاً على هذه الهيئة، رافعين أصواتهم بتلبية الدعوة إلى موسم شالة، ويجدون جموعاً وافرة سبقتهم إليها من أهل العُدْوَتَيْنِ : الرباطية والسلاوية ونواحيهما، ضاربين خيامهم، ناشرين حَوْلَ أشجاره أروقتهم وأخْبِيتهم، رافعين فوقها أعلامهم.

وحينئذ يبتدئ الموسم، ويشترك فيه طوائف أرباب الطرق الأخرى، ويُقربون قربانهم وهديتهم إلى ناحية الخلوة، ويذبحون ثورهم أمام جدار مسجد أبي الحسن وجدثه، ويُسمّونه السلطان الأكحل أوْ مولاي يعقوب، شيخ طائفتهم، وياكلون لحمه مشوياً تبركًا به.

ثم ما شئت بعد ذلك من طست وطار ومزمار، وغناء ورقص وركض بالرجل وفحْص، إلى أن تغرب الشمس، وحينئذ يتفرقون.

---

150) ص 116، طبع فاس.

ولم يزل هذا الموسم يُقام بشالة في أوقاته السّنوية المعلومة إلى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وألف (1920/1339)، فنتج عنه اضطراب اضْطَرَّ الحكومة الموجودة في ذلك العهد إلى إبطال العمل به بشالة، وصار يُقام في بعض زوايا المدينة.

ومن جملة المواسم التي كانت تُقام بشالّة، موسم عرفة، حيثُ يجتمع سُكّان الأحياء المجاورة لها بالرباط على هيأة خاصَّة، حفاة الرأس والأقدام، يتقدَّمهم إمام، ويذهبون إلى مسجد أبي يوسف، ويضعون في محرابه قطعة من ستار الكعبة، ويطوفون حوله سبعة أشواط مُلَبِّين كما يفعل الحجاج ببيت الله الحرام مارّين بالدهليز الصَّغير أو المَمَرّ الذي وراء المحراب.

وبعد ذلك يقضون يومهم في أكلٍ وشربٍ ولَهْوٍ إلى أن تغرب الشَّمس.

ومثل هذا الموسم الذي كان يحتفل به بشالة يوم عرفة كل عام، كان العمل جاريا به ببعض الرباطات الأخرى بالمغرب.

قال الشيخ أبو العبّاس أحمد بن خالد النّاصري – رحمه الله – في مؤلفه "تعظيم المنة، بنصرة السنة" في باب الكلام على البدع المحدثة في الحج :[151]

"ومن البدع المحدثة في الحج الاجتماع عشية يوم عرفة في المسجد أو نحوه، كالاجتماع بضريح الشيخ أبي محمد عبد السّلام بن مَشيش – رضي الله عنه – للدُّعاء، تشبُّها بالحاج، ويُسمُّون ذلك حج المسكين.

وقد أحدثوا مثله في هذه الأيام القريبة العهد بضريح الشيخ أبي سلهامة قرب العرائش، والأمر لله وحده".

وهذه البدعة في أصلها قديمة جداً.

فقد ذكر العلامة الدميري في «حياة الحيوان» :[152] أنّه لمّا وُلِّيَ عبد الله بن الزبير – رضي اللّه عنه – الخلافة بمكة، ولّى أخاه مصعب بن الزبير المدينة، فأخرج منها مَرْوان بن الحكم وبنيه، فَساروا إلى الشّام، ولم يزل عبد الله بن الزبير يُقيم للنّاس الحج من سنة أربع وستين إلى سنة اثنتين وسبعين.

---

151) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

152) ص 51، طبع القاهرة.

ولمّا وُلّي عبد الملك بن مَروان الخلافة بدمشق، مَنَعَ أَهْلَ الشّام من الحج من أجل ابن الزبير، لأنّه كان يأخذُ النّاس بالبيعة إذا حجُّوا، فضجَّ النّاس لمّا مُنعوا من الحج، فبنى عبد الملك قبّة الصّخرة من بيت المقدس، فكان الناس يقفون عندها يوم عرفة، ويُقال إنّ ذلك كان سبب التّعريف أيْ التجمّع في بيت المقدس ومساجد الأمْصار.

وفي شرح «المرشد المعين» للشيخ أبي عبد اللّه، محمد ميَاره رحمه الله، حين تكلّم على زيارة القبر الشريف ما نصه :[153] وكره مالك رضي اللّه عنه لأهل المدينة الوقوف بالقبر الشريف، كلّما دخل أحدهم المسجد أوْ خرج، وقال : إنما ذلك للغرباء لأنّهم قصدوا ذلك".

قال مالك رحمه اللّه :

"ولا بأس لمن قدم من أهل المدينة من سفر أوْ خرج إلى سفر، أنْ يقف بالقبر، فيُصلّي على النبي صلّى الله عليه وسلّم، ويَدْعو لأبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما، ولْيَحْذر الزّائر ممّا يفعله بعض الجهلة من الطواف بالقبر الشريف على ساكنه أفضل الصّلاة وأزكى السّلام، ومن التّمَسُّحِ بالبناء، وإلْقاء المناديل، وهذا كله من المنكرات.

ويُسْتحبُّ له أنْ يزور البقيع والقبور المشهورة فيه، ومسجد قُبَاء، ويتوضّأ من بئر أريس، ويشرب منْها.

وهذا في حقّ من كثرت إقامتُه، وإلاّ فالمُقَام عنده – صلّى الله عليه وسلّم – أحسن ليغتنم مُشاهدته صلّى اللّه عليه وسلّم".

ومن الاحتفالات الدّينية التي كانت تُقام بشالة إبّان ازدهارها في عهد الدولة المرينية، الاحتفال بليلة سبع وعشرين، وهي ليلة القدر.

وقد حضرها ابن الخطيب أيّام مجاورته بها، واحترامه بمدافن ملوكها، لَمّا كان ملتجئًا إلى سلا، فقال في «نفاضة الجراب» :[154]

«وأظلّتْ ليلة سبع وعشرين إحْدى مواسم شالّة المختصّة باستجلاب الأمَم، وتخْيِيم الخِيَم، واحتفال الأسواق، ورفع المغارم، والوَليمة لأهل الخيْر وأولي الهيآت بالضّريح،

153) ص 305، طبع القاهرة.

154) ص 122 وما بعدها من السِّفْرِ الثاني المطبوع.

فاحتفَلَ مُعْتادُ الأطعام، وفُرّقتْ غلاَصِمُ[155] البَهْم، وأُهيلتْ قناقش[156] السَّمْن، واستُدْعيَتْ أصناف الحلواء، واسْتُكْثِر من الوقود، واسْتُدْعِي إلى الإيوان لصقها المُعَدِّ لذلك المُغَنُّون، واسْتُحْضر القاضي والعدول والخواص والأعيان والأمناء...[157].

ببقية جمَّتها من الغد في سبيل الصَّدقة، وأنشد المسْمِع ليْلتئذٍ من نظمي هذه القصيدة.» وكان أنشأها مع نَثْر على لسان سلطانه أبي الحجَّاج يوسف بنْ نصْر مخاطبًا بها سيد المرسلين ص، كما في «نفح الطيب»[158] ولعلَّه لمَّا آوى إلى شالَّة، ورابط برباطها، زاد فيها، وحوَّلها لِمدْحِ ملوك بني مرين المقبورين بها .

إذَا فَاتَنِي ظِلُّ الْحِمَى وَنَعِيمُهُ ... كَفَانِي وَحَسْبِي أَنْ يَهُبَّ نَسِيمُهُ
وَيُقْنِعُنِي أَنِّي بِهِ مُتَكَيِّفٌ ... فَزَمْزَمُهُ دَمْعِي وَجِسْمِي حَطِيمُهُ
يَعُودُ فُؤَادِي ذِكْرَ مَنْ سَكَنَ الْغَضَى ... فَيُقْعِدُهُ فَوْقَ الغَضَى وَيُقِيمُهُ
وَمَا هَاجَنِي بِالْغَوْرِ قَدٌّ مُرَنَّحٌ ... وَلاَ شَاقَنِي مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ رِيمُهُ
وَلاَ سَهِرَتْ عَيْنِي لِبَرْقِ ثَنِيَّةٍ ... مِنَ الثَّغْرِ يَبْدُو مُوهِنًا فَيَشِيمُهُ
بَرَانِيَ شَوْقٌ لِلنَّبِيِ مُحَمَّدٍ ... يَسُومُ فُؤَادِي بَرْحُهُ مَا يَسُومُهُ
أَلاَ يَا رَسُولَ اللّه نَادَاكَ ضَارِعٌ ... عَلَى الْبُعْدِ مَحْفُوظ الوِدَادِ سَلِيمُهُ
مَشُوقٌ إذَا مَا اللَّيْلُ مَدَّ رِوَاقَهُ ... تَهِمُّ بِهِ تَحْتَ الظَّلاَمِ هُمُومُهُ
إِذَا مَا حَدِيثٌ عَنْكَ جَاءَتْ بِهِ الصَبَا ... شَجَاهُ مِنَ الشَّوْقِ الحَثِيثِ قَدِيمُهُ
وَتُقْرِبُهُ الآمَالُ مِنْكَ تَعَلُّلاً ... وَيُبْعِدُهُ الْمِقْدَارُ عَمَّا يَرُومُهُ
بَرَاهُ الأَسَى إلاَّ الرُّكُونُ إِلَى عَسَى ... صَحِيحِ الْهَوَى مُضْنَى الْفُؤَادِ سَقِيمُهُ
تَدَارَكْهُ يَا غَوْثَ الْعِبَادِ بِرَحْمَةٍ ... يُقَضِّيهِ دَيْنَ الْعَفْوِ مِنْهَا غَرِيمُهُ
أَيَجْهَرُ بِالشَّكْوَى وَأَنْتَ سَمِيعُهُ ... أَيُعْلِنُ بِالنَّجْوَى وَأَنْتَ عَلِيمُهُ
أَتُعْوِزُهُ السُّقْيَا وَأَنْتَ غِيَاثُهُ ... أَتُتْلِفُهُ الْبَلْوَى وَأَنْتَ رَحِيمُهُ

155) جمع غلصمة، وهي رأس الحلقوم، والموضع النَّاتِئُ في الحلق.

156) لعلها قلاليش، وهي أوعية السّمن عند المغاربة.

157) كذا بياض بالأصل.

158) ص 58-59 من ج 9.

وَقَـدْ بَثَّ مِنْكَ اللَّهُ فِي الخَلْقِ رَحْـمَـةً فَـأَنْقَـذَ عَـانِيـهِ وَأَثْرَى عَـدِيـمُـهُ
لَكَ الْخُلُقُ الأَرْضَى الذي بَانَ فَضْلُهُ وَمَـجْدُكَ فِي الذِّكْرِ العَظِيمِ عَظِيمُهُ
لَكَ المُـعْـجِزَاتُ الْغُـرُّ يَبْـهَرُ نُورُهَا إِذَا ارْبَدَّ مِنْ جُنْحِ الضَّـلاَلِ بَهِـيـمُـهُ
وَحَسْبُكَ مِنْ جِذْعٍ تَكَلَّمَ مُفْصِحًا وَقَـدْ دَمِـيَتْ يَوْمَ الْفِـرَاقِ كُلُومُـهُ
وَبَدْرٌ بَدَا قِـسْـمَـيْنِ فَـالْقِسْمُ ثَابِتٌ مُـقِـيمٌ وَقَـدْ أَهْوَى إِلَيْكَ قَـسِـيمُـهُ
وَذَلَّ لِمَـسْـرَاكَ الْبُـرَاقُ كَـرَامَـةً وَسَـاعَـدَ مِنْهُ وَخْـدُهُ وَرَسِـيـمُـهُ
وَمِنْ فَوْقِ أَطْبَاقِ السَّمَاءِ بِكَ اقْتَدَى خَلِيلُ الذي أَوْطَاكَـهَـا وَكَلِيـمُـهُ
وَمُـعْـجِـزَةُ الْقُـرْآنِ أَجْلَى فَـإِنَّهُ عَـجَـائِبُـهُ لاَ تَنْقَـضِي وَعُلُومُـهُ
تَمَـيَّزْتَ قَبْلَ الْفِيلِ بِالشِّيَمِ الْعُلَى وَآدَمُ لَمْ يَدْرِ الْحَـيَـاةَ أَدِيـمُـهُ
إِذِ الكَوْنُ لَمْ تُفْـتَقْ يَدُ الأَمْـرِ رَتْقَـهُ وَلَمْ تَمْـتَـزِجْ أَرْوَاحُـهُ وَجُـسُـومُـهُ
وَمِنْ نُورِكَ الْوَضَّاحِ فِي الْعَالَمِ اهْتَدَى غَـدَاةَ اقْـتَـدَى صِـدِّيقُـهُ وَحَكِيـمُـهُ
عَلَيْكَ سَـلاَمُ اللَّهِ يَا خَـيْـرَ مُـرْسَلٍ بِهِ بَانَ مِنْ نَهْجِ الرَّشَـادِ قَـوِيـمُـهُ
وَيَا لَيْتَ أَنِّي فِي ضَـرِيحِكَ مُلْحَـدِي يَرِقُّ بِتَكْرَارِ العِـهَـادِ جَـمِـيـعُـهُ
يُجَـاوِرُ عَظْمِي تُرْبَكَ الْعَطِرَ الشَّـذَا فَـيَـعْطِرُ مِن مَّـاءِ الْحَـيَاةِ رَمِـيـمُـهُ
تَقَضَّى كَرِيمُ الْعُمْرِ فِي غَيْرِ طَائِلٍ كَـمَـا بَدَّدَ الْوَفْـرَ الْغَـزِيرَ كَـرِيـمُـهُ
فَـئَـاهٍ عَلَى نَفْـسِي أُرَدِّدُهَا أَسًى لِوَخْطٍ أَضَـاءَتْ لَيْلَ فَـوْدِي نُجُـومُـهُ
وَإِنْ كَـانَ نَبْتُ الأَرْضِ مُـرْتَـهَنُ الذَّوَا فَلَيْسَ سَـوَاءً غَـضُّـهُ وَهَشِـيـمُـهُ

وهنا انتقل إلى الشّكاية من الدّهر والتألّم ممّا أصابه فقال :

جَفَـانِي دَهْرِي وَاسْتَـهَـانَ بِحُرْمَتِي فَـدَهْرِيَ مَـمْـقُـوتُ الذِّمَـامِ ذَمِـيـمُـهُ
وَفَـرَّقَ مَـا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِـبَّـتِي فَـأَنْكَادُهُ تَنْتَـابُنِي وَغُـمُـومُـهُ
فَلَوْ كَانَ يُجْدِي الْعَتْبُ أَبْلَغْتُ عَتْبَهُ وَلَوْ كَـانَ يُغْنِي اللَّوْمُ كُنْتُ أَلُومُـهُ
وَلَوْ لَحَـظَتْنِـي مِنْ جَنَـابِكَ لَحْظَةٌ لَـمَـا رَاعَنِي عِنْدَ الْبَـيَـاتِ نُجُـومُـهُ
فَـئَـاوِ طَرِيدًا عَـائِذًا أَنْتَ كَـهْـفُـهُ وَذِكْـرُكَ بِالْمَـدْحِ الصَّـرِيحِ رَقِـيمُـهُ

ثم تخلّص لمدح ملوك بني مرين فقال :

رَعَى اللَّهُ عَـهْـدًا فِي رِضَـاكَ وَمَأْلَفًا ... مُلُوكُ الْعُـلاَ تُعْنَى بِهِ وَتُقِـيـمُـهُ
وَحَيٍّ بِوَادِي الْقِبْطِ[159] دَارًا[160] مَزُورَةً ... تُوَالِي لِجَـارِهَا النَّدَى وَتُدِيـمُـهُ
رَحِـيـبَـةُ أَلْطَافٍ إِذَا الْوَفْـدُ حَلَّهَـا ... تَكَنَّفَـهُمْ غَـمْـرُ النَّوَالِ عَـمِـيـمُـهُ
تَوَسَّـدَ مِنْهَـا التُّـرْبَ أَيُّ خَـلاَئِقٍ ... بِهِمْ دِينُكَ الأَرْضَى اسْتَقَلَّتْ رُسُومُهُ
أَيِمَّـةُ عَـدْلٍ أَوْضَـحُوا سُبُلَ الْهُدَى ... وَسُـحْبُ نَوَالٍ لاَ تَشِحُّ غُـيُـومُـهُ
وَأُسْـدُ جِـهَـادٍ أَذْعَنَتْ لِسُـيُـوفِـهِمْ ... جَـلاَلِقَـةُ الثَّـغْـرِ الْغَـرِيبِ وَرُومُـهُ
فَلَوْلاَهُمُ يَا خَـيْـرَ مَنْ سَكَنَ الْحِـمَى ... لَرِيعَ حِـمَـاهُ وَاسْـتُـبِـيحَ حَـرِيـمُـهُ
تَغَـمَّدَهُـمْ مِنْكَ الرِّضَى يَوْمَ تُقْتَضَى ... دُيُونُ مَـقَـامٍ لاَ تُضَـامُ خُـصُـومُـهُ
وَأَنَّسَـــهُمْ وَالرَّوْعُ يُوحِشُ هَـوْلُهُ ... وَأَمَّنَهُمْ وَالْحَـشْـرُ تُذْكَى جَـحِـيمُـهُ
أَبُو يُوسُفٍ مُفْنِي الْعِدَا نَاصِرُ الْهُدَى ... وَيُوسُفُ مِطْعَـانُ الْهِـيَـاجِ زَعِيـمُـهُ
وَعُـثْـمَـانُ غَـيْثُ الْجُـودِ أَكْرَمُ وَاهِبٍ ... إِذَا مَا الْغَمَامُ الْجَوْنُ ضَنَّتْ سُجُومُهُ
وَعَلْيَـا عَلِيٍّ كَـيْـفَ يُجْـحَـدُ حَـقُّـهَـا ... أَيُجْحَدُ ضَوْءُ الصُّبْحِ رَاقَ وَسِيمُهُ
هُوَ الْعَلَمُ الأَعْلَى الذِي طَـالَ فَـخْـرُهُ ... هُوَ الْمَلِكُ الأَرْضَى الذِي طَابَ خِيمُهُ
لَقَـدْ جَـاءَ ظِلُّ اللَّهِ مِنْهُ عَلَى الْوَرَى ... فَـأَيِّمُـهُ مَكْفِـيَّـةٌ وَيَتِـيـمُـهُ
وَجَـدَّدَ مِنْهَـا الْبِـرَّ وَالْفَضْلَ مَـجْـدُهُ ... وَلَوْلاَهُ كَـانَتْ لاَ تَبِـينُ رُسُـومُـهُ
وَأَوْرَثَ إِبْرَاهِيمَ سِـرَّ خِـلاَفَـةٍ ... نَمَاهُ مِنَ الْمَجْدِ الصُّرَاحِ صَمِيمُهُ
إِذَا الأَمَلُ اسْتَسْقَى غَمَامَةَ رَحْمَةٍ ... فَـفِي كَفِّ إِبْرَاهِيمَ تُكْرَعُ هِيـمُـهُ

---

159) وادي القِبْط، بالقاف، من أسماء أبي رقراق. ويُطْلق على الضفة اليُسرى الموالية لشالّة. ويَمْتدُّ إلى المحل المعروف بالمَجاز. وكان يُعَدُّ من منتزهات العدوتين، لمَا احْتَفَّ به من الأشجار والبساتين، ومازال يعرف بهذا الإسم إلى الآن. وقد تردَّد ذكره في أشعار ابن الخطيب. وإليه يشير في قصيدته العينية التي خاطب بها أهل سلا، بَعْدَ رُجوعه لغرناطة مُشيداً بهم مُردّدا ذكر معاهدهم، فقال :

قُلْ لِوَادِي الْقِبْطِ هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ ... يَصِلُ الأُنْسُ لَدَيْهَا مَا انْقَطَعْ...

وهي طويلة، وقد بسطنا الكلام عليها في كتابنا «ابن الخطيب بسلا».

160) هي شالة.

وَكَمْ مِنْ رَجَاءٍ خَابَ ظَنُّ قِيَامِهِ فَأنْتَجَ بِالمَطْلُوبِ مِنْهُ عَقِيمُهُ
أَمَوْلاَيَ لاَحِظْهَا عَلَى الْبُعْدِ خِدْمَةً لِوَالِدِكَ الأَرْضَى انْتَقَاهَا خَدِيمُهُ
تَخَيَّرَهَا فِكْرِي فَرَاقَ نِظَامُهَا كَمَا رَاقَ مِنْ دُرِّ النُّحُورِ نَظِيمُهُ
وَكَلْتُ بِهَا هَمِّي وَأَغْرَيْتُ هِمَّتِي فَسَاعَدَهَا هَاءُ الرَّوِيِّ وَمِيمُهُ
حَلَلْتُ بِهِ مُسْتَنْصِرًا بِجَنَابِهِ وَعَاهَدْتُ نَفْسِي أَنَّنِي لاَ أَرِيمُهُ
عَلَى قَبْرِهِ الزَّاكِي وَقَفْتُ مَطَامِعِي فَمَنْ نَالَنِي بِالضَّيْمِ أَنْتَ خَصِيمُهُ

وغاية ما يُقال في هذه المواسم أنَّها كانت تُمثِّل ما كان للنّاس من حُسْن الاعتناء والبركة المرْجُوَّة من قُدْسية وحُرْمة في شالّة ومدافنها، وتُعْطي صورةً عن الأسواق العامّة التي كانت تُعْقد حولها وحول المُدُن الكُبْرى في ذلك العصر.

وحيث كانت شالّة بهذا المقام من التقديس والاحترام، منذ العصور الأولى والأجيال البائدة، وبها مدافن السّلاطين والصُّلحاء والمجاهدين، فإنَّ الملوك كانوا كُلَّما مرُّوا برباط الفتح، أوْ أقاموا به مدة قبل اتّخاذه عاصمة رسمية، يُخصّصون يومًا لزيارة رجالها وصُلحائها والتّبرُّك بهم، ويذبحون الذَّبائح على أَضْرحتهم، ويتصدّقون على الضُّعفاء والمساكين اللاَّجئين إِلَيْهَا والمُحْتمين بِحِمَاهَا.

هذه شالّة، وحالة ازْدهارها وعُمْرانها في العصر المريني الأول، وسنَرَى ما حلَّ بها بعد ذلك في الفصول الآتية.

المبحث الخامس

إهمال شالة في آخر الدولة المرينية

كانت شالّة على ما وصفناها من العمارة والازدهار، منذ اتّخذها ءال مرين مدفنًا لملوكهم، وما شيّدوه فيها في عهد شباب دولتهم، وعزّ سلطانهم، من المساجد والقباب كالأزهار، مُجوّدة بذكر الله، آناء الليل وأطراف النّهار،(161) حيث الجلال قد رَسَتْ هضابه، والملك كُسيت بأستار الكعبة الشريفة قبَابه، والبيت العتيق قد أُلْحفت الملاحفة الإمامية أثوابه، والقرآن العزيز تُرَتَّلُ أحزابه،(162) فتمكّن بملكهم الرضى احترامُها، وتجدّد برعيهم عهدها، واسْتبشر بسلطانهم دفينها، وأشرق بحسناتهم نورُها،(163) إلى أنْ حصل في الدّولة ضعف فضعف شأنُها وابتدأ إهمالها، وقلّ أوِ انْقطع دَفن الأمراء بها، فَتُنُوسِيَ أمرها، وانصرفت الهِمَمُ إلى ما هو أهَمُّ منها، وهو التّسابق على الملك والرِّئاسة، واستبداد الوزراء والحُجّاب على الملوك، وتصرُّفهم كيف شاؤوا في سياسة الدّولة، وتدبير شؤونها الداخلية والخارجية، إلى زمن آخر ملوكهم السُّلطان عبد الحق، الذي خُتِمَتْ به الدولة كما ابْتُدِئَتْ بجَدِّه عبد الحق، إلاَّ أنَّ الأول كانت عليه الدُّنيا مُقْبلة، وهذا جاء وهِي عنه مُدْبِرة، ويد العدوِّ على أطراف البلاد مسيطرة، فأعْرَضَ عن شالّة وتغافل أوْ شُغِلَ عن الاهتمام بها، والنَّظر في مصالحها، وتعاهدها وإصلاحها، كما كان شأن أسْلافه من قبل، لاسيما وقد كان محْجوباً محْجوراً لبني وطّاس، وهم لا غَرَضَ لهم في الرَّفع من شأن سلاطين بني مرين أحْيَاءً كانوا أوْ أمواتًا، لأنَّهم يتربَّصون بهم الدَّوائر، ويترَقَّبون موتَ الدَّولة كلِّها، ويعملون على ذلك بكلِّ سبب ووسيلة.

---

161) مقتبس من وصف ابن الخطيب لشالة في «مقامات البلدان»، ص 105.

162) مقتبس من رسالة لابن الخطيب إلى السلطان أبي سالم، «نفح الطيب»، ص 20 ج 3، طبع القاهرة.

163) مقتبس من رسالة من ابن الخطيب إلى أبي سالم أيضا، «نفح الطيب»، ص 329 ج 3، طبع القاهرة.

وعليه فإنّ شالّة، وإنْ كانت مرعية الحُرمة والكَرامة، منذ القديم عند الخاصّة والعامَّة، فإنَّ مظاهر هذه الحرمة الرّسمية، تُنُوسيت شيئا فشيئاً، ثم أُهْمِلت آخر الدّولة المرينية، لمّا نغض برأسه بعواصم المملكة شمالاً وجنوبًا، ثُوّار مغامرون انتهازيون من طلاّب المال والثّروة والرِّئاسة، ومن بينهم بمكناسة الزيتون الثّائر أحمد اللّحْياني.

انتهاك اللّحْياني لحرمة شالة واستيلاؤه على ذخائرها ونفائسها

الشيخ أحمد اللحياني الورتاجني، أحد الثُّوار الذين ظهروا آخر الدَّولة المرينية، واستولى على مكناسة الزّيتون وضبطها وتصرّف فيها نحو عشرين سنة، ما بين سنة عشرين وثمانمائة (1417/820) وسنة إحدى وأربعين وثمانمائة (1437/841)[164].

وفي أثناء هذه المُدَّة، وصل إلى ضِفَّتي أبي رقراق، في عهد ولي العدوتين، إذ ذاك، الوزير أبو زكرياء يحيى الوطّاسي.

وكان وصوله إليها شُؤْمًا على رباط شالّة، ومن ذلك العهد ابتدأ خرابها بعد إهْمالها.

فاستولى عليها، وانْتَهك حرمتها، ودَاسَ كرامتها، وبعْثَر قبورها، وأخذ ما كان فيها من النّفائس والذّخائر، وأهَان معاهدها الدينية، وعَبَثَ بها، وحمل معه ما كان فيها من الماعون والأثاث والرّياش المُزَيَّنة به قبور الملوك، والمصاحف القُرآنية المُحَلاّة بالفضة وغيرها التي كانت مُحَبَّسة عليها.

ولمّا قضى على ثورته أبو زكرياء الوطّاسي المذكور، وُجدت تلك المصاحف بداره، فاسْتَفْتَى فيها السُّلطانُ عبدُ الحق المريني الشَّيْخَ أبا عبدِ اللّه مُحَمَّد بن قاسم القَوْرى فيما يفعلُ بها.

ونَصُّ استفتائه والجواب عنه كما في «المعيار» لأبي العباس الونشريسي :[165].

164) «الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون» لابن غازي، ص 15، طبع فاس.

165) «المعيار» للونشريسي، ص 11-12 من ج 7، طبع فاس.

"الحمد لله وحده.

سيدي، رضي الله عنكم، وأُحِبُّ بيان المشكلات منكم، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، فإنَّ ممَّا أشكل وجهه، والتبس أمره، مسألة المصاحف الكريمة المحَبَّسَةُ على ضريح مَنْ بشالة المباركة، من الملوك الكرام رضي الله عنهم، وأبْقى البركة في كَريم خلفهم. وذلك أنَّ أحمد اللّحْياني، تجاوزَ اللّه تعالى عنه، كان مِمَّن سوَّلت له نفسُهُ أنْ أخذها ونزع ما كان عليها من حِلْية الفضَّة وغيرها، وسيرى الله عمله، ويجازى به أو يعفو الكريم بفضله.

ولمَّا أظهرنا اللّه تعالى عليه، وأوْرثنا دِياره والحمد لله، وجدنا بها المصاحف المذكورة، فإذا بعضُها عليها التحبيس مشهود الرسم، وبعضها وثائق بغير شهادة، وبعضها بغير وثيقة ولا شهادة، واستقرَّت الآن بهذه الدار العلية، وأردْنا أنْ نعمل فيها بمقتضى الشَّرع، مِنْ جَعْلها بخزائن كُتُب العلم المحبَّسة على المسلمين، لِيَنْتفع بها الحَيُّ والمَيِّتُ إنْ شاء اللّه، أوْ ما ترونه من الوجوه المخلصة من عهدتنا، فاكْتُبوه لنا بما عندكم في ذلك لنعمل عليه، فأنتم البركة، وعلى ما عندكم من العِلمِ العَمَل بحول الله تعالى.

والله تعالى يحفظكم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

فأجاب رحمه الله.

الحمد لله،

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسُول اللّه

ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه.

الجواب، واللّه الهادي إلى سبيل الرشاد، ومُلْهم الصَّواب.

إنَّ مقتضى الشَّرع، وحاصل الفقه في هذه النَّازلة، وقفها على نظركم الحسن، ورأيكم المستحسن، لِمَا ولاكم اللّه تعالى من أمور المسلمين.

والواجب عليكم، حفظكم الله، وسدَّد أنظاركم، وأنجح آراءكم ألاَّ تتصرَّفُوا إلاَّ بجلب مصلحة، أوْ دَرْءِ مفسدة، قال اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلاَّ بالتي هي أحسن﴾، وإذا كان هذا في حقوق اليتامى مع تفاهة الفائت مِن المصلحة في ولايتهم

لِخِسَّتها بالنِّسبة إلى القضاة، فضلاً عن الولاة، فأولى أنْ يثُبت ذلك في حقوق المسلمين فيما يتصرف فيه الولاة من الأموال العامّة، لأنّ اعتناء الشرع بالمصالح العامّة أوفر وأكثر من اعتنائه بالمصالح الخاصّة في علمكم.

رُوِيَ عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلَّم أنه قال :

"من وُلِّي من أمور أمتي شيئا ثمَّ لم يجهد لهم ولم ينصح، فالجنة عليه حرام"،

وقال صلّى اللّه عليه وسلّم :

"من اسْتَرْعاه اللّه رَعِيَة فلم يحُطْها بنصحه، لمْ يجد ريح الجنَّة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام، ولأجل عظم الأمر الذي قلده عظم أجره، وكان أحدَ السَّبْعة الذين يُظِلُّهُم اللّه في ظله، يوم لا ظل إلاّ ظله".

وقد قال صلّى اللّه عليه وسلَّم :

"ما من أحَدٍ أقربَ من اللّه مجلسًا يوم القيامة بعد ملَكٍ مصطفى، أوْ نبي مرْسل، من إمامٍ عَدْلٍ، ولا أبْغض إلى اللّه من إمَام جائرٍ يحكم بهواه".

وقال صلى الله عليه وسلم :

"إنّ في الجنة قصرًا يُقال له عَدْل لا يدخله إلاّ نبيءٌ أوْ صدِّيق، أوْ شهيد أو إمام عدل".

والأحاديث في التَّرغيب والتّرهيب كثيرة في هذا الباب.

فلأجل هذا ونحوه، قال علماؤنا رضي الله عنْهُم :

الوُلاة مَعْزولون عن المفْسدة الرّاجحة، والمصلحة المرْجُوحة، والمساوية، وما لا مصلحة فيه ولا مفسدة، لأنّ هذه الأقسام الأربعة ليست من باب ما هو أحسن، وولايتهم إنّما تتناول جلب المصلحة الخالصة، أو الراجحة؛ أو درء المفْسدة الخاصّة أوِ الرَّاجحة، فالأقسام ثمانية، أربعة منها ساقطة، وأربعة معتبرة.

فـاذا تقـرّر هـذا، وهو أنّ صـرف تلك المصـاحف موقـوف على نظركم الأرجح، ورَأيكم الأصلح، فافعلوا فيها ما تحمدون عليه من وقفها حيث ذكر على ما أُلِف وعُهد وَجمعها في خزانة واحدة، ولا يخفاكم مرجوحيته، والرّاجح تفريقها في خزائن متعددة، ومواضع متفرقة.

وإنْ رُمْتُم وقْف بعضها، وبيع السائر وصرف ثمنه فيما يعم نفعه، ويعظم خيره، ويقوى الرّجاء في مثوبته وبرّه، كبناء قناطر وإصلاحها، وإصلاح طُرق أو مساجد ضعاف لا شيء لها، أوْ فك أسرى أوْ بناء سُور بعض الثُّغور أو شراء أصل يكون حبسًا في أحد هذه الأنواع، أوْ كيف ظهر لكم بذلك من الرأي الحسن، والفعل الجميل المستحسن. وهذا الأرجح الأولى من الوجهين. لكن النَّظر لكم.

انْظُروا في ذلك بنور اللّه، كما أمركم اللّه، وابْتغوا ما رَجَّح اعتقادكم وما أدي اجتهادكم، وقدّموا في ذلك الأهمَّ فالأهمَّ والآكد فالآكد، والأفضل فالأفضل، وإنْ ظهر لكم بذلك غير هذا ممًا هو راجع إلى هذا الجنْس أوْ شبْهه من هذا النّوْع، فافْعلوا واللّه المستعان.

ولا فرق في المصاحف المذكورة بين ما كُتِبَ عليه رَسْمُ الحُبُس، وشهد على المحبس بمضمنه، أوْ لمْ يشهد، أوْ لمْ يكتب أصلاً. الجميع سواءٌ في نظر الشّارع لا تفاوت فيه نفْيًا وثُبوتا، وأصل هذه المسألة ومنشؤها معْلُوم مشْهُور، ولوْلا الإطالة لَسَرَدْنا نصوصهم، ولَنَقَلْنا ما لأئمّتنا في ذلك، واللّه سبحانه وليُّ التّوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، بمنه وفضله". اهـ

وكتب مسلما عليكم وعلى من يقف عليه، عبيد اللّه أحْوج الخلْق إلى رحمة اللّه :

محمّد بن قاسم القوْرى

لطف اللّه به بمنه وفضله.

ويلاحظ في السُّؤال أنّه لم يتضمن إرْجاعها إلى شالّة، ولا نَصَّ في الجواب على ذلك، وإنَّما أشار إلى وقْفها على ما عُهد، وجمْعها في خزانة واحدة، أوْ خزائن متعدّدة أوْ بيعها وصرف ثمنها في المصالح العامة كبناء القناطر وإصلاح الطرق...

ويوخذ منه أنّها كانت كثيرة، وأنه يتوفر من ثمنها ما يفي ببناء القناطر التي تتطلّب أموالاً طائلة...

ومع هذا كلّه فإنّ شالّة، وإنْ أهملها سلاطين آل مرين آخر دولتهم، وتسلّط عليها الثّائر اللّحْياني واستباحها، ونهب ذخائرها ونفائسها، فإنّها لم تنقطع العمارة منها، وصارت كزاوية من الزّوايا التي ياوي إليها طلبة العلم، والمنتسبون إلى الخير والصلاح.

ولذلك فإنّه لمّا وقع الخلاف بين أندلس القصبة، وأندلس الرباط على المشاركة في الحكم واقتسام المداخيل المالية سنة أربعين وألف (1630/1040)، تمّ الصلح بينهم على يد أحد صلحاء شالة[166].

ولما اشتدّ الخلاف بين أبي عبد اللّه العيّاشي وبين المهاجرين الأندلسيين النازلين بالقصبة ورباط الفتح، وحاصرهم في السّنة بعدها، اتّخذ شالّة مركزًا حربيا، وأنزل بها ولده، ومعه خمسة آلاف فارس ليمنع وصول الميرة والمُؤَن إليْهم، إلاّ أنّ الحصار لمْ يكن له تأثير في الوصول إلى الغاية المقصودة منه، كما سيأتي في الفصل المعقود لحروب العياشي مع أندلس القصبة والرباط بعد هذا[167].

وذكر أبو عبد اللّه، محمد بن علي الدكالي في كتابه «الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولاي عبد العزيز»، نقلاً عن أبي الحسن العكّاري في كتابه «البدور المضوية» :[168] أنّها كانت عامرة في الدّولة الإسْماعيلية، وفيما بعدها بزمان.

ونقل من «نزهة النّاظر» للشيخ سيدي أحمد بن عبد القادر، ما يُفيد أنّها كانت عامرة في أوائل القرن الثّاني عشر الهجري. (الثامن عشر الميلادي).

ومن جملة المستوطنين بها في ذلك العهد : أولاده، وأهله، وأصهاره، وأخوه سيدي العياشي بن عبد القادر، وغير منْ ذكر من أصحابهم.

واستمرّ الحال على ذلك إلى أوائل دَوْلة السلطان المولى اليزيد بن محمد بن عبد الله، وحينئذ حلّ بها ما نذكره :

---

166) روجي كواندرو "Roger Coindreau"، «قراصنة سلا» ص 44.

167) دوكاستري De Castries، ص 194 من المجلد الثالث سلسلة فرنسا.

168) ورقة 66 مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

المبحث السادس

خراب شالة في عهد السلطان المولى اليزيد بن سيدي ممحد بن عبد الله

في أول دولة السلطان المولى اليزيد بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله، ثارت بعض القبائل، واضطرب حبل الأمن في المغرب داخل المُدُن وخارجها.

ومن ذلك، اتّفاق عرب الصبّاح مع الدغمة على نهب جيش العبيد الذي كان مُرَابطاً بالرباط في عهد السلطان المتوفّى، فضايقوه وحاربوه حتى انجحر بأگدال، فحاصروه، وتسوّروا الأسوار الرباطية المقابلة لشالة، وكانت بينهم حروب خطيرة.

ولمّا استَفْحَلَ أمرهم، وفشا فسادُهم، وتزايد شَرُّهُم، أمر السُّلطان المولى اليزيد – رحمه الله – أهل العدوتين : رباط الفتح وسلا بالاستعداد لمقاومتهم. ثمّ سلّط عليهم قائد سلا، أبو عزة ولد القسطالي، وأمره بمحاربتهم والقضاء عليهم.

فالتجئوا حينئذ إلى شالّة، واعتصموا بأسوارها، وتظاهروا بالاحترام بصلحائها، وجمعوا أموالهم ومُدَّخراتهم بمخازنها، فتحرّك إليهم القائد المذكور، ومعه محلة سلطانية، فأوقع بهم وقعة شنعاء، فرّقت شملهم، ومزّقت جمعهم، وأنْهكت قُوّتهم.

وكرّر فعلة اللّحياني، فاستباح شالّة، وأطْلق السَّبيل فيها للعبيد، وقال لهم : "ادخلوها، فهي صابونكم" فحملوا منها مالاً كثيرا.

ووجدوها مملوءة بالإبل، والبقر، والغنم، والقطف، والزّرابي، والنُّحاس، والعبيد، والخدم، وغير ذلك، وحَفَروا قبر الشيخ سيدي يحيى بن يونس، وأهانوا حُرمَته وحرمة المسجد، وافْتضُّوا الأبكار، وهدّموا الدُّور والمساكن، ولم يتركوا لساكنها شيئا، وكان الحادث بها عظيما.

وذلك يوم الجمعة، ثامن عشر ربيع الأول عام خمسة ومائتين وألف (18 ربيع الأول 24/1205 نونبر 1790).(169)

وقد امتعض أهل العدوتين امتعاضاً شديداً لمَا حَلَّ بهذه البقعة المباركة المحترمة عندهم في القديم والحديث، وانتظروا ما سيحلُّ بمنَ أقْدم على انْتهاك حرمتها وإهانتها من الشرّ والبلاء.

فكان ذلك على يد السُّلطان أبي الرَّبيع المولى سليمان بن محمد بن عبد الله، لمَّا أمَرَ قائده محمَّد بن العربي البُخاري بِقَتْل القائد أبُو عزة القسطالي المذكور، فَقَدِم إلى سلا، واحْتال عليه حتَّى أخْرجه من داره، واجْتمع به فوق كدية رملية خارج باب أبي حاجة من سلا وقتله خنقا، وبقي جسده ملقى على الأرض مدة.

ثم دَخل داره ونهبها، وأخذ جميع ما وجده فيها من المال والأثاث واللّباس والرّياش وغير ذلك.

واستولى على ما كان عنده من الخَيْل والبِغال والدّواب، وباء بسوء ما فعل، وحَبَّذَ العامّة ما أمَرَ به السلطان رحمه اللّه في حقه.

وكان ذلك ثاني ذي الحجة عام عشرة ومائتين وألف(170) (02 ذي الحجة 8/1210 يونيه 1796).

وهناك باعث آخر على خراب شالّة، وتهديم ما أبْقته الفتن والأيْدي العادية من آثارها، وهو اعْتقاد العامَّة فيها أنَّ تحت تُرابها وأنْقاضها وأسفل مَجَاري عيون مياهها، كنوزاً من الذَّهب والفضّة، مَرْصودة، وجرَّأهُمْ على هذا الاعتقاد، ما كان في أضرحتها السُّلطانية من الزّينة والسُّتور والفرش، والأثاث والماعون الفاخر الذي تقدَّم وصفه.

ولمَّا رأوا ما فعله اللّحْياني بها، وما أخذه من نفائسها، وما وَجَدَهُ العبيد فيها، لمَّا استباحوها في وقعة عرب الصبَّاح المتقدمة، تهافت عليها طُلاَّب هذه الكنوز - المَرْصُودة في زَعْمهم - من كل من يدَّعي استخدام الأسماء، واستخراج الدّفائن بواسطة الأعمال السحرية، ووضعوا لذلك خُرافات وقصاصاً خيالية، تناقلوها بينهم. ولعَلَّ بعضهم عثر على شيء من تلك

169) «تاريخ» الضعيف، ص 148 من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا. وكذلك :
La Mission du Capitaine Burel au Maroc en 1808. page 73.

170) «تاريخ» الضعيف، ص 273 من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

الدّفائن المرغوب فيها، فَجَرّاً غيرهم على طلبها، والبحث عنها، لأنَّ شالّة كان ينتابها، ويَاوي إليْها الأمراء والوزراء والأعلام، ولا غرابة إنْ بقي شيء من ثروتهم نِسْيا منَسيًّا تحت أنقاضها، وبين أطلالها، لاسيما وقد اعْتاد النَّاس في ذلك العصر إخْفاءَ أموالهم وحليهم تحت الأرْض في مكان مجهول لا يعرفه أحد سِواهم، خوفاً عليه من اليد العادية، وخُصوصًا في أزْمنة الفِتن وعَدَمِ استقرار الأمْن.

وكما يُعْثر في شالّة على الماعون والآثاث والسكك الفضية والذهبية الإسلامية، كذلك يُعْثر فيها على هذه الأشياء المتطلبة في كل زمان ومكان، من عهْد الرُّومان.

وما زالت إلى يومنا هذا عملية الحفْر والبَحْث والتَّنْقيب جارية فيها.

وقد عُثر في وقتنا هذا على آثار رومانية عادية مُهمّة جدًا، ونُقلت موقّتًا إلى محل تُحْفظ فيه حتّى يتمَّ تهيِيء المتحف الذي سيُخَصَّصُ لِحفْظها وعرضها بالجناح الذي كان زاوية أوْ مدرسة أوْ دار أضْياف كما سبق فيما تقدَّم.

ومنذ وقعة الصبّاح، وما نشأ عنها من تخريب القائد القسطالي لها، لمّا سلّط العبيد عليها، تفرّق سكّانها وهاجر منها قُطّانها، وأصبحوا لا ترى إلاَّ مساكنهم. وجُلُّهم آوى إلى رباط الفتح، وصارت مزارةً يُتَبَرَّكُ بها، ومقبرة يُدْفن أهل الخير والفضل والصّلاح فيها، وصار بعض فُضلاء الرّباط وأعلامهم العالمون بِفَضلها وبَرَكتها يرغبون أنْ يكون مقرهم الأخير في تربتها، واستمر ذلك إلى زمننا هذا، فتكوّنت فيها وحولها مقبرة جديدة ضمّت أشلاء جَمٍّ غفير من مشاهير وأعْيان هذه الأزْمنة المتأخرَّة، وحلَّ محلَّ أسماء الملوك المقبورين فيها، أسماء صُلَحائها وأوْليائها قديما وحديثا.

ومع ما حلَّ بها وبقِبَابها ومساجدها ومعاهدها، وأضْرحتها ومعابدها من التَّهديم والتَّخريب والتَّحطيم، فإنَّ أسْوارها ظلّت قائمة مقاومة حوادث الأعْصار والدُّهور والأزمنة المتعاقبة، والأجيال النَّاشئة والدَّارجة، داخلها وحولها، مُنْذُ بناها السلطان أبو الحسن إلى زمننا هذا.

وقيل : لعلَّها اسْتُعملت في القرنين الحادي عشر، والثاني عشر الهجريين (السابع عشر والثامن عشر الميلاديين) كَقَصَبَة حربية لحراسة الرباط وحراستها هي نفسَها، لِئَلاَّ تكون ملجأً أوْ مغارةً أوْ مُدَّخلا يأوي إليه اللُّصوص وقُطَّاع الطُّرق خارج أسوار المدينة.

المبحث السابع

بعض زوّار شالة من الرحّالين والكُتّاب الأجانب وما وَصَفُوها به

زار شالّة قَبْلَ هذه الحوادث وبَعْدَهَا في أزْمنة مختلفة جماعة من السّائحين والرحّالين والكتّاب الأجانب، ووصفوا ما شاهدوه فيها من التّخْريب والتّحطيم، وما لاحظوه بَيْن معالمها ومبانيها الرّاكعة السّاجدة من الانْهيار والتّهديم.

ومنهم القنصل شينيي "Chénier" ؛ فقد ذكرها في كتابه المُسمّى «أبحاث تاريخية تتعلق بالمغاربة، وتاريخ المملكة المغربية».

«Recherches Historques sur les Maures, et Histoire de l'Empire du Maroc»

فقال :[171].

«ومن وراء الناحية الشرقية، للأسوار الرباطية الموحدية، توجد المدينة الصغيرة شالّة، وهي مدفن مُقدّس لجمهور كبير من عظماء المغاربة، وكلُّها حَرَمٌ مُحْترم محرّم دخوله على غير المسلمين».

وذكرها هوسط "Höst" من أهل القرن الثامن عشر الميلادي، الموافق للقرن الثاني عشر الهجري، وقال أيضا : «إنها لا يدخلها إلاّ المسلمون».

وزارها بعد حوادث وقعة عرب الصبّاح ببضع سنوات الرحالة الإصباني المغامر، الذي سَمّى نفسه علي بن العبّاس، لمّا دَخل المغرب سنة سبع عشرة ومائتين وألف

171) ص 31 من ج 3، طبع باريس.

(1217/ 1803)، وأقام به نحو ثلاث سنين، وصادف يوم زيارته لها اجتماع الزُّوار بها فتعجَّب من كثرتهم، واستدلَّ بذلك على تعظيمهم لها، واحترامهم لمشاهد صلَحائها.

وقال كايِّي "Caillé" في «تاريخه» :[172]

"في سنة أربع وسبعين وثمانمائة وألف (1290/1874) تَمكَّن مواطننا تيسو "Tissot" من زيارة خراب شالّة، وأخذ رسْم عددٍ كبير من كِتَاباتها.

وهو أوَّل أوربي أُذن له رسمياً في وُلوج أبوابها، ومجاوزة أسوارها، والتَّجول بين أنقاض آثارها".

ثم قال :

"وبعده بنحو سبع عشرة سنة، أُذِنَ رسمياً أيضا لبعض الضبَّاط الإنجليز في الدخول إليها.

وفي سنة ثمان عشرة وثلاثمائة وألف (1318/1901) زارها الرحَّالة الجغرافي إدموند دوتي "Edmond Doutté" أثناء جولانه بالمغرب في مهمته الخاصّة التي كان مُكلَّفا بها من قبَل حكومته، ووصفها في كتابه المسمى : «في القبيلة»، "En Tribu"[173] بأنها وما حولها وقت زيارته لها، كانت خراباً وحُطاماً وأنقاضاً مُتراكمة في وسط أجِنَّة وكُروم، يُحيط بها السُّور المتداعي للسُّقوط.

وقال : إنه منذ نحو عشرة أعوام قبل وصوله إليها، كانت زيارتها ممكنة لمن يريدها، ولكن المخزن سَدَّ أبوابها في وجه غير المسلمين من الأجانب الذين كانوا يتشوَّفُون إلى الدخول إليْها، واشتكى المسلمون منهم، وعيَّن مُقدَّما أوْ حارسا يلازم مساجدها ومقابرها، ويَسْهر على عَدَمِ قُرب غير المسلمين منها، وكان هذا المُقدَّم يسكن في بيت حقير مستند إلى الجدرات الخربة المتساقطة".

ثم قال :

"فاحتلْتُ حتى اتَّصلت به، وصرت صَديقًا لَهُ بفضل دريهمات وضعتها في يده، فتغاضى عنِّي، وتركني وشأني أدوس وأُدنِّس حرمة المساكن المقدَّسة عند المسلمين.

---

172) ص 266.

173) ص 403.

ففتحت حينئذ بكُل سهولة الباب الصغير المغْلق، وَوَلجْتُ داخله إلى مدافن ملوك مرين، وهي مُجرَّد أطلال شاخصة، وأنقاض بالية، وآثار عافية، ووقفت على منار المسجد، وهو منار عادٍ بالنسبة لغيره من المنارات الأخرى الكبرى بالمغرب. ووقفت على بقايا المسْجد، وقبرين كلٍ واحد منهُما في رواق صغير مُزيَّن بما نُقش عليه من الآيات القُرآنية المتشابكة الخط، المحبوكة الحروف، وعلى كل قبر رُخَامَة بيضاء مُسنَّمة منقوش عليها بالخط الرَّفيع البديع أسماء الملوك المقبورين بالقبر، ومنهم السلطان أبو الحسن، فاتح تلمسان، وتُونُسَ وزوجه شمس الضحى".

وختم وصفه بما شاهده حول هذه القبور والمساجد والأضرحة الشّلاوية من الإهمال والخراب، وما فوقها من النباتات والأشجار التي تحول دون اسْتقصائها واكْتشاف أسمائها.

وفي سنة تسع عشرة وثلاثمائة وألف (1902/1319)، زارها السيد أ. بريف "A. Brives" الذي كان مُكلَّفاً في ذلك العهد من قبل الحكومة الجزائرية بالقيام بأبحاث جغرافية جيولوجية بالمغرب، وجال فيها للقيام بهذه المأمورية من سنة ثمان عشرة وثلاثمائة وألف (1901/1318) إلى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف (1907/1324)، ونشر نتيجة أبحاثه وأعماله في كتابه المُسمَّى : «أسفار بالمغرب» "Voyages au Maroc" وقال :(174)

إنه زار شالّة صحبة رفيقه تُرجمان السّفارة الفرنسية بطنجة السيد فيمي "Fumey" قبل موته ببضعة أيام، وشاهد بابها الأثري وأسوارها قائمة، وآثارها ومشاهدها ومنارتها وكلها خراب.

ولقي بها جماعة من كلاوة، فتذاكر معهم، واكتشف أنهم كانوا من جملة الجيش المغربي الذي كان بالحدود الجزائرية المغربية، وحضر معارك تِيميمُون، وافْتخروا عليه بأنَّهم قتلوا ما يزيد على عشرة آلاف فرنسي؟ وتعجَّب من أجنّة شالّة وبساتينها الزّاهرة العامرة بالفواكه الزكية الطيبة. ولاحظ أنَّ جيشاً مخزنياً كان نازلاً حولها يتعدّى عليها وينْهبها ولا يكترث بالحارس الذي كان يحْرُسها.

وذكر أن السَّرقة والنَّهب كانتا معروفتين بها، وأنَّ اللُّصوص يجمعون ما ينهبونه من الفواكه والغِلَل، ويجتمعون على أكله حول السقاية الأثرية التَّاريخية التي بها، ويغْتسلون

174) ص 24-25، طبع الجزائر سنة 1327/1909.

ويغْسلون ثيابهم بمائها وأنّ المُقدم لامهم على ذلك، وقال لهم : إذا كنتم مسلمين فاحترموا مقابر المسلمين وأموالهم...

ثم قال :

"وزيادة على هذا، فان جمهوراً كبيراً من المغاربة الأفاقيين الذين جاؤا إلى الرباط بمناسبة حفلات الهدية العيدية المخزنية، نهبوا هم أيْضاً جميع ما وجدوه بشالّة، وبعثروها، وعبثوا بها، وحطّموا أشجارها، وجرّدوها من أوراقها، وتركوها عارية يابسة، وكسّروا رُخام وأحجار قبورها السُلطانية ولم يحترموها، قال : وقد شاهدت ذلك بعيني، ووقفت عليه بنفسي.

وترجم لي المترجم فيمي "Fumey" بعض كتاباتها التاريخية".

هذا قلٌّ من جُل، ممّا وصف به أولئك الكُتّاب المتجولون شالّة في ذلك العصر، ولا يخل وصفهم من حقيقة.

أمّا اليوم، فإنّ شالة مُفَتّحة الأبْواب في وجوه السّائحين والسّائحات والمتجوّلين والمتجوّلات، والزّائرين والزّائرات، والمصوّرين والمصوّرات، والدّارسين والدّارسات، والمتقاطرين عليها من الآفاق والأقطار، بحيث لا تخْلو منهم في أيّ وقت من نهار، ويعدّونها من أعظم وأعجب ما يرونه في العاصمة المغربية، ويهتمّون بماضيها، ودَلائل السّياحة مشتملة على ذكر لُمَعٍ من بعض أوصافها وصُوَرها تنْبيهاً عليْها، وتشويقاً إليْها.

المبحث الثامن

مـزارات شالـة

يُوجد بشالّة زيادة على مدافن بني مرين، المشهورة بأسماء من دُفِنَ بها من الملوك والأمراء والأميرات، وحاشيتهم وأتباعهم عِدّة قباب وأضرحة أُخْرى، إمَّا في المنحدر أوِ العلو الذي حول ساحة العين، بَلْ وحول منطقة شالّة كلها.

ويقال إنَّ البعض من هذه القباب من جملة أضرحة بعض الأمراء الذين ضاعت أسماؤهم، وتُنُوسِيَ تاريخ وفَاتهم.

والعامّة تُطلق على تلك القِباب أسماء رجال شالّة، وسبعة رجال شالّة، وسبع نِسْوة شالّة، كسبعة رجال مراكش وغيرها من بعض المدن والقبائل المغربية.

وحيث كانت هذه البقعة مقدَّسة محترمة منذ أجيال وأعصار مضت وانقرضت، فانَّ العامّة اعْتقدت أنَّ كل من دُفن بها يُعَدُّ من الأولياء والصّاحين الذين تتأكّد زيارتهم، وتُغتنم بركتهم، ولذلك أطلقوا عليهم أسماء رجال اشتهروا عندهم، إمّا بالصّلاح والتُّقوى، والاستمساك بسببها الأقوى، أوْ بقصص وأخبار تُنقل وتُروى، في البطولة والجهاد، والسّبق إلى الإسلام، والاستجابة إلى الدّعوة المُحمّدية، مع بُعْد الدّار، وتَعَذُّرِ المُواصلة في ذلك العصر بين المغرب ومكّة المكرمة، كرجال صنْهاجة، ورجال رَجْراجَة، الذين لهُم قصّة طويلة لا تخلُو من أصل بُنيت عليه، وهو بَحْث خاص ليْس من موضوع بحثنا هذا.

وهنالك قبور وقِباب أخرى، تُنُوسيت أسماء المقبورين بها، فصارت العامّة تزورها لاعتقادها فيها، وتقول: هذا قبر سيّدٍ ضاع اسمه.

* سيدي يحيى بن يونس

من أشهر صُلحاء شالّة المقصودين بالزّيارة والْتماس البركة في زمننا هذا، سيدي يحيى بن يونس، وعليه قبة حول العين أمام الصّهريج، أُصلحتْ وجُدّدت في عهد السُّلطان المولى عبد الرحمان رحمه الله، وهذا الضريح مزور منذ عدة قرون، وترجمته غامضة، بحث فيها من تقدّمنا وليست من موضوع كتابنا هذا.

* سيدي عمرو المسْناوي

ومن مزارات شالّة المقصودة أيْضا، سيدي عمرو المسْناوي؛ عليه قبة في طرف ساحة الصّهريج، وكان معدوداً من شيوخ الرماة بالرباط، ومن علمائه.

قيل إنّه ينتسب إلى إدريس بن عبد الله، وقيل أيْضا إنّه من ذُرية عبد الملك الوطّاسي مولى ادخْسَان، حسبما جاء ذلك في صكّ رَسْمي يتضمن تَوْقيره واحترامه بتاريخ سنة اثنتين وثمانين وألف (1671/1082)، وسمّاه آخرون المَعْزاوي، لأنّ المعَازْوة الذين لهم دوار ينزلُون به بوَلْجة سلا، ينتسبون له ويزُورُونَه.

وقد كان يستعين به وباسمه المُشْتغلون بعلم الأسماء والجدول لاستخراج الكُنوز المرْصودة المدفُونة بشالّة.

ويُحكى أنّه كان من سكّان شالّة، وداره هي القبّة الموجودة على قبره، ودُفن معه فيها زوجته ووَلَده وأخوه.

كما أنّ الرماة بسلا وبرباط الفتح، كانوا يشتركون في إقامة موسم تذكاري لهُ ولسيدي يحيى، ويتبارون فيه في إظهار براعتهم في ألعابهم الرياضية، ويشارك في هذا الموسم، البحّارة السّلاويون والرّباطيون في زوارقهم حول شالّة بنهر أبي رقراق.

* سيدي الحسن الإمام

عليه قبّة أيْضا، في أول ساحة الخلْوة، قيل إنّه كان إمامًا بشالّة، وقيل إنّه كان إمامًا بالمسجد الأعظم بالرّباط وإنّه حفيد سيدي أحمد الشّريف دَفين وقّاصة.

* سيدي النّعّاس

يُوجد قرب ضريح سيدي الحسن الإمام، قطعة سارية مُكسّرة مبيضة بالجير يُسمُّونها ضريح سيدي النعّاس، يقْصده الزوّار الذين جفاهم النّوم، ويوقِدُون عليها الشُّموع، ويقولون له : "يا سيدي النعّاس، ارْزُقنا النُّعاس وابْعد عنّا الوَسْوَاس".

* سيدي بُومْنِينَة

من صلحاء خارج شالّة، سيدي بومْنِينَة، المنسوب إليْه جبل سيدي بومْنينة.

قيل إنّه من قبيلة السّوالم، وإنه توفي في رجب سنة خمس ومائتين وألف (رجب 1205/ أبريل 1791).

* سيدي علي أبو الشكاوي

من المزارات المقْصودة المشهورة حول شالة، ضريح الشيخ أبي الحسن، علي بن منصور البوزيدي، المعْروف بأبي الشكاوي.

كان معاصراً للشّيخ أبي محمد، عبد الله بن حسُّون دفين سلا، وأولاده ينتسبون إلى عيسى بن إدريس الذي كان واليًا على شالة من قِبَلِ أخيه محمد بن إدريس كما في «القرطاس»[175]

أَخَذَ عن الشّيخ المجذوب، وأبي الرّواين، وكان وقّافاً عند حدود الشّريعة معظما لها.

قال في «الصّفوة»[176] وفي «مُمْتِع الأسماع» :[177]

"كَانَتْ له زَاوِية حيث ضَرِيحه بشالّة، وبها كان سُكْنَاه، وكان له اتّصال بالشّيخ أبي المحاسن ومحبة فيه، وحَجَّ ولَقِيَ أهل المشْرق، وكانت له كرامات. توفي رحمه الله بشالّة عام أربعة وألف (1595/1004)، ودُفِنَ بها، وقبره مزارة مشْهورة".

---

175) ص 30، طبع فاس.

176) ص 45، طبع فاس.

177) ص 182، طبع فاس.

وممَّا يتعلَّق بترجمته أنّ من عوائد بعض الأسَرِ السَّلاوية ختان أولادهم بمحضر أحَدِ حَفَدَته، فيحضر كل سنة في أيام عيد المولد النّبوي، ويُختن كلّ صَبي وَجَدَه في سِنّ الخِتان.

ولعلّ السّبب في ذلك، هو أنّه كانتْ فتن في المدينة، وعدم استقرار في الأمْن، فشُغِل النّاس عن الاهتمام بأُمورهم وشؤونهم الخاصّة، ومُنِعوا من إظْهار الأفْراح وإعْلانها، والتفرُّغ إليْها، كالأعراس والختان مثلا، فَحَضَر الشّيخ المذكور رحمه اللّه، وختن كلّ من كان موجوداً من الصّبيان، في سنّ الخِتان، وبَقِيت هذه العادة مُتّبعة مع حفدته إلى الآن.

* سيدي أحمد التّاغي

من صُلحاء شالّة، ولا تُعْرَفُ له ترجمة.

تسجيل شالة في الآثار القديمة بالمغرب

لمّا كانت شالّة بالمكانة والأهمّية التّاريخية التي درسناها، لمَا اشْتملت عليه من الرُّسوم العافية، التي تمثل صورة أوْ خيالاً من الفَن المِعْماري العربي الأنْدلسي، المطْبوع بالطّابع المغربي، الذي مازال شاهداً مُشاهَداً بمشاهدها وشواهد أحْداث سلاطين ءال مرين الذين تعاقبوا على عرش هذا المغرب الأقصى مُدّة نحو قرنين وربع قرن من الزّمن، وتدفّقت جيوشهم منه، وامْتدّ نفودهم على إفريقية الشّمالية كلها، وتجاوز المجاز في فترات من الزّمن إلى العدوة الأندلسية، زِيادةً عن ماضيها التّاريخي وموقعها الجُغْرافي من العاصمة الرباطية، المشخّصة بالآثار الحيّة الباقية لقُوّة وعظمة الدّولة الموحدية، فقد اهتمت بها مصلحة المحافظة على الآثار والفنون الجميلة بالمغرب، وقرّرت تسجيلها وسائر أسوارها، ومساحتها الدّاخلية في نطاقها، بما اشْتملت عليه من الأبواب، وخُصوصًا الباب الكبير، والمسجد، والمدافن المرينية، وقِباب المَزَارات البارزة في وسط خرابها، في سِجِلّ الآثار التّاريخية المغربية.

وعيِّنت مصلحة البناء والتخطيط بالرباط منطقة واسعة حوْلها، حُرمة لها، فلا يُبْنى فيها بناء قَلّ أوْ كَثُرَ، لِئَلاَّ يُغيِّر شيئا من منظرها أوْ يمسّ جانباً من جوانبها.

وبمقتضى هذه المقرّرات، ابتُدئ العمل سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف (1915/1333)، في إصلاح ما يمكن إصلاحه، وترميم ما يمكن ترميمه، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، خشية انْدثاره واضْمحلاله.

وقد كانت المدافن السُلطانية المرينية، بما اشتملت عليه من قِباب وأرْوقة ومساجد، عبارة عن كُدًى من التراب، والأنقاض المُحطّمة، تُغطِّيها النَّباتات والأعشاب الوَحْشية، التي غيَّرت منظرها، وزادتْها خرابا، حتى كاد يختفي أثرها.

فقُطعت تلك الأعْشاب والحَشائش، ونُقِل التُّراب المُتراكم، وقُوِّمت الحيطان المتداعية للسُّقوط بتَقْوية وتدعيم أُسُسها، وخصوصاً قُبة ضريح السلطان أبي الحسن، وجدار واجهتها، وقد كانت هذه القُبّة وجدارها آية في الفنّ والزّخرفة.

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف (1916/1334) اسْتُؤنف العمل بجدٍّ ومواصلة، ونُظّف وأُصْلح ما بقي من آثار المسجد وبَيْت طهارته وقنواتِها، فعادت المِياه فيها إلى مجاريها.

وأُصْلحت الأبْراج والمراصد المستديرة التي فوق الباب الكبير، وعادت إلى هيأتها الأولى التي كانت عليها.

ثم صدر ظهير يوسفي شريف مُؤَرَّخ بتاسع ربيع الأول عام تسعة وثلاثين وثلاثمائة وألف الموافق لعشري نونبر سنة عشرين وتسعمائة وألف (09 ربيع الأول 20/1339 نونبر 1920)، يتعلق بتَقْييد عِدَّة أبْنية تاريخية، ومواقع بهيجة والمحافظة عليها، جاء فيه مِمَّا يتعلق بشالّة في الفصل الأول :

.... وخرائب شالّة بالرباط :

«السُّور، وخراب الجامع، والأضرحة، وعين الماء، وعلى العموم القسم الكائن بداخل السُّور ...»

وقد صدر هذا الظهير الشريف بالجريدة الرسمية عدد 408 الصادر في ثالث عشر جمادى الآخرة عام تسعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق لثاني وعشري فبراير سنة إحدى وعشرين وتسعمائة وألف (13 جمادى الآخرة 22/1339 فبراير 1921)، ومازال العمل جارياً به إلى الآن.

الفصل الرابع

عن العدوتين سلا ورباط الفتح
في عهد الوطاسيين

المبحث الأول

سلا في عهد بني وطّاس

تقدم لنا في فصل آثار بني مرين بسلا، أنّها بعد استرجاعها من يد الإصبان، دبّت فيها روح حياة دينية جديدة، ورجع إليها بعض عُمرانها، لاعتناء بني مرين بها من الناحية الدينية والجهادية بمَا شيّدوه فيها من الأبراج والأسوار ودار الصّناعة، والمدارس والمعاهد والزّوايا...

ومع ذلك فقد بقي الخراب شائعًا فيها، والحيطان راكعة ساجدة في أحْيائها. وقد ظهر ذلك جليًا في عهد الدّولة الوطّاسية، أواخر القرن التاسع والعاشر للهجرة الموافق لأواخر القرن الخامس عشر والسّادس عشر للميلاد.

فكانت مُدّةَ هذين القرنين، تسير القَهْقرى، وترجع إلى ورا، وتوالت عليها الأوْبئة والمِحَن المقْترنة بانْعدام السُّلطة وكثرة الفتن، وتعاقب سنون المحْل بسبب قلّة الأمطار، فتناقصت العمارة، واخْتَلَّ نظام التّجارة، وانقطعت السُّبل، وتضايقت الحارات والدُّور، وأُهْمِلت بعض الأسواق.

وتُنُوسي التّأنق والإحسان والإجادة، وأُهْمل التّرفُّه بالكلّية، وصارت المدينة بعد ازدهارها، قرية أوْ في حكمها، وخلت الدّور والمنازل الكُبرى، فصارت لا تُباع ولا تُشرى، لعدم الرّغبة فيها، والتّشوف لعمرانها، واقتصر النّاس على الضّروري من العيش والكدّ، وعمّت البطالة، وتجلّت فيها حالة البداوة ظاهرة بجميع مظاهرها، ومن ذلك العهد كَثُرَ بداخل أسوارها الأجنّة والفراغ المُنْبئ عن سابق العمارة، وما تقدّم فيها من الازدهار والحضارة، وجل ما كان يشاهد فيها إلى عهد قريب من المحلاّت والسّاحات الخالية، كان فيه فيما سلف من الدّهر دورٌ ومنازل وقصورٌ عالية، يُكْتشف آثار أنْقاضها الآن، في بعض الأحياء كُلّمَا نُبِشت لتجْديد البناء.

وإلى ذلك يشير أبو علي اليوسي رحمه الله، في رائيته السلاوية بقوله :

وَلَكِنَّهَا شَنَّ الخَرَابُ إِغَارَةً عَلَيْهَا فَأَقْوَتْ مُذْ سِنِينَ وَمُذْ دَهْرِ...

ولم ترجع إليها الحياة التّجارية إلاّ لمَّا صارت مَرْساها مقصداً للسُّفن والمراكب التّجارية، من الأقطار الأوربية، حَسْبَما سيتجلّى ممَّا سَنَسوقُه من أخبارها فيما سيأتي.

وفي وصف هذه الحالة يقول مؤرخها أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في نَظْمه «إتحاف أشراف الملا» :(178)

ثُمَّ غَدَتْ فِي عَاشِرِ الْقُرُونِ رَبْعَ خَرَابٍ وَاعْتِمَارِ هُونِ
لِمَا تَوَالَى مِنْ وَبَاءٍ وَمِحَنْ وَطُولِ مَحْلٍ وَاخْتِلاَلٍ فِي الْوَطَنْ
فَانْقَلَبَ الْعُمْرَانُ لِلتَّقَهْقُرِ وَصَارَ حَالُهَا مِثَالَ عِبَرِ
وَاقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى الضَّرُورِي فِي كُلِّ مَا يَعْرِضُ مِنْ أُمُورِ
وَانْقَلَبَ الْعَصْرُ زَمَانَ جَهْلِ وَفِتْنَةٍ وَعُطْلَةٍ عَنْ شُغْلِ
وَخَرِبَ الْمُعْظَمُ مِنْهَا وَانْدَثَرْ وَكَادَ عَيْنُهَا يَصِيرُ كَالأَثَرْ...

وقد زارها الرّحالة المغربي، أبو علي الحسن الوزّانْ، المعروف بليون الإفريقي، في حدود سنة خمس عشرة وتسعمائة (1509/915)، في عهد السُّلطان أبي عبد اللّه، محمد البُرْتغالي الوطَّاسي، ووصفها في جغرافيته بقوله :(179)

"سلا، مدينة بُنِيَتْ على شاطئ المحيط في موقع جميل جِداً، ويفصلها عن الرباط نهر أبي رقراق، ودُورُها مليحة قديمة، وأثر القدَم ظاهر عليها".

قلت : وهو ما قاله أبو علي اليوسي في رائيته :

بِهَا أَثَرُ الْحُسْنِ الْقَدِيمِ كَأَنَّهُ رُقُومٌ عَلَى سَجْفٍ مِنَ الْحِبَرِ الْحُمْرِ

ثم قال الوزّان :

"وبناؤها وإنْ كان على الشّكل القديم، فهو مُتْقن مُزَخرف بالزّليج والأعمدة الرُّخامية، وعليها رونق وبهاء، ومساجدها جميلة جليلة فخيمة، وحوانيت أسْواقها مُصَفَّفة مُمْتازة بأرْوِقة خاصّة، وعلى رأس كُلِّ سوق، يُعْقد قوْسٌ يفصله عن السُّوق الآخر بفواصله وعوارضه".

178) ورقة 8-9 مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

179) ص 170-171 من ج 1، طبع باريس سنة 1376/1956.

وزاد قائلا :

"لقد أخَذْتُ مِنْ هذا، أنَّ هذه المدينة السَّلاوية، كانت تحتوي قديماً على كل زينة تمتاز المُدُن ذات الحضارة المتأصِّلة بها.

وزيادة على ذلك فقد خُصَّتْ بمرسى يَنْتابه التُّجار المسيحيون من أقطار وأجناس مختلفة، كالجَنْويين، والبُنْدُقيين، والإنْكِليزيين والفَلامانْديين، لأنَّها المرسى الوحيد المقصود (يعني في زمنه) بسائر المملكة الفاسية".

وهنا عَلَّق المحَشِّي على الأصل قائلا :

"وكانت تقْصدها مراكب اشْبيلية، وبَرْشَلونة، ومُرْسية، وغيرها من الثُّغور الأندلسية بالزَّيت والزَّعفران، والثِّياب وغير ذلك.

وإليه يشير أبُو عبد اللّه، محمد بن علي الدكالي في «إتحافه» بقوله :[180]

ثُمَّ غَـدَتْ مَـرَاكِبُ الْبِـحَـارِ تَقْـصِـدُهَا مِنْ سَـائِرِ الأَقْطَارِ
فَـانْتَـعَـشَتْ أحْـوَالُهَـا يَسِـيـرَا إذْ كَـانَ رِبْحُـهُمْ بِهَـا كَـثِـيـرَا
مَـعَ الْبَـنَـادِقَـــــةِ وَالْجَـنْوِيـزِ وَمِـثْلُهَـا الإصْـبَـانِي وَ النَّجْلِيـزِ
يُوتَى لَهَـا بِأَجْـمَلِ الثِّـيَـابِ وَمِنْهَـا يَـحْـصُلُ امْـتِـلاَ الْعِـيَـابِ
بِالْحَبِّ وَالْجِلْدِ وَغَـيْـرِ مَـا ذُكِـرْ كَـالْملحَم الْخَمِّ وَ مَـا مِنْهُ قُـصِـرْ
وَكَـانَ بَحْـرُهَا يُرَى مَـشْـحُـونَا بِسُـــفْنِهِمْ وَالْوَادَ يَمْلَئُـــونَ...

واستمرَّ الوزَّان في وصفه قائلاً :

"كان السَّلاويون مع ظُلم الحُكَّام، وثِقَل المَغارم يربَحُون معهم رِبْحاً كثيرا، ومن ذلك العهْد دخلت سلا في طور تقهقر مستمر".

ثم تكلَّم المؤلف على احْتلال الإصْبان لها سنة ثمان وخمسين وستمائة (1260/658)، وكيف استرجعها يعقوب بن عبد الحق المريني بعد أيام، حسبما تقدَّم مُفصَّلا في محله وقال:

180) ورقة 8، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

«إنَّها بقيت منْذُ تلك الوقْعة المُفْجعة تشتكي نقْصًا عُمْرانيا بالنّسبة لماضيها، وزيادة اعْتناء بشأنها، ولذلك تَجِدُ في أطرافها وخُصوصاً الجهات الموالية لأسْوارها، دياراً كثيرة مهْجورة مُعَطَّلة خاوية على عُروشها، مع ما فيها من السّواري الرُّخامية المُلَوَّنة، والنَّوافذ والسَّراجيب المُزَخْرفة، ولكن النَّاس زَهِدوا فيها.

وضواحيها رمْلية، وفيها مواضع قَليلة صالحة للزِّراعة، فيَحْرُثون فيها شيئا من القَمْح، والأجِنَّة والحدائق كثيرة بداخلها وخارجها، وكذلك الحُقول الخاصَّة بزراعة القُطن، ويستنتجون منه قَدْراً كبيرا. وجُلُّ سُكَّانها الآن يَحْتَرفُون بصناعة الحياكة والنَّسْج، وقد اشتهروا بصناعة الثِّياب القُطْنية الرِّفيعة.

ومن جملة مصنوعات سلا النَّافقة جدًّا، صناعة الأمْشاط التي تُباع بسائر مُدُنِ المملكة الفاسية، لكَثْرة وُجود شَجَرِ البنْس الذي تُصْنَع منه، وغيره من أنواع العُود اللَّطيف بالْغَابة القريبة منها».

قلت : وقد انْقطعتْ هذه الصّناعة من سلا في عهدنا هذا. اهـ.

«وعلى كل حال، فإنّ المعيشة في هذه المدينة مُتَيسِّرة سهلة لِمَنْ نزل بها أوْ سكنها.

وتتركَّب هيأة الحكم فيها من الوالي، والقاضي، واتباعهما من الموظفين، كموظفي الدّيوانة، وجُبَاة مَكْس الملْح، وغيرهم، لأنَّها يَنْتابها عددٌ كبير من التُّجار الجَنْويين، ولَهُمْ بها مصالح وقضايا مهمّة، والمَلِكُ يعتبرهم جداً ويرْعاهم ويُرَاعيهم، لأنَّه يستفيد من حركاتهم التّجارية أرْباحاً جَلية.

ولهؤلاء التُّجار مخازن ومصارف تِجارية بفاس وسلا ويتبادلون بِسِلعهم جَلْباً وإِصْداراً مع بعضهم بعضا.

وقد لاحظت الإخلاص واللُّطف والمجاملة في معاملتهم، وينفقون كثيراً في استجلاب رضى الأمراء وحاشية الملك، ومقصودهم من ذلك كله الحصول على أي فائدة أوْ ربحٍ مادّي كيف ما كان ليمكنهم أن يعيشوا عيشة مرضية مناسبة لهم، في بلاد أجنبية عنهم".

ثم قال :

"وفي زمني هذا كان يوجد بها رجل تاجر جنوي محترم يسمَّى ميسير طوماسو دوماريـنو "Messire Thomaso de Marino" ذو عقل ورزانة، وله ثروة طائلة، وكان الملك يعتبره، ويظهر له المحبة، وعاش بفاس على هذا الحال ثلاثين سنة.

ولما مات وجّه الملك جثته إلى جنوة بلده، لتدفن بها رعياً لوصية بذلك. وخلّف عدة أوْلاد أغنياء كانوا محترمين عند الملك ورجال دولته".

وقد ذكر مرمول "Marmol"، الجغرافي، سلا في كتابه المسمى «إفريقيا»، وكان أقام بالمغرب مدة طويلة، منذ سنة تسع وأربعين وتسعمائة (1542/949)، في دولة السلطان أبي العباس الوطّاسي، وأُسرَ بمراكش عند السلطان، أبي عبد الله، محمد المهدي السّعدي، وسافر أسفاراً طويلة بإفريقية الشمالية، وكتب رحلته في حدود سنة إحدى وثمانين وتسعمائة (1573/981) وأغار فيها على «جغرافية» ليون الإفريقي وأخذ منها شيئاً كثيرا، فقال في حق سلا ما مُلَخّصه، بعد ما ذكر إغارة الإصبان عليها، واسترجاع يعقوب المنصور المريني لها، ووصف حالها وحال أهلها قبل هذه الوقعة، وما كانوا فيه من الازدهار والرفاهية :[181]

"ومن ذلك العهد، أصبحت في حالة يُرثى لها، ولم تَعُدْ لما كانت عليه من الازدهار والعمران، وشنَّ الخراب عليها إغارته، حتى صارت بعض الأحياء بها والنَّواحي المجاورة لها مخصوصة بحراثة بعض الحبوب، وباقي ضواحيها رملية لا تُنْبت، وجُلُّ ما يُزرع بها القطن، وغالب أهلها يشتغلون بنسج الثياب الجميلة منه، وممَّا زاد في سوء حالتها في زمنه، أنَّ الأعشار التي كانت موظفة على السّلع الواردة على مرساها، والصادرة منها، صارت تُسْتخلص بفاس، وفي ذلك إجحاف بها وبمصالحها".

ووصف ديارها بما وصفها به ليون الإفريقي من الحُسْن والجمال، وأنها كانت مشتملة على كثير من الأعمدة الرُّخامية، وكل دار لها براح، وأروقة مرفوعة على حنايا وسواري لطيفة مزخرفة ومزينة بالنّقش على الجبس، وكذلك مساجدها ذات بهاء وجلال.

وطُرُقها وساحاتها تدل على ما كان فيها من النّظام في الزمن الخالي.

ثم قال :

"وهي مُحَصَّنة بالقصر أو الْقصبة التي على الضِّفة اليسرى للنَّهر.

وبها مرسى حسن في الجملة، وإنْ كان صغيرا، عند مصبِّ النهر في الوادي، ترسو به السُّفُن التجارية المتردّدة عليها من أوربا.

---

181) ص 147 من ج 2.

ومنها تُجَهَّز السفن التي تُصْنع بدار صناعتها للْجَوَلان بالسواحل الأوربية، فكانت تُبْحِر منها، وتتجوَّل بها، وتَرْجِع منها، ملتجئة إليها في زمن الشّتاء، لأنّ مدْخلها صعب جدًا".

ولم تكن قبل القرن السابع عشر عُشًا للقرصنة، وإنّما ظهرت فيها بحماس وشجاعة ودءوب واستمرار، بعد هجرة الأندلسيين إليها وإلى رباطها كما سيأتي.

وذكر أنّه لا يوجد بها في وقته إلاّوَال واحد، ينزل بالقصبة، ومعه ثلاثمائة من الفرسان والعساكر، بقصد حمايتها من البحر وإثبات الأمن بها لاَ غَيْر.

وقد اتفق في جل ما ذكره من الأوصاف العامّة والخاصّة الراجعة للسُّكان وحالة المدينة العمرانية مَعَ ليون الإفريقي، ولا غرابة في ذلك لاتِّحاد زمنهما أوْ معاصرتهما واستمداده منه كما قدمنا.

وممَّا زاد الحالة حرجاً وضيقاً في ذلك العصر بسلا نزول البرتغال بحِصْن المعمورة سنة إحدى وعشرين وتسعمائة (1515/921)[182]. فقد أقاموا بها نحو خمس سنين مجاورين لها، ومُضيّقين عليها، ونشأ عن ذلك حروب ومعارك حامية دامية، بينهم وبين النّاصر الوطّاسي، أخي السلطان أبي عبد الله البرتغالي، كانت نهايتها انهزامهم وانسحابهم منها، بعدما تكبَّدوا خسائر فادحة في الرجال والمال والعدة والأسطول.

وقد وصف ليون الإفريقي في رحلته هذه الحروب، وذكر أنّه شاهدها لمّا زار سلا في التاريخ المتقدم[183].

وبكلمة جامعة، فقد كان هذا العصر عصر محَنٍ وأهوالٍ على سواحل المغرب كلها، لتكالب البرتغاليين والإصبانيين عليها، ولا شك أنَّ سلا نالها حظها من المحنة بمجاورة العدو لها، وانعدام الأمن بنواحيها، وانقطاع السُّبُل بضواحيها، وذلك ممَّا يزيد في تقلص ظلِ العُمران منها وخرابها، وانتشار البؤس والشّقاء بين سكّانها، والله غالب على أمْره.

---

182) «الاستقصا»، ص 172 من ج 2، طبع القاهرة، وص 358 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

183) ص 173-174 من ج 1، طبع فاس.

المبحث الثاني

رباط الفتح في عهد بني وطّاس

تقدم لنا – فيما سبق من أخبار بني مرين برباط الفتح أنّ عمرانه في عهدهم تناقص وتكتّل في الناحية الوُسْطى منه، للحروب التي كانت بينهم وبين الموحدين، وتسابقهم إلى الاستيلاء على عُمْران مصبّ أبي رقراق، لأنّه الحد الفاصل بين الشمال والجنوب.

وبعد استيلائهم عليه، ورُسوخ قدمهم فيه، لم يهتمُّوا به، لصَرْف وجهتهم إلى شمال المغرب وحروبهم بتلمسان وتونس، واشتغالهم أخيرًا بحروبهم الدّاخلية وتطاحن سلاطينهم وأمرائهم على الرّئاسة.

ولمّا جاء بنو وطّاس بعدهم، وهم فرقة منهم، ولكنهم ليسوا من بني عبد الحق، واستولوا على عُمران مصبّ أبي رقراق، لم يهتمُّوا بالرباط من الناحية العُمرانية، وإنّما اهتمُّوا بقصبته، من الناحية الحربية، لانْتشار الفتَن في أيّامهم في جُلِّ الأقاليم المغربية، وخصوصاً الشواطئ البحرية، التي تكالب البرتغال والإصبان على احْتلالها واسْتعمارها، فاشْتغلوا بمقاومته، وردِّ عاديته بالشمال، وأنزلوا بقصبة الرباط فرقة من جيوشهم لحمايتها وحماية العدوتين من مفاجأة العدو لهما، وكانت هذه القصبة مركز الوالي على العدوتين معا، وبها الديوانة، ويُطْلق عليها قصبة سلا.

وكان أبو زكرياء الوطّاسي يعتمد عليها في حروبه بتَامَسْنا، ويستعين بها وبحاميتها.[184]

ولمّا ظهر السّعديون بمراكش، وقَويت شوكتهم، وامْتَدَّ نُفودهم إلى نواحي مصب أبي رقراق، واشتدّت الحرب بينهم، عقدوا صُلحا في حدود سنة أربعين وتسعمائة (1533/940)،

184) «تاريخ الرباط» لكايّي "Caillé"، ص 182.

على أنْ يكون للسّعديين تادلا إلى السُّوس، وللوطّاسيين من تادلا إلى المغرب الأوسط، يعني أنَّ عُمران مصب أبي رقراق يبقى بيد الوَطّاسيين[185].

ثم لمَّا نُقِضَ هذا الصُّلح، وعادت الحرب بينهم سِجالا، سنة أربع وخمسين وتسعمائة (1547/954)، وانْهزم فيها أحمد الوطّاسي، وأخذه محمد الشّيخ السّعدي أسيرًا عنده، فَدَى نفسه بالتَّخلِّي له عن سلا ورباط الفتح وغيرهما من مدن أخرى، ولكنهم لم يهتمُّوا بهما، وكانت مواصلتهم مع أوربا بواسطة آسفي وأگادير لقُرْبهما من عاصمتهم المراكشية[186].

وقد كان ليون الإفريقي، زار مدينة رباط الفتح في عهد الوطّاسيين، لمَّا كان بسلا سنة خمس عشرة وتسعمائة (1509/915)، وكتب عنها أنَّها ذهب جمالها وتغيّرت محاسنها، وتناقص عُمرانها، مع أنَّها كانت في أوَّل عهدها تفوق غيرها من مدن مغربية أُخْرى، قال :

"ولم يبق بها إلاَّ نحو أربعمائة دار مسكونة لا غير، والباقي صار أجنَّة كُروم وأملاكاً محوزة، وتكتَّل السُّكان حول القصبة وما اتَّصل بها في نحو ثلاثة أحياء تابعة لها، وبعض الحوانيت القليلة الخاصّة ببيع الضَّروري مِمَّا يَتوقَّف عليه أُولئك السُّكان من الأشْياء اللاَّزمة لهم.

ومع هذا كله، فقد بقيت محفوظة من استيلاء البرتغال عليها، مع أنّه كان فاغراً فاه لالتهَامِ سائر شواطئ مملكة فاس كلّها، وخصوصاً مصب أبي رقراق، وكان في وُسْعه ذلك، لشدة قوته وتفوُّقه على غيره من الدُّول في ذلك العصر.

ولكن سلاطين فاس كان لهم دائماً بقصبتها حِصّة من الجيش تَدْرَأُ الغارة عنها جهد المستطاع، وهذه القَصَبَة - وإنْ كانت محروسة بِحاميتها التي تُدافع عنها داخلها - لا يمكنها المقاومة عند الهجوم عليها بالمدافع والمهاريس مثلاً لتَصَدُّعِ وثَلْم جُلّ حيطانها".

ثم قال :

"ولمَّا زُرتها واعْتبرت بمَرْآها، وتذكّرت حالتها في أوَّل عهدها وعظمة شأنها، وقابلت بين ما كان فيها من المنتزهات والقصور الملكية، وما هي عليه الآن من الخراب والأطْلال البالية، أدركني من ذلك تَحَسُّر وأسف كبير"[187].

---

185) «الاستقصا»، ص 175 من ج 2، طبع القاهرة. وص 371 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

186) «تاريخ الرباط» لكايِّي "Caillé"، ص 183 .

188) ص 141 من ج 2، طبع باريس.

كما زارها أيْضاً مَرمول "Marmol" سنة تسع وأربعين وتسعمائة (1542/949) ووصفها في كتابه المسمى "إفريقيا" فقال بعدما تكلم على أوّليتها ونشأتها، وازْدهارها في عصر منصورها :[188]

"ولما توفي تناقصت عِمارتها بسبب الحروب الطّاحنة التي كانت بين الموحدين وبني مرين في أول عهدهم، ولم يبق منها الآن إلاّ نحو العشر من سكّانها، وأمّا السُّور فقد تخرّب بعضه وتلاشى، وكذلك القُصور والدُّور كلها تهدّمت وخربت، ولم يبْق بها اليوم إلاّ نحو مائة دار أوْ ستمائة كانون، في ثلاث حارات قُرب القصبة، والباقي صار أجِنّة وبساتين.

والقصبة بيَدِ ملوك فاس، ينزل بها أُمراؤهم وحاشيتهم، وإنّما تَصلُح للدّفاع إذا كان القتال باليد، وأمّا إذا كان بالبطريات فإنها لا تُغْنِي شيئا، لأنّ أسْوارها متداعية للسقوط".

قال كايِّي "Caillé" في تاريخه :[189]

"وبمقتضى ما ذكره ليون الإفريقي، ومرمول، وهما شَاهِدَا عِيان، فانّ مدينة رباط الفتح، كانت تُعَدُّ في ذلك العصر بلدة صغيرة، حافظت على وُجودها وكِيانها، لموقعها الطبيعي والجغرافي من النَّهر والبَحر".

ويوخذ منه أيْضا، أنّها كانت فيها حركة في عهد الوطّاسيين وإنْ كانت ضعيفة أوْ قليلة بالنّسبة لغيرها من مدن أُخْرى حتى كان يُطلق عليها إذْ ذاك قلعة سلا.

وإذا اعْتبرنا ما قاله مرمول من أنّ عدد سكانها كان لا يتجاوز ستمائة كانون، فيمكن تقديرهم بنحو ثلاثة أوْ أربعة آلاف شخص باعتبار خمسة أوْ ستة أشخاص في كل كانون.

ويُظَن أنه انضمّ إليهم عدد من اليهود الذين لجؤُوا إلى الرباط في حدود سنة ست وعشرين وثمانمائة (1422/826)، حسبما ذكره كولفان "Goulven" في بحثه التاريخي في حُدوث ملاّح سلا وملاّح رباط الفتح.

وعلى كل حال، فإنّ مدينة رباط الفتح، وإنْ تضاءل عمْرانها وضعفت الحركة الحيوية فيها، وانحصرت في قصبتها في عهد بني وطّاس، فقد حافظت على وُجودها وذكرياتها بما كان يُرابط فيها من الجيوش والجنود، وما كان يَخْفِق في ساحاتها من الرايات والبنود، وإنما

188) ص 141 من ج 2، طبع باريس.

189) ص 183.

غشيـها في ذلك العـهـد المملوء بالفِتَن سكون وركود، فنامت تحت ظل أسوارها وحُصـون قصبتـها، وكان استيقاظها من نومتها لمَّا نزل بها المهاجرون الأندلسيون، وأعادوا الحياة إليها، كما سيأتي تفصيله وتحصيله.

ولم يُخلّف الوطَّاسيون بها أثرًا يُذْكر عنهم، أوْ يُنْسب إليهم، إلاَّ ما يقال من أنَّهم أصلْحوا ورمَّموا بعض الأسوار والأبراج بالقصبة التي كانت مسلْحة لهم، تُرابِطُ فيها فرقة من جيوشهم، وإنْ كانت هذه الإصلاحات أوِ التَّرميمات، لم يُعْثر عليها ولم تتميز حقيقتها، فيما بقي محفوظاً من الآثار الموحدية بها، ولعلَّها كانت خفيفة ضعيفة مقصورة على المحافظة على الموجود وصيانته حسب الحاجة الدَّاعية إليه.[190]

---

190) نفس المصدر، ص 205.

الفصل الخامس

عن العدوتين سلا ورباط الفتح
في عهد السعديين
وهجرة الأندلسيين إليهما
وما نشأ بين هؤلاء من حروب داخلية
ثم بينهم وبين العياشي

المبحث الأول

السعديون بالعدوتين سلا ورباط الفتح

استمرت سفينة الوطّاسيين مُلَججَةً في لجّة الفوضى والفتن إلى أنْ غَرِقَت فيها، وجاءت بعدها دولة السّعديين فوجدت العمارة على ضفتي مصب أبي رقراق كما وصفْناها فيما سبق.

سلا، في حالة تفْريط وإهْمال، ورسوم عافية وأطلال، ورباط الفتح في سُبات عميق وأنين، وانْتظارِ مَن يوقظه من سباته، وينقِذه من حالته ولَوْ بَعْدَ حين.

وشالة، زاوية ومقبرة لسلاطين ءال مرين.

والعُمْران الممتدُّ من القصبة إلى النَّاحية المُشْرفة على الوادي لا يتجاوز ثلاثة أوْ أربعة ءالاف نسمة تَبَعًا لما ذكره ليون الإفريقي ومرمول.

وكانت القصبة روح هذه العمارة الضئيلة الموجودة على الضفتين، ولولاها لتفرَّقت واضْمحلَّت وأصْبحت أثرًا بعد عين.

ولكن الملوك السعديين تنبّهوا لِمَوْقع هذا المَصَب الجغرافي من المملكة، فأعاروه بعض الإهْتمام، واتَّخذوه مركزًا بحريًا لأساطيلهم، كما سيأتي بيان ذلك عند الكلام على الأسطول المغربي أثناء الممالك والدول بمزيد بيان وتفصيل.

وأول من بادر لذلك منهم السُّلطان أبو مروان، عبد الملك المعتصم بالله بن محمد الشّيخ.

هذا، ولا يُعْلم أنَّ السَّعديين في أول عهدهم، منذ استولوا على العدوتين – لما تخلّى لهم عنهما أحمد الوطّاسي، سنة أربع وخمسين وتسعمائة (1547/954) كما تقدَّم – شيدوا بهما

أثرا يُذكر، أوْ عملوا عملاً عمرانياً يستحق أنْ يُسجَّل ويُسطَّر، إلى زمن زيدان، لمَّا أنْزل بالقصبة شردمة من جيشه لا تتجاوز عشرين فارسا، ومعها قائد أسْند له النظر في القصبة وما حولها، وفي مدينة سلا على الضفَّة اليُمنى للنَّهر.

ولكن هذا القائد كانت شخصيته ضعيفة، ولم تكن له سلطة مباشرة على السكّان.

ودامت هذه الحالة العُمرانية والسّياسية بالعدوتين على ماهي عليه لاضطراب حَبْل الأمْن بالمغرب، وتطاحن أبْناء المنصور السّعدي على الملك، وقيام الثوار عليهم بكل ناحية من أطراف المملكة، إلى أنْ كانت الداهية العُظمى بطرد الأندلسيين من الأندلس، وهجرة جمهور كبير منهم إلى المغرب، فعَمَروا القصبة ورباط الفتح، كما سيأتي تفصيله، وبيانه وتحصيله.

وسنمهد لذلك بإلقاء نظرة موجزة عامّة عن حالة الإسلام والمسلمين بالأندلس، بعد سقوط الخلافة الأموية منها، ليرتبط شريط الحوادث بعضها ببعض، ويتصل اللاَّحق بالسَّابق، لِمَا في ذلك من العِبْرة والذِّكرى، وما يذَّكر إلاَّ أُولوا الألْباب.

المبحث الثاني

نظرة عامة عن حالة الإسلام والمسلمين بالأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية

يُعتبر ابتداء سقوط الأندلس، وانعكاس تيار النصرانية عليها، بعد سقوط الخلافة الأموية منها.

وقد كان قيام ملوك الطوائف بها، واختلاف كلمتهم، ومحاربة بعضهم لبعض، شؤماً عليها. ومن ذلك الحين، كان ابتداء أُفول شمس الإسلام عن ربوعها وأقطارها، لِتَخَاذُلِهِم عن نصرته، وتسليمهم مُدُنه الكُبرى وعواصمه وحُصونه للعدو، لعلَّه يكفُّ عاديته عنهم، ويتركهم يتمتعون برئاستهم الموهومة، لاهين لاعبين في قصورهم الزاهرة، ومبانيهم الفاخرة، وإنَّما كان يُسرُّ لهم حَسْوًا في ارتغاء، ويُمْلي لهم ليزدادوا إثْما.

وإلَى ذلك يُشير لسان الدين ابن الخطيب في «رقم الحلل» بقوله :[191].

حَتَّى إِذَا عِقْدُ الْخِلاَفَةِ انْتَثَرْ وَذَهَبَ الْعَيْنُ جَمِيعًا وَالأَثَرْ
قَامَ بِكُلِّ بُقْعَةٍ مَلِيكُ وَصَاحَ فَوْقَ كُلِّ غُصْنٍ دِيكُ

ولكن هذه الحالة لم تدم، لأنَّ يوسف بن تاشفين، أدْرك الموقف وجاز المجاز، بجيوشه الجرَّارة، وجنوده المخْتارة، وأوْقع بالعدو وقعة الزَّلاقة، ولم تَكن له بها طاقة، فانتعش الإسلام بعد هذه الوقعة بالجزيرة، وعاش في ظلِّها دَهْرًا طويلاً.

191) ص 45، طبع تونس.

ثم تتبَّع ملوكَ الطوائف فقضى عليهم، وتخطّفهم من فَوْقِ عروشهم، واستنزلهم من صيَاصيهِمْ، وقادهم من نواصيهم، الواحد بعد الآخر. وكان آخرهم المُعْتَمِدُ بْنُ عبَّاد، وقِصَّتُهُ معلومة.

ولمَّا سقطت الدَّولة المُرابطية، اختلَّ نظام الحكم بالأندلس مرة ثانية، وتحرَّك العدو في أطرافها، وعادت هَيْفُ إلى أدْيانها.

وبمجرد ما رسخت قدم الموحدين في المُلْكِ بالمغرب، وَلَّى عبد المومن وجهه شَطْرَ بلاد الأندلس، وتلافى الحالة المُنْبئة بالخطر بها.

وجاء بعده حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور، فكانت مواقفه الجهادية بالدِّيار الأندلسية مشكورة، وأيَّامه بالذَّبِّ عن الإسلام بأصقاعها معمورة، وأوْقع بالعدو وَقْعَة الأرك المشهورة.

وبعد وفاته، استطال العدو على ثغور المسلمين، وفَغَرَ فاه لابتلاعها، وانْتَهب الأمْوال، وسبى النِّساء والذرية.

فعبر إليه النَّاصر بن المنصور، وكانت بينهما وقعة العقاب، التي محَّص الله فيها المسلمين، وتلاشت بعدها بالأندلس قوة الموحدين، فلم تقم لهم بها قائمة.

واستبدَّ السَّادات الوُلاة من بني عبد المومن بولاياتهم، وسارعوا إلى العدو يتملَّقون ويطلبون حمايته، ويسْتمنحونه نصرته وإعانَته، ويتزلَّفون إليْه بالتَّخلي عن الحصون والمدن الكبرى، فاستولى على جزيرة شقر ومُرسية، وغيرهما من الثغور المهمَّة، وهاجر الجمُّ الغفير من سكانها إلى المغرب، فأنْزلهم الخليفة أبو محمد عبد الواحد الرَّشيد بن المامون بن المنصور برباط الفتح، وأصْدر لَهُم ظهيراً بذلك.

وهذه هي الهجْرة الأولى للأندلسيين إلى رباط الفتْح، وقد تقدَّم خبرها مستوفًى أثناء الكلام على عمران رباط الفتح أواخر الدولة الموحِّدية.

ولَمَّا انْهارَت هذه الدولة، اخْتلَّ نظام الحكم بالأندلس مرة ثالثة، وعادت إلى الانقسام والتفرقة، وظهر بها عدة رؤساء وأمراء منهم : بَنُو هود، وبَنُو مردنيش، وبَنُو شقيْلُولة، وبَنُو الأحمر.

وكلهم كانوا ضِعاف القوة مَفْلولي الرأي أمام العدو، يَكِيدُ بعضُهم لبعض، ولا يهمهم إلاَّ أَمْر أنْفُسهم، واستمرار رئاستهم.

فانتهز العدوُّ الفرصة فيهم، وتخطَّف ما بقي بأيديهم من المدن والحصون والعواصم الكبرى، فاستولى عليها، وسقطت قرطبة وإشبيلية، وانْحاز بنو الأحْمر إلى غرناطة، وأسَّسوا بها دوْلتهم الصغيرة الضعيفة، وعاشت بين سلم وحَرْبٍ، وسَلْبٍ وَنَهْبٍ، إلى أنْ قضتْ نحبها، وكان التَّسْليم مصيرها.

وقد كان لآل مرين - لمَّا آل أمْر المغرب إليهم - مواقف حسنة في الجهاد بالأندلس والذَّب عنها، في أول عهْدهم، وخصوصا يعقوب بن عبد الحق منهم، وأخبار تردُّده إليها، وأعماله في الجهاد معروفة، ومواقفه أمام العدو في كتب التاريخ موْصوفة.

وكانت لهم رابطةٌ مُرابطةٌ بالثغور الأندلسية، تَدْرَأُ في نحْر العدو، وتكفُّ من غربه، وكان شيخ الغُزاة دائما منهم.

واقتفى أثر أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق حفيده أبو الحسن علي، فحمَى ودافع عن الدين، بجيشه وأسطوله إلى أنْ حلَّت به كارثة طريف التي محَّص اللّه فيها المسلمين، وكان آخر ملوك مرين الذين جازوا إلى العدوة مجاهدين ومدافعين عن البلاد والدِّين.

ويُلاحظ هنا أن حروب بني مرين بالأندلس، كانت مقْصُورة على نكاية العدو، وتخريب بلاده، وإفساد زروعه، وإبادة أوْ أخذ ماشيته، وانْتهاب أمْواله، وسَبْي ذَرَاريه ونسائه ورجاله، ولم ينتج عنها استرجاع ما اسْتولى عليه من الحُصون والقِلاع والقُرى، والمُدُن الكبرى، وما تَنَقَّصَهُ من بلاد المسلمين التي كانت تحت إِمْرة بني الأحمر.

وقد كان بنو الأحمر، يلعبون على الحبْلَيْن، مع بني مرين، فيُوالون العدو تارة ويوالونهم أخرى، حسب مصلحتهم، الموقتة، ورُبَّما وقفوا في صفِّ العدو وتقرَّبوا إليْه بما يُرضيه، واستعانوا به عليْهم، وتنازلوا له عمَّا بقي بأيديهم وتحت نفوذهم من البلاد شيئا فشيئا، حتى قامت القيامة عليهم.

وفي أثْناء هذه الفتن المتوالية، والحروب المتعاقبة المتدانية، كان الأندلسيون كلَّما سقطت مدينة أوْ قرية أوْ حِصْن من الحصون، هاجروا جماعة وأفْراداً فِراراً بدينهم، سواء إلى المغرب أوْ غيره من بلاد الإسلام، وهكذا كانت الهجرة متتابعة متوالية مدة قرون وأجيال، منذ سقطت الخِلافة الأموية، بعد ما كانت الأندلس قبل سقوطها قِبْلة الرَّاحلين والمُهاجرين إلَيْها من سائر الأقطار الإسلامية، إلى أنْ حلَّت الطَّامة الكُبرى، والمُصيبة

العظمى بسقوط غرناطة، وما نشأ عنها من الفتْنة في الدِّين، وصدور مَرَاسيم الجلاء الأخير في عهد السّعديين، والْتَجَأَ جُمْهور كبير من المهاجرين، إلى العدوتين: السلاوية والرباطية.

فَعَمَرُوا رباط الفتح وحصَّنوه، وأسَّسوا فيه المساجد والمعاهد والدُّور، والمنازل الرفيعة والقصور، والأساطيل البحرية، والعمارة القرصانية، المتجولة في الشواطئ الأوربية، وهو ما سنقصه في الفصول الآتية.

المبحث الثالث

سقوط غرناطة وهجرة المسلمين من الأندلس[192]

سقطت غرناطة في ربيع الأول سنة سبع وتسعين وثمانمائة (ربيع الأول 897/ يناير 1492) واشترط المسلمون على العدو عند دخوله إليها شروطاً ترجع إلى تأمينهم في إقامة شعائر دينهم وأموالهم وأرواحهم.

منها أن من أراد الهجرة والجواز إلى العدوة لا يُمنع، ويجوزون في مدة عينت لهم، في مراكب السلطان، ولا يلزمهم الكراء، ثم بعد ذلك يعطون عُشُرَ مالهم والكراء...

فهاجر كل من أراد الهجرة بدينه اختيارا.

ومنها، أنه لا يُجْبر أحد ممن أسلم على الرجوع للنصرانية، ومن تنصَّر من المسلمين يُوقف أياماً حتى يظهر حاله، ويُحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النَّصارى، فان أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد...

وفي سنة أربعة وتسعمائة (1498/904)، نقض العدو شروطه والتزاماته عُرْوَة عُرْوَة، ونكث عهده، وحمل المسلمين على التنصر، لأنَّ القسيسين والرُّهبان قالوا : إنَّ من كان نصرانياً وأسلم، يتعين عليه الرجوع إلى نصرانيته، حتى أنهم كانوا يقولون للرَّجل : إنَّ جدك كان نصرانياً فأسلم، فارجع أنت نصرانياً كما كان جدك وسلفك.

ونشأ عن هذه الفتنة في الدين، ثورة البيازين والمُعَاقبة عليها بالموت أو الاستسلام للرهبان والقسِّيسين، فتنصَّروا جموعاً وجماهير باديةً وحاضرةً. وامتنع قوم من التنصُّر،

192) ملخص من «نفح الطيب»، ص 1259 من ج 2، طبع القاهرة، ومن «الاستقصا» بتصرف، ص 152 من ج 2، طبع القاهرة. وص 303 إلى ص 309 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

واعْتزلوا النصارى، فلم ينفعْهم ذلك، وجمع لهم العدو الجيوش واستأصلهم قتلاً وسبياً واستعبادا. وكان الحادث عظيما، وأنشأوا ديوان التحقيق، ومحكمة التفتيش،(193) فكانت أحكامها جائرة قاسية ظالمة.

وبعد ذلك، اسْتُونفت الهجرة جماعة وأفرادا، سرًّا وإعلانا. وكان القابض على دينه كالقابض على الجمر، يعبد ربه خفية، مخافة الموت أو الفتْنة، فشدَّد العدو الرقابة على هؤلاء المضطهدين، حتَّى إنَّه أحرق كثيراً منهم، ومنعهم من حمل السلاح، ولو السكين الصغيرة، ومَنْ حمله يُعاقب بالحرق والشَّنق.

وثار بعضهم بالجبال، مُعْتصما بدينه، وأمَّروا عليهم أُمراء مرَارًا، فلم ينفعهم ذلك، وكانت عاقبتهم التَّجريد والتَّشريد ولم يُقيِّض الله لهم نَصْرًا، واستغاثوا بملوك الإسلام شرقاً وغربا، فلم يسمع أحد استغاثتهم، ولم يلب نداءهم، ونظم شعراؤهم القصائد المُبْكية، وكتب كُتَّابهم الرسائل المُحْزنة، الكاشفة عن حالهم، وما يقاسونه من أَلِيمِ العذاب، وألوان الهوَان، والظلم والعدوان، فكانت صيحة في واد، ونفخة في رماد.

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لاَ حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادي

وَنَارٌ لَوْ نَفَخْتَ فِيهَا أَضَاءتْ وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ

وفي الأخير صدرت المراسيم الرَّسمية من الملك فِيلِيبْ الثَّالث بالطَّرد جملة وتفصيلا، سنة ثمان عشرة وألف (1609-1610/1018) بعدما أقاموا مُسَاكِنِينَ للنَّصارى، منذ سقوط غرناطة، زهاء مائة وعشرين سنة.

فخرجت من المطرودين أُلوفٌ بفاس، وأُلوفٌ بتلمسان ووهران، وخرج جمهورهم بتونس، وتسلَّط الأعْراب على الذين ذهبوا لتلمسان فنهبوا أموالهم وذخائرهم، ولم يَنْجُ منهم إلاَّ القليل، وسلِمَ من ذهب لتونس، فاستقرُّوا بها، وعَمَرُوا مدنها وقراها. وخرجت أُلوفٌ أخرى ببيجة الجزائر وتطوان وسلا.

واستخدم المنصور السَّعدي منهم جيشاً شارك في حملته على السُّودان، وكان عدده نحو أَلْفَيْ مقاتل بالتَّثْنية، وبقيت بقيةٌ منهم بنواحي تَنْبُكْتُو تناسلوا بها، ويُعرفون إلى اليوم بِالأَنْدَلُوزْ.

(193) Tribunal d'inquisition.

وتوجد فرقة أخرى منهم بسوس، يقال لها : آيت غَرَّابُوا، يُظَنُّ أنها من مهاجري الأندلسيين أيضا.

والذين سكنوا بسلا، وإليهم يساق الحديث، كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور، وحصَّنوا القصبة برباط الفتح، وبنوا فيها الحمَّامات والدُّور والقصور.

قال أبو العباس المقَّري في «نفح الطيب» :[194]

وهم الآن، يعني في حدود الثلاثين وألف (1620/1030) بهذا الحال.

وتفرَّقت طوائف وجموع أُخرى منهم في غير المغرب والجزائر وتونس، من الأقطار الإسلامية وغيرها، كالقسطنطينية، ومصر، والشام وإيطاليا، وفرنسا... فمنهم من عاد إلى دينه، ومنهم من بقي على نصرانيته، وانقطعت كلمة التوحيد من الأندلس، وعادت مسيحية كما كانت أوَّلَ مرة، والله يرثُ الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وقد نقل أبو عبد الله، محمد بُوجَنْدار الرباطي في كتابه : «مقدمة الفتح»،[195] عن الشيخ أبي عبد الله، محمد بن عبد الرفيع الأندلسي، المتوفى سنة اثنين وخمسين وألف (1642/1052)، وأظُنُّهُ من مهاجرة الأندلس الأولين إلى تونس من خاتمة كتابه المسمى : «الأنوار النَّبوية، في آباء خير البرية» مخطوط عزيز الوجود، نقلاً غريباً تضمَّن شرح حالة المسلمين بالأندلس، بعد سقوط غرناطة وإرغامهم على التنصر، وكيف كان أعيانهم يُلَقِّنون أولادهم خُفْية مبادئ دين الإسلام، واللغة العربية وما كانوا يقاسونه من ألوان العذاب، وأنواع العقاب، إلَى أنْ هاجروا مِراراً فِراراً بدينهم، ووجدوا في بلاد الإسلام مراغماً كثيراً وسعة.

وكل ما ذكره هذا السيد مُطابق تمام المطابقة، لما ذكره مؤرخو الإصبان، والفرنسيين، الذين سجَّلوا حوادث وأخبار هذه النكبة الفظيعة في الإسلام، حسبما نقلنا بعضه فيما تقدَّم، وسننقل بعضه فيما سيأتي.

وأظُنُّه تفرَّد ببسْط هذه الحوادث المحزنة، وتفصيلها بكيفية مؤثرة، دون غيره من المؤرخين المعاصرين لها أو القريبين من عصرها، أندلسيين ومغاربة، فليرجع إليْه من أراد الوقوف عليه.

---

194) ص 1269 من ج 2، طبع القاهرة.

195) ص 201 وما بعدها.

وها نحن الآن نعيش نكبة أخرى تُضارعها وتضاهيها، وهي نكبة فلسطين، وسكانها المسلمين المطرودين اللاجئين، وقد كان الطرد الأول على يد المسيحيين، والثاني على يد الإسرائيليين الصهيونيين. وفق الله ملوك الإسلام ورؤساءهم لجمع كلمتهم، على ما فيه خلاص فلسطين، في إنقاذ المسجد الأقصى، الذي هو ثاني القبلتين بمنه وفضله آمين.

المبحث الرابع

هجرة الحُورْنَاشِيرُوسْ والمُورِيسْكُوسْ إلى المغرب، ونزولهم بالقصبة ورباط الفتح

ينقسم الأندلسيون الذين هاجروا من إسبانيا قبل صدور مراسيم الطرد الجماعي إلى المغرب وبعدها، ونزلوا بالقصبة، ورباط الفتح وعَمروهما، وأسَّسوا القرصنة السلاوية الرباطية، إلى فرقتين :

الحُورْنَاشِيرُوسْ .... "Les Hornacheros"

والمُورِيسْكُوسْ .... "Les Morisques"

وسنفرد لكل فرقة منهما فصلاً مستقلاً ببيان كيفية هجرتها، ونزولها بالقصبة، أو بمدينة الرباط، واتّحادهما واتّفاقهما وتأسيسهما للحكومة التي أطْلق عليها الأوربيون : "الجمهورية السلاوية".

ونُتبعه بِفَصْل نتناول الكلام فيه على ما حصل بينهما من الخلاف، بعد الائْتلاف، والانْشقاق، بعد الاتّفاق، وما نشأ عن ذلك من الحروب الدّاخلية، إلى أنْ عاد السّلم والأمن بينهما إلى نصابه، لنتفرّغ لبسط كيفية تكوين القرصنة السلاوية الرباطية، وأطوارها التي تطوّرت فيها، وموقفها من دول أوربا، وموقف دول أوربا منها، وما ءال إليه أمرها.

* الحورناشيروس[196]

الحُورَنَاشيرُوسْ، سكان مدينة حورناشوس، الواقعة على الضفة اليمنى لوادي مَاطَاشِيلْ "Matachel" وهو ساعد من سواعد نهر گُوَادْيَانَا "Guadiana" على بعد نحو خمسين كيلومتراً من مدينة مَارِدَة بإِسْطْرَامَا دُورَا "Estramadura"، مقاطعة بَطْلِيُوسْ "Badajos".

وقد كان هؤلاء الحورناشوس، يعيشون فيها بعد سقوط غرناطة في شبه استقلال أو انفصال، عن الحكومة المركزية، وهم الْمُدَجَّنُون الذين ساكنوا الإصبان بعد سقوط الدّولة الإسلامية، في مقابلة إتَاوَةٍ كانوا يؤدّونها لملوك إصبانيا، وشروط وامتيازات اتّفقوا عليها.

وبقوا متمسّكين بدينهم الخالص سالكين نهجه القويم، متشبّثين بحبله المتين، لم يغيرهم عنه مغير، ولم يؤثر عليهم فيه مؤثر، يتكلّمون اللغة العربية، ويفضلونها على القشتيلية، ويحافظون على الشعائر الإسلامية والمظاهر الدينية، والعوائد القومية.

وحيث كانوا أغنياء، فقد استطاعوا أن يَدْفَعُوا للملك فيليب الثاني ثلاثين ألف دوكا (30.000)، في مقابلة التّرخيص لهم في حمل السّلاح.

ويتهم مؤرخو الإصبان في ذلك العصر، هؤلاء الحورناشيروس بأنهم كانوا شِداداً غلاظا، يقطعون السّبيل، ويغتصبون الأموال، ولا يتحرّجون من إظهار نقمتهم بالأقوال والأفعال، على كل من تسلّطوا عليه من الإصبان، وربّما كان ذلك منهم، انتقاماً لأنْفُسهم، وإخوانهم في الدين.

وقد هاجر بعضهم لبلاد الإسلام اختياراً قبل صدور المراسيم الطردية، تفضيلاً لها على ما كانوا فيه من الإقامة بدار الحرب والذل والهوان.

ولمّا صدر مرسوم فيليب الثالث، المؤرخ بثالث دجنبر سنة تسع وستمائة وألف (03 دجنبر 04/1609 شوال 1018)، بطرد الموريسكيين من غرناطة ومُرْسِيَة، وغيرهما من المدن الأندلسية، نَصَّ على أنَّ سكان مدينة حورناشوس يُطْردون أيْضا، وإنْ كانت غير داخلة في حدود مقاطعات المدن المذكورة.

---

196) ملخص من «تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 213 بتصرف

فطُبِّقَ عليهم وَوُجِد بدُورهم بعد خروجهم منها، خزائن كتب علمية، عَربية إسلامية دينية، ومصاحف قرآنية نفيسة، مكتوبة بخطوط عجيبة محلاَّة بالألوان النَّاصعة حمراء وزرقاء، ومُمَوَّهَة بالذهب فعدُّها الرهبان كتباً سِحْرية وأبادوها وأتْلفوها.(197)

وهاجروا كغيرهم ممن شملهم حكم الطرد، ووصلوا إلى المغرب أوائل سنة تسع عشرة وألف (أوائل 1019/أوائل 1610).

ونزلوا أولاً بالضفة اليمنى للنهر الرقراقي، ثم استقرُّوا بالضفة اليسرى منه، في عهد السلطان زيدان السعدي. وكانت سلا ورباطها إذ ذاك حديثي عهد بدخولهما في طاعته، عقب الحروب الداخلية التي كانت بينه وبين عبد الله بن المامون الشيخ، سنة ثمان عشرة وألف (1609/1018).

فأنزل بالقصبة حامية لا تتجاوز عشرين فارسا، تحت إمْرَة قائده عبد العزيز الزَّعْرُورِي، وأذِنَ لهم بالاستقرار بها تحت أمره ونظر القائد المذكور، وتخلَّى لهم عن مداخيل المرسى إعانَةً لهم، وإصْلاحاً لحالهم.

ولعل السلطان زيدان كان يَرْمِي إلى غاية عسكرية من استقرارهم بالقصبة، وهي عمارتها وحراستها، حتى لا يتغلَّب عليها مرة أخرى ندُّهُ ومُحاربه المولى عبد اللّه بن المامون الشيخ، الثائر عليه بفاس وشمال المغرب.

وإنْ كانت القصبة مُهملة خربة في ذلك العهد، فهي كبيرة واسعة فسيحة كأنها مدينة مستقلّة.

وبمجرد استقرار الأندلسيين الحورناشيروس بها، شرعوا في إصلاحها وترميمها وتجديد ما تلاشى من حصونها وأبراجها، بما جاؤوا به معهم من الأموال، وما حَصَّلُوا عليه من المداخيل الديوانية.

وربَّمَا كانوا يُضْمرون في أنفسهم من أوَّل يوم الاعتصام بها، والاختصاص بحكمها والانفصال عَنِ الدَّولة.(198)

---

197) «الحالة الاجتماعية لموريسكوس الإصبان وسبب طردهم وما نشأ عنه»، لمؤلفه فْلو رَانْسيو جانير (Florencio Janer)، ص 83، طبع باريس سنة 1274/1857 Conditions Sociales des Morisques d'Espagne, Causes de leur Expulsion, ses Conséquences". pages 83.

198) دُوكَاسْطْرْ (De Castries)، ص 191 من المجلد الثالث، سلسلة فرنسا.

ولذلك، لمَّا أمرهم السلطان زيدان بتجهيز أربعمائة منهم يتوجهون إلى درعة ويَنْضَمُّونَ إلى الجيش المرابط بها في حروبه مع أبي المحَلِّي، امْتثلوا أوَّلاً وتوجَّهوا، ولكنهم لَمَّا طالت غيبتهم فَرَّ أكثرهم ورجعوا إلى قصبتهم.

وندبهم زيدان مرة أخرى لتجديد بعثتهم إلى درعة، فتصامَمُوا وتثاقلوا عنه، وأبَوْا الانقياد إليه، وكرهوه، وجاهروا بخلع طاعته.

ثم وشوْا إليه، بقائده الزَّعروري، فأمر بالقبض عليه سنة خمس وثلاثين وألف (1625/1035)، فنهب الأندلسيون داره، وكتبوا إلى زيدان بذلك متزلفين إليه، ومظهرين طاعته خداعاً ومكيدة، فقبل ذلك منهم، وبعث إليهم مولاه وقائده عَجِيبًا، وكان من أسْرى الإصبان، فاشتراه وحظى عنده وأسْلم، وأصْبح عيبة سرِّه، يسند إليه الماموريات المُهِمَّة لثقته به، فكلَّفه في شوال سنة اثنين وثلاثين وألف (شوال 1032/ غشت 1623) مع السَّانْطْ مَانَدْرِي "Saint Mandrey" بإخماد ثائرة الفِتْنة التي ثارت بدكالة لَمَّا ظهر بعض الأجانب بها.

ووجهه أيضا في المُحرَّم فاتح سنة ست وثلاثين وألف (محرم 1036/ شتنبر 1626) في مهمة أخرى لدى حاكم البريجة (الجديدة) فقام بها.

وبعد رجوعه من هذه المهمة، وجهه إلى القصبة برباط الفتح، خلفاً عن الزَّعروري، سنة سبع وثلاثين وألف (1627/1037) وهي السنة التي تُوفي فيها.(199)

فمكث بين أظْهرهم مدة، فلم يَعْبَئُوا به، وَسَخِروا منه، ثم عَدَوْا عليه وقتلوه وطردوا من كان معه من الجند السلطاني، وشَقُّوا العصا جهارا، وبقي أهل الرباط لاَ وَلِيَ عليهم من قِبَلِ الحكومة المركزية، وامتدَّت أيدي اللُّصوص إلى الحُرَم والأمْوال والأرْواح، وانتشرت الفتنة وأظْلم الجو.

وكان أبو عبد الله محمد العياشي بالعدوة اليمنى للمصب، ينظر إلى هذه الحالة بعين الانتقاد، ويضمر الانتقام.

ولْنَرُدَّ عنان القلم الآن إلى الكلام على فرقة الموريسكوس، وهجرتهم إلى المغرب وكيف تمَّ اتصالهم بإخوانهم الحوناشيروس الذين سبقوهم إلى الهجرة والنزول بالقصبة.

---

199) «الاستقصا»، ص 129 من ج 3، طبع القاهرة. وص 277 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

* **الموريسكوس**

لفظة موريسكوس "Moriscos " إصبانية، تصغير مورو، أطلقَها الإصبان على العرب أو المسلمين الذين أرغموهم على الدخول تحت حكمهم، أو مسَّحوهم غصباً وقهْرا، بعد سقوط غرناطة وزوال الإسلام من الأندلس، وذهاب ملكه وحُكمه وشريعته منه.

وقد رجعوا بتسميتهم لهم بهذا الإسم، إلى ما كان يُسمِّيهم به أجدادهم الگوطْ قبل الفتح الإسلامي بزمن طويل، في العهد الذي كانت أرض المغربين الأوسط والأقصى تسمى موريطانيا، أوْ أرض الموريين.

وهم من المُدَجَّنين الذين هاجروا إلى المغرب، بعد صدور مراسيم الطرْد الجماعية. ولا يعْرِفُ مؤرخو المغرب، التّفْرقَة بينهم وبين الحورناشيروس الذين تقدَّم الكلام عليهم في الفصل السَّابق، ويطلقون على الجميع : الأندلسيون أوْ الغرْنَاطيُون.

مراسيم الطّرد

تقدم لنا أنَّ الهجرة من الديار الأندلسية، ابْتدأت منذ آلَتْ شمس الإسلام فيها إلى الغروب، وتقلَّص ظله من شمال الجزيرة إلى أطْراف الجنوب.

ولمَّا غربتْ نهائياً وأظْلم الجو بسقوط غرناطة، وأصْبحت دار نقلة، وليست بدار إقامة، تتابعت الهجرة إلى سائر الأمصار الإسلامية، وغيرها من الأقطار التي على شواطئ حوض البحر الأبيض المتوسِّط، خوفاً من الفِتْنة الدينية، ولكن كانت ببُطْء وعن اختيار، بدوافع شخصية، رعْياً لِمَا تقتضيه المصلحة الفَردية، من تصفية ما يمكن تصفيته من بيع المَتاع والعقار والديار، وجمع ما يُسْمح بجمعه من المقتنيات والحلْي والأمْوال.

واستمرت الحالة على ذلك، ما بين شِدَّةٍ ورخاء، وسعادة وشقاء، وسرَّاء وضرَّاء، واختبارٍ وابتلاء، وأخْذ وعَطاء، زهاء مائة وعشرين سنة، تنصَّر فيها من بقي من المسلمين كرهاً لا طوْعا، وبذل الإصبان جُهوداً عظيمة في إطْفاء نور الإسلام الذي كان مشرقاً بشبه الجزيرة منذ ما يزيد على ثمانمائة عام، وتناسخت ثلاثة أجيال، ولم تنسخ نهائياً عوائد الإسلام، وإنما أُهْمل ظاهراً وتُنُوسي واختلط، وذهبت أخلاقه وتقاليده، وامتزجت بعوائد الكنيسة أوْ حلَّتْ محلَّها أخلاقها، وشبَّ الجيل الرابع، وهو لا يَعْرف من الإسلام إلا الإسم، ومع ذلك يتعصَّب له، ويَحِنُّ إلى عزَّته الدينية وكرامته القومية، أيام كان أسلافه يسُوسُون النَّاس والأمْرُ أمْرهم، واليد الطولى، والكلمة العليا لهم.

فَبَيْنَ نَسُوسُ النَّاسَ وَالأَمْرُ أَمْرُنَا   إذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ

فلم يَرُقْ ذلك ملوك الإصبان، وقادتَهم من القَسَاوِسَة والرهبان، وكانوا دائماً يُسيئون الظن بالمُدَجَّنين والمتنصّرين الجُدُد كما يقولون، ويتوقعون منهم شرًا، فيزيدون في التَّضييق عليهم وإهَانتهم، وإظْهار حِقدهم، والازْدراء بدين أسلافهم علانية وجهرا.

وفي الأخير، نكثوا عُهودهم، وأخْلفوا وُعُودهم، وأنزلوا بمن كان ينتسب إلى الإسلام، أو يُسمَّى بالمسلمين عندهم، أليم العذاب وشديد العقاب.

ثم أصدر الملك فيليب الثالث، في رابع غشت سنة تسع وستمائة وألف (04 غشت 2/1609 جمادى الآخرة 1018)، وسابع عشر أبريل سنة عشر وستمائة وألف (17 أبريل 20/1610 محرم 1019) مراسيمه الرَّسمية بطرد سائر الموريسكيين بدون استثناء، وجميع من فيه رائحة الإسلام، أو يَمُتُّ إليه وإليهم بصلة ولو كانت بعيدة.

واستُهلَّتْ هذه المراسيم الطردية، بتهمة الموريسكيين بالخيانة العظمى، وأنَّه من أجلها وجب طردهم ونفيهم جميعاً من العدوة الدنيا إلى العدوة القصوى.

وبمقتضى ذلك يتعيَّن عليهم، ذكوراً وإناثا، شباباً وكهولاً وشيوخا، أنْ يُطْرَدُوا مع أوْلادهم، في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام، وَعْدٌ غير مكذوب، من تاريخ المرسوم الذي سيعين يوم التنفيذ، من سائر الثغور والمدن والقرى، التي ستُعيِّنها المراسيم الحكومية، ومن تهاون أوْ خالف، يُعاقب بالموت.

وخوَّلت المراسيم للمطرودين أنْ ياخذوا من أمتعتهم، ما يستطيعون حمله على ظهورهم فقط، فباعوا ما استطاعوا بيعه بثمن بخس، مع أنهم لم يكونوا فيه من الزَّاهدين، لأن الحكومة أوْعزت إلى النصارى بعدم شرائها منهم لتستولي عليها بعد طردهم.

وأعدَّت السُّفن التي خُصِّصَتْ لنقلهم للمغرب، وتكفَّلت بإطعامهم أثناء السفر، وخوَّلت لهم أن يأخذوا معهم ما استطاعوا من الزَّاد.

وحتَّمت عليهم المراسيم الحكومية أن يتمتعوا في دارهم مدة الثلاثة أيام المعينة لهم قبل الرحيل، ليكونوا رَهْن إشارة الحكومة، ومن وُجِدَ خارج داره أثناء الأيام المعدودة، يُحَاكم وينْهب منزله، وإنْ قاوم يموت.

وأنْعَمَت الحكومة على السَّادة الإصبانيين، بأمْلاك وعَقار المَطْرُودِينَ، وسائر أمتعتهم المَنْقولة والمَعْقولة، ومن أخْفى شيئاً منها أوْ أفْسده بنوع من أنواع الإفساد، يُعاقب بالإعدام.

واسْتَثْنَتْ مراسيم الطرد ستة في المائة من المطرودين للخدمة في المنازل الممنوحة للسادات لصيانتها والمحافظة عليها، والعمل في حقول السُّكَّرِ والأرز، وتنظيم الرَّي، وإرشاد السادات الجُدُد الذين حلُّوا محلهم، وتبوَّؤوا ديارهم واستَمْتعوا بأموالهم وأمتعتهم.

وسمحت للأطفال الذين لم يبلغوا الرابعة من عمرهم بالبقاء، إن شَاءَ ورَضِي آباؤهم وَأولياؤهم، وإنْ كانوا دون السَّادسة، فَلَهُمُ البقاء إنْ كان أسلافهم نصارى.

وسمحت أيضا للأم الموريسكية بالبقاء إنْ كان الأب نصرانيا، وإن كان العكس طُرِدَ الأب، وبقي الأطفال مع أمهم النصرانية. وخولت للموريسكيين الذين أقاموا بين أظْهُرِ النصارى مدة عامين حق البقاء، إذا سمح لهم به القُسُسُ والرُّهبان.

وحذَّرت المراسيم من إخفاء المطرودين أوْ حِمَايتهم، وقرَّرت العقاب على هذه الجريمة بالأشغال الشاقة لمدة ستة أعوام.

ومنعت الجنود وعامَّة النصارى من التعرض للمطرودين أوْ نهبهم، أوْ إهانتهم بالقول أوِ الفعل، ومن ثبت عليه ذلك عوقب بالعقاب الصَّارم.

وأخيراً نصَّت مراسيم الطرْد على السَّماح لعشرة من المطرودين بالرُّجوع إلى إصبانيا بعد كل سفرة، لكي يبينوا لإخوانهم المهيَّئين للطرد كيف تم نقلهم إلى المغرب.

وبمجرد صدور هذه المراسيم، إجتمع ببَلَنْسِية، زعماء وفقهاء الموريسكيين الذين كانوا لا زالوا على إرْث من دين نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أجله حُكِم عليهم بالطرد، وقرَّروا أنَّه حيث لا سبيل إلى المقاومة فلا بُدَّ من الهجرة، ولا يَتَخَلَّفُ منهم أحد، حتى السّتة في المائة الذين اسْتَثْنَتْهُمْ المراسيم، ومن تخلَّف يُعَدُّ مُرْتداً مارِقاً من الدين.

وَلاَ يُقِيمُ عَلَى ذُلٍّ يُرَادُ بِهِ   إلاَّ الأذَلاَّنِ عَيْرُ الحَيِّ وَالْوَتِدُ
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ   وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثَى لَهُ أَحَدُ

وقد وصف المؤرخ الإصباني فلورانسيو جانير Florencio JANER في كتابه المسمى : «الحالة الإجتماعية لموريسكوس الإصبان وسبب طردهم وما نشأ عنه»

(Conditions Sociales des Morisques d'Espagne. Causes de leur Expulsion, ses Conséquences)

حسرة الموريسكيين البلنسيين لَمَّا أُعْلِنَتْ لهم مراسيم النَّفي والطَّرد، بعبارة محزنة مُؤثِّرة، وها نحن نقتبس منه بعض ما ذكره بتصرف، قال :[200]

"من المستحيل أن يجد الكاتب البليغ عبارة جامعة مانعة، يستوفي فيها وصف المناظر والمشاهد المُفْجِعَة للأكباد، التي كان عليها البلنسيون الموريسكيون لمَّا أُعْلِنَتْ لهم مراسيم الطرد.

فالآباء والأمّهات، والأولاد والأخوات، والأزواج والصّبيان، والشُّيوخ غارقون في بحار الدُّموع، والشهيق والنحيب.

والحقُّ لهم، فكيف يمكن انتزاعهم بدون حزن ولا بكاء، من وطنهم الذي منه خرجوا، وعشهم الذي منه درجوا، ومنْبِتِهِم الذي منه أبصروا نور الحياة، والأرض التي نشأوا فيها، وشبُّوا وترعرعوا.

تلك الأرض التي ضَمَّت رفات أجدادهم، وبها أجداث آبائهم وأولادهم، والبقاع والرُّبوع والأجنَّة والبساتين المُزْهرة المثمرة، والساحات والمعاهد التي كانت لهم مَرْتعاً ومَلْعباً زمن الصّبا وأيام الشباب". اهـ.

بِلادٌ بِهَا عَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي ... وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

ورحم الله ابن الرومي حيث يقول :

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمُ ... مَآرِبَ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا

إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهمْ ذَكَّرَتْهُمُ ... عُهُودَ الصِّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَا

وفي معناه يقول أبو الطيب المتنبي :

وَكَيْفَ الْتِذَاذِي بِالأَصَائِلِ وَالضُّحَى ... إِذَا لَمْ يَعُدْ ذَاكَ النَّسِيمُ الذي هَبَّا

ذَكَرْتُ بِهِ وَصْلاً كَأَنْ لَمْ أَفُزْ بِهِ ... وَعَيْشًا كَأَنِّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثْبَا

ثم قال :

«كيف يفارقون أرضاً وَرِثوها عن أسلافهم، وكدُّوا فيها وجدُّوا، وعَصَروا في أرجائها عرق جبينهم، وهي غاية مقاصدهم، ومنتهى آمالهم».

200) ص 73، طبع باريس سنة 1274/1857.

﴿ولو أنّا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾.

ثم زاد قائلا :

لقد تزاحمت في أفكارهم تذاكير الصِّبا، وأحاديث الشَّيْخوخة، وجمالُ ومحبَّة الوطن الذي هو حقيقةُ الفردوس المفقود، والمقام المحمود، حيث الظل الممدود، والحوض المورود، وقابلوا ذلك كله، بما سيُقْدمون عليه من الطَّرد والبُعْد والتَّشْريد، وبعبارة أصَح، وقول أفصح، وعقل أرجح، النَّفْي إلى الأبد، لبلاد يجهلونها، ويجهلون أهلها، ويجهلون جوها، ويَجهلون عوائدها وأخلاقها، ويجهلون مصيرهم فيها، ومئال معيشتهم مع سكَّانها، وما ينتظرهم من السعادة والهناء أوْ خيبة الأمل والتعاسة والشقاء، وانتهاء الحياة في بلاد أجنبية، بين جبال ورمال القارة الإفريقية". اهـ.

وبالجملة، فقد أخرجتهم هذه المراسيم الطردية، كما خرج آدم من الجنَّة، ينزع عنه لباسه، ويَقْرعُ من الحسرة والنَّدامة سِنَّهُ.

وَكَانَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْهَا ... كَآدَمَ حِينَ أَخْرَجَهُ الضِّرَارُ

فثار بعضهم ثورة الغضبان، والمدافع عن الدين والروح والعرض والمال، واعتصم بعضهم بشواهق الجبال، مفضِّلاً الموت في ساحة الشرف على الاستسلام والانخذال، ولكن حكمت عليهم الأقدار بالزَّوال.

ثم نُفِّذَت هذه المراسيم بغاية القساوة، في آجالها المحدودة، وأيامها المعدودة، في الأقاليم الإصبانية كلها، وحَشَرت الحكومة لتنفيذها أساطيلها، وعدداً كبيراً من السفن الحرة، بعدة مراسي كبلنسية، ومَالَقَة، وجبل طارق، وطريفة، وقادس وغيرها.

ورحل جمهور كبير من المطرودين على نفقته، مُفضِّلاً تعيين وجهته، وجلُّهم من الأغنياء وذوي اليسار في الجملة.

وكان بعضهم يركب السفينة على نغم الألحان الموسيقية، والأناشيد الحماسية، والإعلان بالشكر، على الخروج من أرض الكفر، ويُقَبِّل التُّراب، ويصيح بأعلى صوته، متمنيا رجوع الاستقلال وعهد العز والصوْلة ورد الفعل، ليقع الانتقام، إذا استجابت لندائهم مملكة من الممالك الإسلامية، ومدَّت لهم يد الإعانة. ولكن حال الجريض دون القريض.

وسُئِلَ أَحَدُ فقهائهم عن ذلك فأجاب : بأنهم طالما حاولوا كراء قارب أوْ قُرْصان بحري للهروب فيه، فلم يتمكنوا منه، لشدة الرقابة عليهم، والآن يسَّره الله بدون طلب فهم يشكرونه سبحانه وتعالى على ذلك.

والذين قصدوا المغرب، نزلوا بطنجة، وسبتة، ومليلية، ومنها تفرّقوا في سائر نواحيه.

وقد اختلف المؤرخون في عدد الموريسكيين الذين مسَّتهم المراسيم بالطَّرد والنَّفي من بلادهم إلى العدوة المغربية، ما بين مُقَلِّلٍ ومُكَثِّرٍ.

فذكر الشيخ أبو عبد الله، محمد بن عبد الرفيع الأندلسي في خاتمة كتابه الخطي النادر الوجود المُسَمَّى : "الأنوار النبوية، في آباء خير البرية" الذي تقدمت الإشارة إليه في فصل سقوط غرناطة، أنَّه وُجِدَ في دفتر السلطان الكافر يعني فيليب الثالث أنَّ جملة من خرج من أهل الأندلس كافة نِيفٌ وستمائة ألف نسمة كبيراً وصغيراً...

وأظُنُّ أنَّ الصواب ما ذكره المؤرخ الإصباني فلورانسيو جانير "D. Florencio JANER" [201] مِنْ أنَّ عدد المسلمين بإسبانيا كان وقت صدور مراسيم الطرد، يزيد على مليون نسمة، وطُرِد منهم من سائر الأقاليم الإسبانية، تسعمائة ألف، والباقي هلك في العذاب والحرق والشَّنْق.

ويُقَدِّر الفرنسيون الذين كتبوا في أخبار الرباط وعُمرانه، والذين كتبوا فيما كانوا يُسَمُّونَه بـ «الجمهورية السلاوية»، أنَّ الموريسكيين الذين نزلوا بالرباط نحو أربعة آلاف نسمة.

---

201) ص 89، طبع باريس سنة 1274/1857.

المبحث الخامس

استقرار الموريسكيين برباط الفتح

لمَّا ثبتت قدم الأندلسيين الحورناشيروس بالقصبة كما تقدَّم، وصمَّموا العزم على الانفصال عن السُّلطة العليا بمراكش، وتدبَّروا موقفهم فيما سيُقْدِمُون عليه من الانعزال في بلد لا زالوا حديث عهد باستيطانه، وبعد التفكير والتدبير، في المَآلِ والمصير، قرَّروا أنْ لا بُدَّ لهم من قوة وعصبية يعتمدون عليها من أبناء جِلْدَتهم، ومهاجرة أوطانهم، فاستدعوا جالية الموريسكوس المطرودة أخيراً والمتفرقة بعد الطرد في أطراف المغرب، ورغَّبوهم في الانضمام إليهم، وحسَّنوا إليهم فكرتهم، والكوْن معهم يداً واحدة في تكوين وحْدتهم، فاستجابوا لهم، ولبَّوْا دعوتهم، وأعانوهم على نفقة الانتقال من النواحي التي كانوا التجؤوا إليها، فجاءوا إليهم مهْطعين، ولندائهم سامعين، ولأوامرهم خاضعين، مئات وألوفا، وسارعوا إليهم على كل صعب وذلول، من كلِّ حدب ينسلون، وتفرقوا على ضفتي نهر أبي رقراق، ثم تَمَّ إنزالهم حول القصبة. ووافق السلطان زيدان على إنزالهم، فاشتغلوا حالاً بعمارة المدينة الموحدية، ونفذوا الفكرة اليعقوبية، بجد ونشاط.

ورفعوا هيكل السُّور الجنوبي الموجود الآن، الممتدِّ من باب الأحد إلى الوادي، وفي منتهاه، شيّدوا بالزَّاوية الشمالية الشرقية بُرْجَ سيدي مخلوف.

وتأصَّلت فيها من ذلك الحين العمارة والحضارة الأندلسية، والأناقة الغرناطية، وأُطْلِقَ عليها في ذلك العهد، سلا الجديدة، تمييزاً لها عن سلا القديمة، التي على الضفة اليمنى للمصب.

هؤلاء هُمُ الأندلسيُّون الذين عَمَروا القصبة والمدينة الرباطية، وطبعوهما بطابع الزُّخرف الأندلسي، فكثر في رباط الفتح الرَّوجان والحركة والبيع والشراء، والأخْذ والعطاء، وفتحت فيه الفنادق التجارية، والمقاهي البلدية، وقصده الأجانب، وازْدَحَمَت في أسواقه المناكب، من

الهولانديين والبرتغاليين، والإسبانيين، والفَرَنْسيين والإنجليزيين، والإسْرائيليين، سواء الذين أسلَموا واتخذوا القرصنة حرفة لهم كما سيأتي، أو التُّجار في البضائع والسياسة، وغصَّت جوانبه بالأسْرى من الجِنْسَيْن، المختلفي الألْسُن والسِّن.

ومن ذلك الوقت، تزايد عمران المدينة وانتشر، ولم يزل في ازدياد وانتشار، وتقدم وازدهار، إلى الآن، وربُّك يفعل ما يشاء ويختار.

قال أبو العبَّاس المقري في «نفح الطيب»، نَقْلاً عن ابن غالب في «فرحة الأنفس» : (202)

"لما قضى الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المُبيرة، تفرَّقوا ببلاد المغرب الأقصى من بَرِّ العدوة مع بلاد إفريقية.

– فأمَّا أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها، فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، وأحْدثوا الأرْحِي الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلَّموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشَرُفت بلادهم، وصَلُحت أمورهم، وكَثُرَت مستغلاتهم، وعمَّتهم الخيرات، فَهُمْ أشْبَه الناس باليونانيين فيما ذكرت، ولأنَّ اليونانيين سَكَنوا الأندلس فَوَرِثوا عنهم ذلك.

– وأما أهل الحواضر، فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها.

– فأمَّا أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكُتَّاب والعُمَّال، وجُبَاة الأموال والمُسْتَعْمَلون في أمور المملكة، ولا يُسْتَعْمَل بلَدِي مَا وُجِدَ أندلسي.

– وأمَّا أهل الصَّنائع، فإنهم فَاقوا أهْل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأجْمَلوا أعمالهم، وصيَّروهم أتْباعًا لهم، ومتصرفين بين أيديهم، ومَتَى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مُدَّة، وأفرغوا فيه من أنواع التَّجديد ما يُمِيلُون به النُّفوس إليه، ويصير الذِّكْرُ لهم، قال : ولا يدْفع هذا عنهم إلاَّ جاهل أو مُبْطِل". اهـ.

ما كان يسمى بـ :
"الجمهورية السلاوية الرّباطية"

الجمهور في اللغة الرمل الكثير الواسع المتراكم، وجمهور كلّ شيء معظمه، وجمهور الناس كلهم، وجماهير القوم أشرافهم.

---

202) ص 164 من المجلد الثاني، طبع بولاق.

وفي حديث ابن الزبير، أنه قال لمعاوية : أنا لا أدعُ مروان يرمي جماهير قريش بمشاقصه، أيْ جماعاتها، واحدها جمهور...

وفي الإصطلاح : الجمهورية نظام حكومي ذو منافع مشتركة، أوْ هو الحكم المفوض أمره إلى نُوَّاب ينتخبهم جمهور الأمَّة، فيجرون فيه على مقتضى قوانين يتَّفقون على تطبيقها والعمل بمقتضاها.

ويُعَيَّنُ هؤلاء النواب ورئيسهم لمدة معينة، ويقابله الحكم الملكي المتوارَث... وقد كان الحكم الجمهوري معروفاً عند بعض الأمم القديمة، كاليونان والرومان، وعنهم أخذه الأوروبيُّون والأمريكان.

وهو أنوا ع، ولسنا بِصَدَدِ الكلام عليه الآن، لأنه خارج عن دائرة موضوعنا.

وإنما نُرِيدُ أنْ نُنَبِّه هنا على أنَّ الحكم الجمهوري لم يعرفه الإسلام، وإنّما جاء بالشُّورى والعَدْل في الأحكام.

قال تعالى : ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾.

وقال : ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

ولم يكن في دُوَلِهِ السَّابقة شرقاً وغرباً إلاَّ الخليفة، وهو أمير المومنين، أوالْملك، أوِ السُّلطان.

وهو ما كان مُقَرَّرًا راسخاً معمولاً به في المغرب الأقصى منذ الفتح الأول واستقرار الدّعوة الإسلامية فيه إلى الآن، زاده اللّه ثباتا ورُسُوخا.

ولعلَّ هؤلاء الأندلسيين المنشقّين عن الحكومة الشرعية المغربية، كانت لهم امتيازات في الحكم في إصبانيا في مقابلة الإتاوة التي كانوا يؤدّونها إلى ملوكها، فاتخذوا بمقتضاها هنالك نظاماً طبَّقوه على أنفسهم في شؤونهم الدَّاخلية المُختصَّة بهم، فأعادوا تطبيقه لمَّا شقُّوا العصا على السُّلطة العليا بمرَّاكش لضعفها وعجزها عن مقاومتهم وعموم الفوضى في جُلِّ الأقطار المغربية في ذلك العهد.

ولهذا، لا نَجِدُ مؤرخاً مغربياً كان معاصراً لهم، أوْ قريباً من عصرهم، يذكر لفظة الجمهورية أوْ يطبقها عليهم، وَلاَ هُمْ كانوا يُطَبِّقونها على حكمهم الذي كانوا يُسَمُّونه "بالدِّيوان"، وإنما يقول المؤرخون : إنهم كانوا في حالة فَوْضى، وقدَّموا على أنفسهم من يُدَبِّر

شؤونهم، كما هو الشأن في المدن والقبائل التي تخلع نير الطّاعة المخزنية في كل زمان ومكان، وربُّما أطلق المغاربة على هذا النّوع من الحكم المُنْفَصِل عن الجماعة، "حُكْم السيبة" أوْ "حُكْم أيتْ الأربعين".

ولمًا رأى الأوربيُّون حالتهم، ونظام حكومتهم المتركبة من الرئيس والديوان كما سيأتي بيانه، وكانوا مضطرِّين إلى معاملتهم، وفداء الأسرى معهم، اعترفوا بهم، وكانت إنكلترا أول الدول الأوربية مسارعة إلى هذا الاعتراف، وأطلقوا عليهم إسم "الجمهورية السلاوية". وفي الواقع كانت سلاوية رباطية لأنها شملت العمران المتكون على الضفتين : اليمنى واليُسرى للمصب الرقراقي في البحر، وكان اسم سلا يُطْلق على العدوتين معًا في ذلك العهد، فَيُقال : سلا القديمة وسلا الجديدة.

وحقيقة هذه "الجمهورية"، هي أنَّهم لمَّا نفضوا يدهم من طاعة السلطان زيدان، وانفصلوا عنه بعدما شرَّدوا عامله عبد العزيز الزعروري، وقتلوا خلفه عجيبا، واستبدُّوا بما كانوا يؤدونه له من أعشار المغانم، ومداخيل المرسى، اتَّفقوا مع أبي عبد اللّه محمد العيَّاشي، رئيس العدوة السلاوية، وحامل راية الجهاد فيها - وكان مسموع الكلمة مُطاعاً في بلده، ومُنحرفا عن السلطان زيدان، لِمَا كان يُبَيِّتُهُ له من الغَدْر به لَمَّا كان واليا على آزمُّور، وقائما بالجهاد في البريجة (الجديدة اليوم) - على تأسيس حكومة انفصالية ثورية سنة سبع وثلاثين وألف (1627/1037)، وهي السنة التي تُوُفِّي فيها السلطان المذكور، وتغاضى عنهم خلفه، ولده أبو مروان عبد الملك، لضعفه وعدم قدرته عليهم، واشتغاله بثوار آخرين.

وقد راعَوْا في نظام هذه الحكومة الاستبدادية، النظام الذي كان عندهم بمدينة حرناشوس باصبانيا، وهو نوع الحكم البْلُوطُوقْرَاطِي "Gouvernement ploutocratique" ومعناه أن القوة الحكومية تكون بيد الأغنياء.

وكانت هذه الحكومة المنشأة حول مصب أبي رقراق يدبرها "الديوان". وهذا الديوان، يتركب من اثني عشر إلى أربعة عشر عضوا، ويعقد اجتماعاته بقصر القصبة.

ورئيس الديوان يسمى : "الأميرال الكبير".

وفي شهر ماي بالضبط من كل سنة، يقع انتخاب قائدين اثنين : أحدهما بالقصبة، والآخر بالعدوة السلاوية القديمة، يعني وسلا الجديدة، التي هي الرباط داخلة تحت نفوذ قائد القصبة.

ومالية هذه الحكومة ومداخيلها كانت تتركب من :

1 - مداخيل الديوانة،

2 - الضرائب المقررة على السفن الداخلة إليها والخارجة منها.

3 - أعشار الغنائم القُرصانية التي تُدْفَعُ قبل ذلك للسلطان.

ومع هذا الانفصال، فقد قررت هذه الحكومة، أن تدفع للسلطان كل سنة عدداً من السَّبي المسترق ومختارات وطرائف من السِّلع المغْنُومَة اتِّقَاءً له وتطييباً لخاطره ليسْتمر في تغاضيه عنهم[203]. ويؤخذ منه، أنَّها كانت تعترف بوجوده، ولم تقطع صلتها به.

وقد كان من أعمال هذه الحكومة، لمَّا تأسَّست، أنَّها زادت في تحصين القصبة وتسليحها بالمدافع النحاسية المجلوبة من هولاندا وغيرها من دول أوربا، واحتاطت للطوارئ إذا هَجَمَ عليها مهاجم، أوْ حاصرها محاصر.

وكانت السيادة في الحكم بِيَد الحورناشيروس سكان القصبة، لأنهم المهاجرون الأولون، دون الموريسكوس سكان سلا الجديدة أو الرباط، لأنهم يعدُّون كأنصار لهم، مع أنهم كانوا أكثر منهم عددا.

واستمرت هذه الحكومة قائمة إلى أن دَخل عليها الدلائيون فسايروها وسايرتهم، وأقرُّوها فأقرتهم. وجاء بعدهم الخضر غيلان فأمَّنهم وسالمهم، وقَضَوْا بقية الأيام في حرْب وسلْم، إلى أن ظهر السلطان المولى الرَّشيد بن الشَّريف، رَحمه الله، فنسخ الجميع، لمَّا استولى على المغرب، وهَدَّ أركان الزاوية الدّلائية، وغيرها من الزَّوايا، وقضى على سائر الثوار، والمغامرين المتشوفين للحكم والملك بسائر أنحاء المغرب، واجتمعت الكلمة عليه، وقام هيكل الدَّولة العلوية أيَّدها الله تعالى، وأدام شمْسها مشرقة على سائر ربوعه بمنه آمين.

والذي نَرَاه هُوَ أنَّ هذا الحكم الانفصالي أو "الجمهوري"، كما يُقال، كان متَّحداً لاَ متعددًا كما يراه دُوكَاسْطْرِي "De Castries" أثناء كلامه عليه، لأنَّه ظنَّ أنَّ القصبة كانت بها "جمهورية" خاصَّة، ومدينة الرباط كانت بها "جمهورية" خاصَّة، وسلا القديمة كانت بها "جمهوية" خاصَّة.

203) كايي "Caillé"، ص 245، وكواندرو "Coindreau"، ص 45.

والواقع أنه كان حكْم واحد، ولو في حالة الحروب التي كانت بينهم، لأنه في هذه الحالة لم يكن في كل واحدة من هذه النقط الحربية الثلاث إلاَّ قائد واحد مستقل، وليس له ديوان ولا انتخاب، ولا نظام جماعي أوْ "جمهوري" على حد تعبيرهم، لاسيما وسلا القديمة كان بها قائد خاص تحت إِمْرَة أبي عبد الله العيَّاشي المسيطر عليها، وهذه هي الحالة التي وجدها الدلائيون حول المصب لمَّا مَدُّوا نفوذهم عليه[204].

وقد دامت هذه الحالة الاستثنائية قائمة حول أبي رقراق، منذ نزل به المهاجرون الأندلسيون إلى أن قضى عليها المولى الرشيد نحو أربعين سنة، ولِلَّه عاقبة الأمور.

204) راجع التعليق 18 من ص 215 من تاريخ كايي : "Caillé".

المبحث السادس

الحروب الداخلية بين الحورناشيروس والموريسكوس، وتَدَخُّل العياشي فيها(205)

علمنا ممَّا تقدم، أنَّ الحورناشيروس، لمَّا هاجروا من الأندلس إلى سلا، أنزلهم السلطان زيدان بالقصبة، وأنّ الموريسكوس، لمَّا جاؤوا بعدهم وتفرقوا في أنحاء المغرب، استدعاهم الحورناشيروس للالتحاق بهم، والانضمام إليهم، ليشتدَّ بهم أزرُهم، ويحمون ظهرهم، وربَّما كانوا عوناً لهم وساعداً قوياً عند الحاجة، فلبَّوْا دعوتهم، وجاءوا إليهم من كل حدب ينسلون، ونزلوا حول القصبة بالرباط فعَمَرُوه، ووافق السلطان زيدان على نزولهم، ولم يُعارض فيه أبو عبْد الله محمد العيَّاشي سيد سلا في ذلك العهد.

وعلمنا أيضا أنهم لمَّا ألْقَوْا عصا التسيار، واستقرت بهم الدَّار، وطاب لهم المقام والقرار، استبدُّوا على قائد زيدان عبد العزيز الزَّغْروري، ووشوا به إليه. فأمر بالقبض عليه، ونهبوا داره، وكتبوا إلى السلطان مُظْهرين التمسك بطاعته مكيدة ونفاقا، فقبل ذلك منهم، إمَّا ضعفاً منه، أوْ إمْلاء لهم حتى يتمكن من ناصيتهم، وبعث إليهم مولاه عجيبا، فمكث بين أظهرهم مدة، فلم يعبئوا به، وسخروا منه، ثم عَدَوْا عليه فقتلوه، وجاهروا بشقِّ العصا على السلطان وتسلَّحوا، وأظلم الجو بينهم وبينه، واستحال الأمر إلى فَوْضَى، وامتدَّتْ أيْدي اللُّصوص إلى المال والحريم. كل ذلك وأبو عبد الله العيَّاشي ساكت لا يتكلم.

ثم إنَّهم نظموا حكومتهم الانفصالية، التي أطْلق عليها الأوربيون "الجمهورية السلاوية" وقيل إنَّ العيَّاشي ساعدهم على ذلك.

---

205) كايي : "Caillé"، ص 216-217، وكواندرو "Coindreau"، ص 45.

إلاَّ أن الحُورْنَاشِيرُوسْ سكان القصبة – وإن كانوا أقلِّية بالنسبة للمُورِيسْكُوسْ سكان الرباط – جَرَّدُوا السكان من السلاح وانفردوا به، واستبدُّوا بالحكم المطلق في حكومتهم الجديدة، واتخذوا أعضاء ديوانها ورؤساءها وحكامها وكافة موظفيها منهم دون الموريسكيين، واحتكروا سائر المداخيل الديوانية، والفيْء والمغانم القرصانية، وجميع ينابيع الثروة والغنى بالعمران الموجود قديما، والمتكون حديثا على ضفتي النهر، الشمالية والجنوبية، وصرفوا ذلك كله في مصالحهم الخصوصية، وفي تحصين قصبتهم وتسليحها، واستعدادًا للطَّوارئ وتخويفا وتهديداً لجيرانهم على الضفتين.

ولمَّا رأى الموريسكيون ذلك، حمي أَنْفُهُم، وأَنِفوا من حكمهم، لاسيما وهم أكثر منهم عددا، وأغزر مددا، وطالبوا بالمشاركة في الحكومة، والاختصاص بقَدْرٍ على نسبتهم في الميزانية المالية، من المداخيل الديوانية، وسائر المنافع والامتيازات الاقتصادية، ليُحَصِّنُوا هُمْ أَيْضًا ويُسَلِّحوا مدينتهم الرباطية، تَوَقِّيًا لِمَا عسى أن يحدث. فما كان جوابهم من القصبة إلاَّ رميهم بالقنابل القاصفة العاصفة، من مدافع أبراجها وحصونها.

وهكذا اشتعلت الحرب الدامية الحامية بين الفئتين الأندلسيتين المهاجرتين إلى العدوتين، فأصبحتا بعد سابق التسابق إلى التوافق عَدُوَّتَيْنِ، واشتدت المعارك الماحقة السَّاحقة بينهما مدة أربعة أيام، لم تفتر فيهما مدافع القصبة عن إمطار المدينة بوابل قنابلها المبيدة العتيدة، ليلا ونهارا، وذلك أوائل سنة تسع وثلاثين وألف (أوائل 1039/ أواخر 1629).

واستمر الخلاف بينهم عدة شهور، ومدَّ السَّلاويون أثناءها ورئيسهم العيَّاشي بالضفَّة اليمنى يد المعونة والإعانة لحُورْنَاشِيرُوسْ القصبة، لرابطة الحمية الدينية التي كانت تربطهم، وتجمع بينهم، لأنهم كانوا ينقمُون عليهم أخلاقا أَعْجَمِيَة جاؤوا بها معهم من البلاد التي هاجروا منها، وأثَّرَ ذلك فيهم أثراً ظاهرا، لطول صحبتهم لهم، ونشأة أعقابهم بين أظهرهم، فكانت تصدر منهم في بعض الأحيان مقالات قبيحة في حق ولاة المسلمين، لاسيما إذا نالهم منهم بعض الظلم.(206)

وقال روجي كواندرو "Roger Coindreau" في كتابه : «القرصنة السلاوية»: (207)

"لمَّا اشتدت الحرب المَدَنِيَة، وتواصلت بين الطائفتين المهاجرتين، تَدَخَّلَ في التوفيق والصلح بينهما سفير انكلترا هاريسون "Harrisson"، وكان هذا التدخل في شهر ماي سنة ثلاثين وستمائة وألف (ماي 1630/ شوال 1039) لمدة عامين فقط".

---

206) «الاستقصا»، ص 101 من ج 3، طبع القاهرة، وص 228 والتي تلي لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001. و«تاريخ كايي» "Caillé"، ص 217.

207) ص 44.

وذكر كايي "Caillé" في «تاريخه»[208] أنَّ الصلح تَمَّ على يد أحَدِ صُلحاء شالَّة على الأُسُس الآتية :

– أولا : ينتخب أندلس سلا الجديدة قائداً منهم، ويكون محل إقامته بالقصبة.

– ثانيا : الديوان يتركب من ستة عشر عضواً من الأعيان، يكون نصفهم من حُورْنَاشيرُوْس القصبة، ونصفهم من موريسْكوسْ سلا الجديدة.

– ثالثا : الجبايات المتحصِّلة من الغنائم البحرية، والرسوم والضرائب الديوانية، تُقسم نصفين بين سكان القصبة، وبين سكان سلا الجديدة.

وأمَّا سلا القديمة، فقد احتفظت بإدارتها، وحكمها الخاص بها.

فانْتخب الحورناشيروس، محمد بن عبد القادر سَرُّون قائداً بالقصبة.

وانتخب الموريسكوس، عبد اللّه بن علي القصرى نائباً عنهم.

وفي الواقع بقيت القصبة هي المركز العام للحكومة، وباعتبار ذلك، كان لها نَوْعُ نُفوذ وترجيح في مجموع الإدارة الموجودة في العمران المتكون حوْل المصب.

وقد كانت نتيجة هذا الصلح ضئيلة، ولم ينقطع الشغب والاضطراب بين أندلس القصبة، وأندلس الرباط، فضلاً عن أنْ يستقر قُسْطَاسُ العدل في الأحكام بينهم، فتجدَّدت المظاهرات، وتجدد التَّظلم والتذمُّر من الطرفين من حين لآخر، وفي الأخير استحال الأمر إلى فوْضى وهيجان وعصيان وفِتَنٍ متأصِّلة متواصلة.

208) ص 217.

المبحث السابع

رياسة أبي عبد الله العياشي بسلا وجهاده[209]

أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي الزياني، المعروف بالعيَّاشي، ونسبته إلى بني مالك بن زغبة الهلاليِّين، وهم اليوم قبيلة من عرب الغرب، وهناك ولد سنة إحدى وثمانين وتسعمائة (981/1573).

واسْتوطن سلا، وتَلَمَّذ لشيخها ودفينها العارف بالله، أبي محمد، عبد الله بن حسُّون السلاسي الشهير، وكان ملازماً له مقرِّباً إليْه، مخلصاً في خدمته.

وفي يوم من الأيام، أهْدى بعض القبائل للشيخ فرسا، فأمر بإسْرَاجه، وأرْكَبَهُ الشيخ مَحَمَّدًا العيَّاشي، وأمره بالتُّوجه إلى أزمُّور والنزول على أولاد بوعزيز والاشتغال بالجهاد في البرتغال، وذلك في حدود سنة ثلاث عشرة وألف (1013/1604).

وكان هذا الاحتلال سَببًا في قيام شيوخ الطرق وأرباب الزوايا مطالبين بالجهاد، وداعين إليْه في كل صقع وناد.

وإلى ذلك يشير الشيخ أبو زيد، عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي - رحمه الله - في منظومته المسماة : «زهرة الشماريخ في علم التاريخ» بقوله :

وَبَعْـدَ لاَمٍ ظَهَـرَ الْعَيَّـاشِـي   شَيْئًا فَشَيْئًا ثُمَّ مَاتَ نَاشِـي

وقال أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في رجزه "إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا" :[210]

---

209) لخَّصنا أخبار أبي عبد الله العياشي مما جاء في «نزهة الحادي» و«الاستقصا»، و«معيار» الونشريسي و«فتاوي» الوزاني، و«تاريخ الرباط» لكايي "Caillé" و«الوثائق غير المطبوعة» لدكاسطري "De Castries"، ص 193 وما بعدها من المجلد 3، ومقدمة المجلد 5.

210) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية، ورقة 23-43.

وَءَالَ أَمْــرُ الْغَــرْبِ لِلتَّــلاَشِـي فَقَــامَ فِـي نُصْـرَتِـهِ الْعَيَّاشِـي
مُـدَافِـعًـا عَنْهُ هُجُـومَ الْبُـرْتُغَـالْ لمَّا انْتَـحَى ملكَ الثُّغُـورِ وَاسْتَطَالْ
فَــمَــا ائتلى يَغْــزُ وَبِكُلِّ مَــوْطِنِ حَتَّى قَضَـى الْعُمْرَ بِحُسْنِ سَنَنِ

وترجمه في رجزه المذكور بعد ذلك بقوله :(211)

وَمِنْهُمُ شَـيْخُ التُّقَــى الْعَـيَّاشِـي مَـنْ تَـرَكَ الْعَــدُوَّ فِي تَـلاَشِــي
مُـحَـمَّـدُ بْنُ أَحْـمَـدَ الزَّيَــانِـي إِلَى سَــلاَ يُعْــزَى بِلاَ نُكْــرَانِ
أَخَـذَ عَنْ قُطْبِ سَـلاَ كَـمَـا غَـبَـرْ وَهْوَ الذِّي أَرْكَبَـهُ فِـيـمَـا اشْتَـهَـرْ
وَكَــانَ أَقْــرَبَ التَّــلاَمِــيــذِ لَـهُ وَحَــالُهُ أَعْلَـى وَسَــمْــتُ أَنْــزَهُ
مُسَــارِعًــا بِكُــلِّ مَا يُــرْضِيـهِ مُــبَــادِرًا لِمَــا لَــهُ يُدْنِيــه...

ولمَّا وصل إلى أزمور، حيث وجَّهه شيخه، قام بماموريته أحسن قيام، وكان مثابراً على الجهاد، شديد الشكيمة على العدو، عارفاً بالمكايد الحربية، بَطَلاً شَهْماً، مِقْدَامًا في مواطن الإحْجام، وقوراً صموتا. فطار صيته، وشاع في الناس ذكره، لِمَا هو عليه من الاستقامة والتضييق على نصارى البريجة (الجديدة).

وحيث كان بهذه المثابة، فإنَّ السلطان زيدان، لمَّا توفي قائد البلاد الأَزْمُّورِيَة، ولاَّهُ مكانَه. فقام بأعباء ما حُمِّل من الولاية والجهاد في سبيل الله أحْسن قيام، وضاق به البرتغال ضرْعًا، وعلموا أنَّه إِنْ دَامَ أمامهم لَيُهَدِّمَنَّ عليهم حِصْنَهم قطعا، فأَغْرَوا به حاشية السلطان بمرَّاكش، واغْدَقُوا عليهم التحف والعطايا والهدايا، فاستمالوهم، وخَوَّفوا السلطان منه ومن عواقبه فأمر بعزله، ووجَّه فرقة من جنده، للقبض عليه، فأَنْذَرَه قائدها أبو عبد الله محمد السُّوسي سراً بما صدر من الأوامر في شأنه، قبل الوُصول إليه، فخرج – رحمه الله – من آزمور خائفاً يترقب في أربعين رجلاً من أصحابه فرساناً ومشاة، إلى سلا، فاستقرَّ بها سنة ثلاث وعشرين وألف (1614/1023)، بعد أن غاب عنها نحو عشرة أعوام.

ولمَّا وصلت فرقة الجند التي جاءت للقبض عليه بآزمور، ولم تجده، أَظْهَرَ قائدهَا الاهتمام بالبحث عنه، وعاقب من يُظَنُّ أنَّهم ساعدوه على الفرار، تَعْمِيَةً على السلطان، وتبريراً لعمله، وإلى ذلك يشير أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في رجزه بقوله :(212).

211) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية، ورقة 23.

212) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية، ورقة 43.

أبْلَى جِهَادًا وَدِفَاعًا حَسَنَا   عَنِ الثُّغُورِ وَبِهَا نَالَ الْمُنَى
وَبَعْدَمَا تَخَوَّفَ السَّعْدِيُّ   مِنْ شَأْنِهِ بَدَا لَهُ الْخَفِيُّ
مِنْ أنَّهُ يَسْعَى لِحِفْظِ الْمَغْرِبِ   وَافَقَهُ فِيمَا انْتَحَى مِنْ مَرْغَبِ...

احتلال الإسبان للمعمُورة واستغاثة السلاويين بالعياشي

بعد رجوع أبي عبْد اللّه العيّاشي لسلا، واستقراره بها، وأمْنِه على نفسه، اتَّفَقَ أنَّ فِلِيبْ الثالث "Philipe III"، صاحب مأساة طرد المسلمين من الأندلس، ومَحْوِ كلمة الإسلام من ربوعه، بعد ما استولى على العرائش، طَمَحَتْ نفسه إلى الاستيلاء على حلق المعمورة، فبعث إليها نحو مائة مركب من أساطيله، واستولى عليها بدون قتال في السنة المذكورة، فعظُم الخطْب على أهل سلا، وتخوَّفوا منه ومن عواقبه، ووجَّهوا وفْداً منهم إلى السلطان زيدان بمراكش، طالبين منه النُّصْرة والإعانة على بلادهم خوفاً من العدو الذي نزل بحلق المعمورة، وصار يضرب به نواقيسه، وقد كان السّلاويون يخطبون بزيدان وتحت طاعته، فوعدهم بالنُّصرة، ولكنَّه كان يَهْزَأُ بهم، إلى أنْ جاءته هدية عظيمة من نصارى البريجة، ففهم السلاويون أنه قبض حقَّ بلادهم، كما فَعَلَ أخوه الشيخ بالعرائش، وانْقلبوا راجعين على أعقابهم، وأخذوا في الاستعداد والحزْم، والعسَّة في الأسوار والقوة والعَزْم، وتكاثر النصارى في حلق الوادي، حتى إنَّهم ملَكُوا الغابة.[213]

وحينئذ جاؤوا إلى أبي عبد الله العياشي بمجرد وصوله، وكأنَّ الله أرسله إليهم، وذكروا له ما هم فيه من الخوف من العدو الذي جاورهم وتَاخَمَهُمْ في أرضهم وبلادهم، ويوشك في يوم من الأيام أن ينقضَّ عليهم. فَأَمَرَهُمْ بالتهييء للغزو، والاستكثار من العُدَّةَ والسلاح، وكانت السِّنون أضعفتهم، فاجتهدوا واستعدُّوا للجهاد، وبذلوا في ذلك غاية مجهودهم، ونَفَرُوا معه إلى عدوهم، فقاتلوه، وقتلوا منه زهاء أربعمائة، واستشهد من المسلمين مائتان وسبعون، وأقصر النَّصارى عن الخروج بعد هذه الغزوة إلى الغابة.

ولكن السلطان زيدان، لمَّا بلغه اجتماع النَّاس عليه، بعث إلى قائده بسلا، وهو إذ ذاك الزَّعْروري قبل عزله عن ولايته بها وبالقصبة، وأمَرَهُ باغتياله أوِ الْقَبْضِ عليه، ففاوض

213) «تاريخ الدولة السعدية» لمؤلف مجهول، طبع الرباط عام 1934/1353.

الزّعْروري أشياخ الأندلس في ذلك، فاتفق رأيهم على أن يكون مع العياشي جماعة منهم عَيْنًا عليه وطليعة على نيته واستخباراً لِمَا هُوَ طالب له، فلازمه بعضهم، وشعر العيّاشي بذلك فانقبض عن الجهاد ولازم بيْته.

اجتماع الكلمة على العياشي ليقوم بفريضة الجهاد وخلافُه مع أهل الأندلس[214]

لمَّا شعر أبو عبد الله العياشي بما بَيَّتَهُ له السلطان زيدان، من الفتك والاغتيال، وأنَّ أندلس القصبة وسلا الجديدة، بثُّوا عيونهم عليه، يتطلَّعون أخباره، ويَسْتَنْكِهُونَ خباياه وأسراره، كف عن الجهاد، وانْزَوى في زاوية من زوايا بيته ملازماً الصمت، ومنقطعاً عن العامة والخَوْضِ في شؤونها، وما يتعلَّق بها، من حرب أوْ سلم إلى أن طفح الكاس، وظهر الفساد في البَرِّ والبحر، بما كسبت أيدي الناس، من الجرائم وانتشار الفوْضى، وامْتداد أيْدي اللُّصوص إلى المال والحريم، وكَثُرَتِ الشكايات من التُّجار والمسافرين بمخافة السُّبُل، وقطع الطُّرُقات، واحتكار الأندلسيين للتجارة، واختصاصهم بها، واستبدادهم بالحكم والأمْوال المجْبُوَة من مرسى العَدْوَتَيْنِ، والغنائم المجْلوبة بواسطة الأسطول من البحرين، المحيط الأطلسي والأبيض المتوسط، واستفحال أمر العدو الرَّابض بسواحل المغرب : بالبريجة (الجديدة) وطنجة، والعرائش، وحلق المعمورة المجاورة لسلا، وتَرَبُّصهُ الدوائر بالمسلمين، واستعداده المتزايد في كل وقت وحين، وتشَوُّفهُ لامْتلاك غيرها من الثغور كالعدوتين، وخصوصا القصبة، وما حولها من العمران على الضفتين.

قالوا : وَقَدْ كان الأندلسيون يوالونه ويمدُّونه بالميرة والطعام، وكانت الرابطة بينهم وبينه قديمة، من لدن كانوا بأرضه، فكانوا ءَانَسَ به من أهل المغرب، وذلك كله لفُقْدان الوازِع والمُسَيْطر.

وفي هذا الجو القاتم، وبحر الفتن المتلاطم، أهْرَعَ النَّاس إلى أبي عبد الله العياشي من كل جانب، معتقدين أنه رجل الوقت، وصاحب الساعة، والمنقذ والمُخَلِّص.

وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

---

214) ملخص من «نزهة الحادي»، و«الاستقصا»، و«معيار الونشريسي» و«معيار الوزاني»، و«تاريخ الرباط» لكايي "Caillé".

وطلبوا منه البروز إلى الميدان، وامتشاقَ الحُسَام، للذَّبِّ عن الدِّين والأرواح والأموال والأعراض، فكثرت الوفود عليه، وازدحمت الجنود المتطوعة والمجاهدون الذين شَرَوْا أنفسهم من اللّه بأن لهم الجنَّة ببابه.

فشمَّر حينئذ عن ساعد الجدِّ، وأظهر الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، واشترط على أعيان العرب والبربر ورؤساء الأمصار، أَنْ يضعوا خطوطهم في ظهير، بأنهم رضوه وقدَّموه، والتزموا طاعته، وأنَّ أيَّ قبيلة خرجت عن أمْره، كانوا معه يدًا واحدة على مقاتلتها حتى تَفِيءَ إلى أمر اللّه، فأعطوا بذلك خطوطهم، ورضوه وقبلوه وقدَّموه على أنفسهم، ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا إلى تازا وما اتصل بهما.

وكان الحامل له على هذا الطلب، أنه بلغه أن بعض طلبة الوقت يقول : لا يَحِلُّ الجهاد إلاَّ مع الأمير، ففعل ذلك خروجاً من تلك الدعوى الواهية، وإلاَّ فقد كتب له علماء الوقت، كالإمام أبي محمد عبد الواحد بن عاشر، والإمام أبي إسحاق إبراهيم الكُلالي بضم الكاف المعقودة، والإمام أبي عبد اللّه محمد العربي الفاسي، وهو من أساطين الفتْوى في ذلك العصر، وغيرهم، بأن مقاتلة العدو الكافر لا تتوقَّف على وجود السلطان، وإنَّما جماعة المسلمين تقوم مقامه، بل في مقدمات ابن رُشْد ما نصّهُ :

ويُجَاهَدُ العدو مع كل بر وفاجر، وقد قال رسول الله صلَّى اللّه عليه وسلم : إنّ اللّه ليؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر".

فكيْف بهذا الرجل الذي وهب نفسه للّه، وانتدبه المسلمون للقيام بحق من حقوق الله، في وقت ضَعُفَتْ فيه الدّولة عن حمايتهم، ودفع مَعرَّةِ العدو عنهم.

وفي ذلك يقول أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في رجزه المتقدم :

وَاتَّفَقَتْ جَمَاعَةُ الإِسْلاَمِ ... عَلَى التَّعَاوُنِ لِلاعْتِصَامِ
فَمَا انْتَلَى يُضْعِفُ شَوْكَةَ الْعِدَا ... بِكُلِّ وَجْهٍ يَنْتَحِيهِ سَدَدَا
مُهَاجِمًا مُدَافِعًا أَزْمَانَا ... وَالنَّاسُ كَانُوا فِي الْعُلاَ إِخْوَانَا (215)

ولمَّا كَمُلَ أمره، واجتمعت الكلمة عليه، كشف عن ساقيه، وشمر عن ذراعيه، وبرز لإعلاء كلمة الله، ورد المظالم عن ضعفاء الأمة، فضاق الأمْر على عرب الغرب لاعتيادهم الفَسَاد، وعدم الوازع، ومحبَّتهم لِلْخِلاَفِ والفتنة، فَنَكَثَ بيعته جماعة منهم، فَقاتلهم وغلبهم، وكذلك من

---

215) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا، ورقة 43.

اقْتدى بهم، وسارَ في نهجهم من رؤساء القبائل، فعفا عنهم، بعد الظَّفَر بهم، وردَّهم إلى الطريق المستقيم.

ثُمَّ بلغه أن عرب الحياينة، طَغَوْا على أهل فاس وعاثوا خلال تلك البلاد، وأكثروا فيها الفساد، بإغراء ولد السُّلطان زيدان، فصبَّ عليهم سَوْطَ عذاب، وكان لهم بالمرصاد، وقاتلهم، وكانت الدبرة عليهم، فتابوا ورجعوا وخضعوا وأنابوا، وأَمِنَ الفاسيون شرَّهم.

وبعد قَطْعِ دابر هذه الفتن، والضَّرب على يد أولئك الخوارج، ولَّى وجهه شطر عَدُوّ الإسلام الإصبنيول المُحْتلين لحلق المعمورة، وكان أهل سلا لقوا منهم أذًى كبيرا، فتهيَّأ للخروج إليهم، وبالغ في الاستعداد لقتالهم، ونَهَدَ إليهم وأوْقع بهم وقعة شنعاء مزقتهم تمزيقا، وفرَّقت جموعهم تفريقا.

وكان من قضاء الله وصنعه، أنه في صبيحة تلك الليلة، قدمت أغربة من سفن النصارى قاصدة الدخول إلى الحلق، فضيَّق عليهم رماة المسلمين بالخندق، فأرادوا أن ينحرفوا إلى البحر، فردَّهم البحر إلى السَّاحل الرَّملي، وهنالك تمكن المسلمون منهم وقتلوا وسبوا، ووجدوا في تلك الأغْربة زهاء ثلاثمائة أسير من المسلمين فأعتقهم الله على يده.

وأُسِرَ يومئذ من النَّصارى، أكثر من ثلاثمائة أسير، وقتل منهم أكثر من مائتين، وظفر المسلمون بقبطان من عظمائهم فَفُدِيَ به الرئيس طَابَقْ، رئيس أهل الجزائر، وكان محبوساً عندهم في قفص من حديد.

دار أبي عبد الله العياشي بسلا

لمَّا استقامت الأمور بعد هذه الغزوة لأبي عبد الله العياشي بسلا، بنى داره بها داخل المدينة، قُبَالَةَ باب المُعَلَّقة.

قلت : محل هذه الدار يُعرف في سلا بسانية العياشي، وقد كان يتصرَّف فيها أولاده المنتسبون إليه بقبيلة الغرب أوَّلاً، ثم وُلاَةُ سلا بعد ذلك.

وأدركنا زمن الصِّبا أثر البناء بها، وبقايا الزليج في بعض جدراتها وأركانها، وبقايا حمَّام بسائر لوازمه.

واتخذ بها خندقاً تحت الأرض، ماراً من تحت السور بمقبرة باب المعلّقة إلى البَسْتِيُونَيْنِ اللذين سيأتي الكلام عليهما على ساحل البحر.

واستمرت آثار هذه الدار ماثلة للعيان، إلى أن بنت بها مصلحة المعارف بإشارة من العلامة أبي عبد الله، محمد العربي بن أحمد الناصري، مدرسة لِكَوْنِ دار سكناه مجاورة لها، ومشرفة عليها.

وكانت إشارته على الحكومة ببنائها سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف (1915/1334)، ولم يقع التنفيذ إلا في سنة خمسين وثلاثمائة وألف (1931/1350).

وتُعْرَفُ هذه المدرسة اليوم بمدرسة السُّور، وما أجدرها أن تُسَمَّى مدرسة العياشي إحياء لذكره، لاسيما وقد بُنِيَتْ في داره، وهي أَوْلَى بهذه التَّسْمية من المستشفى المُسَمَّى بها خارج الباب الجديد.

وفي السّنة الأولى من تأسيسها، ترأسَ حفلة تدشينها، أبو عبد الله محمد العربي المذكور، بمحضر رجال المخزن وأعيان البلد وأشرافها وعلمائها، وألْقَى خطبة طويلة في اعتناء المسلمين بتأسيس المدارس والمكاتب العلمية، جاء فيها مما يتعلق بهذه المدرسة :

"سألقي هذه الكلمة بمناسبة تأسيس هذه المدرسة الزَّاهرة بجوار بيتي وعشي ومنبتي، في هذه البقعة الأثرية من هذه المدينة السلاوية، التي كانت فيما سلف من الدَّهر، دار الإمارة العيّاشية.

وإنِّي لأفْخَرُ بوجود هذه المدرسة بإزاء منزلنا، وبِكَوْنِ أول فكرة صدرت بتأسيسها هي منَّا، منذ نحو سبع عشرة سنة، وذلك لمَّا أُحْدِثَتْ أول مدرسة ابتدائية بهذه المدينة".

وهذه المدرسة عامرة الآن، وزِيدَ في أروقتها جناحان، ودارٌ لسكنى المدير. وقد تخرج منها عدد وافر من الرجال الذين جلّوا في ميادين العلم والسياسة والرياسة.

البَاسْتِيُونَانِ على ساحل البحر بسلا

من آثار أبي عبد الله العياشي بسلا، البستيونان اللذان على ساحل البحر، أسفل مقبرة باب المعلقة، قبالة المدينة بواسطة الخنْدق الذي تقدمت الإشارة إليه، ونصب بهما بطريات مدفعية حراسة للمدينة وتحصينا لها.

ويقول بعض مؤرخي الفرنسيين الذين كتبوا في ترجمة العياشي وإمارته السلاوية، إنه استعان في بنائهما ببحارة بعض الأساطيل الإنجليزية التي كانت مرابطة في ذلك التَّاريخ أمَام المصب محاصرة للقصبة، وذلك أوائل سنة سبع وأربعين وألف (1637/1047).

وقد بقي البستيونان على حالهما إلى أوائل عهد فرْض الحماية على المغرب، فجعلتهما بلدية سلا مجزرة بلدية عدة سنين، ثم نقلت المجزرة منهما إلى ساحل البحر خارج باب شَعْفَة، وأُهْمِلا بعد ذلك، واستمرّ أثرهما المشيد بالصخور والأحجار الضخمة ظاهراً للعيان إلى الآن.

الغزوة الكبرى بحلق المعمورة

قام بهذه الغزوة أهل فاس الذين خرجوا للجهاد بحلق المعمورة(216).

وكان من خبرها أنّهم نزلوا بالموضع المعروف بعين السبع، وكَمنُوا به ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع خرج النصارى إلى تلك الجهات على غرّةٍ، فظفر بهم المسلمون.

وكان النصارى لمّا خرج جيش أهل فاس، أعلمهم بذلك مسلم عندهم مرتدٌّ فأعطوه سلعاً وجاء بها إلى سلا بقصد بيعها والتّجسُّس لهم على الخبر، فافْتُضِحَ وأخذه السلاويُّون وقتلوه، وعميت الأنباء على الإصْبان، فخرجوا، فلم يشعروا إلاّ والخيل قد أحاطت بهم، وقتل منهم نحو الستمائة مقاتل، ولم ينج منهم إلاّ القليل، حتى لم يَبِتْ في الحلق تلك الليلة إلاّ نحو أربعين رجلا منهم، وغنم المسلمون منهم أربعمائة من العدة.

ولم يحضر أبو عبد الله العياشي في هذه الغزوة، لأنّه كان ذهب إلى طنجة حَنَقًا على يوم المسامير لأنّ النّصارى كانوا قد صنعوا نوعا من المسمار بثلاثة رؤوس تنزل على الأرض، والرّابع يبقى مرفوعا، وبثوا ذلك في مجالات القتال مكيدة عظيمة منهم تضرر منها الفرسان والرجالة من المسلمين، فرجع في الحين إلى سلا مسروراً بهذه الوقعة، وأرَادَ القضاء على نصارى المعمورة لِمَا عَلِمَه من ضعفهم، واستعدَّ لهم بكل ما أمْكنه من الاستعداد، وطلب من الأندلسيين بعض المَدافع ليستعين بها، وأَدَاءَ إعانة للمجاهدين يَتَقَوَّوْنَ بها، وطلب منهم أيضا أن يصنعوا له السلاليم ليصعد بها إلى من بقي في الحلق، فيستأْصلهم، فتثاقلوا عَنْ صنعها وماطلوا في إحضارها، غشًّا منهم للاسلام ومناوأةً له، حتى جاء المَدَدُ لأهل الحلْق، فلمّا أُتِيَ بها لم تُغْنِ شيئا بعد أنْ رَكَّبها.

ومن هنالك اسْتحكمت البغضاء بينه وبين أهل الأندلس، وكانوا أعْلموا النصارى بأن مَحلَّة العياشي المحاصرة لهم، ليست لدَيْها عُدَّةٌ كافية، فبلغ ذلك العياشي فاغتاظ منه وأقام

---

216) «نزهة الحادي»، ص 238 طبع فاس، و«الاستقصا»، ص 130 من ج 3، طبع القاهرة وص 281 من ج 3 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001. و«تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 217.

الحُجَّة عليهم، واستفْتى العلماء في قتالهم فأفتاه جماعة منهم، فيهم الشيخ أبو عبد الله العربي الفاسي بجواز مقاتلتهم، لأنَّهم حادُّوا الله ورسوله، وَوَالَوْا الكُفَّار ونصحوهم، ولأنَّهم تصرَّفوا في مال المسلمين ومنعوهم من الرَّاتب، وقطعوا البيع والشراء عن الناس، وخصُّوا به أنفسهم وصادقوا النَّصارى، وأمدُّوهم بالطَّعام والسلاح.

وكان الإمام سيدي عبد الواحد بن عاشر لم يجب عن هذه القضية، حتى رأى بعينيه حين قدم إلى سلا بقصد المرابطة، فرأى أهل الأندلس يحملون الطعام إلى النصارى ويعلمونهم بعَوْرة المسلمين، فأفتى حينئذ بجواز مقاتلتهم، فقاتلهم أبو عبد الله العياشي، وحكم السَّيف في رقابهم أياما، إلى أن أخْمد بِدْعَتَهُم، وجمع الكلمة بهم.

وقد تضمَّن «المعيار الكبير» للونشريسي، و«المعيار الجديد» للوزّاني في كتاب الجهاد فتاوَى عديدة تتعلق بالأندلسيين وهجرتهم، وحنينهم إلى وطنهم الذي هاجروا منه، وموالاتهم للعدو المحتل لثغور المغرب ومدِّه بالمؤَن والطعام، والمقالات التي كانت تَصْدر منهم، وأنَّ ذلك كلَّه يبيح مقاتلتهم...

وعقب هذه الغزوة الكبرى، توالت الوفود على أبي عبد الله العياشي بسلا، مهنئة له بما منحه الله من الظَّفَر، فحضَّهم على استيصال شافة من بقي بالحلْق من النَّصارى، وكان في جملة من حضر من العرب، جماعة من الخلط، وبني مالك، والتاغي والدخيسي وغيرهم، فقال لهم : "واللّه، واللّه، واللّه، إنْ لم يأخذكم النَّصارى لتأخذنكم البربر"، فقالوا له : "يا سيدي كيف يكون هذا وأنت فينا"، فقال لهم : "أسكتوا: أنتم الذين تقطعون رأسي، وقد يكون بأمْر اللّه"، وعُدَّ ذلك من كراماته.

ثم تصدَّى لمحاربة الاندلسيين، وكانت بينه وبينهم مواقف سالت فيها دماء واستبيحت أموال، وتعددت الكوارث والأهوال، على ألوان وأشكال، حسبما سنشير له بعد هذا في محله. وولَّى وجهته بعد ذلك نحو نصارى العرائش، فَكَمِنَ لهم بالغابة، وأخذ حنَّاشًا لهم من عرب طليق، والحنَّاش في لغة عامَّة أهل المغرب، هو الجاسوس، وقد كان الحنَّاشون يبيعون أولاد المسلمين للنَّصارى، فأراد قتله، فقال له: استَبْقِنِي، وأنا أدُلُّك على عورة العدو، فاستبقاه، ورجع إلى النَّصارى فقال لهم: إنَّ أحياء العرب وحِلَلَها قد نزلوا بوادي العرائش، فَلَوْ أغَرْتُم عليهم لَغَنَمْتُوهُم، فخرجوا، فتمكَّن منهم العياشي ومَن معه، وطحنوهم طحناً في ساعة واحدة، ولم يَنْجُ منهم إلاَّ الشريد، وبلغ من قُتِلَ منهم نحو الألف.

وكانت هذه الوقعة سنة أربعين وألف (1630/1040)، ورجعوا إلى جاسوسهم الذي خانهم، وخدعهم، فمثَّلوا به، ونزعوا أسنانه، فرفع بهم دعوى إلى شرعهم، ولم نقف على مآلها وكيف تمت.

المبحث الثامن

حروب العياشـي مع
أنـدلس القصبـة والربـاط[217]

تقدم لنا فيما سبق، أنَّ الصُّلح الذي انعقد بين أندلس القصبة، وأندلس الرباط، سنة أربعين وألف (1040/1631)، كان ضئيلا، ولم يات بنتيجة ترفع عليها دعائم السلم المستمر المستقر، وأنَّ المظاهرات تجدَّدت، والتظلُّم والتذمُّر بين الفريقين لم ينقطع.

وذلك أنَّ أهل القصبة كانوا اختاروا قائداً عليهم : محمد بن عبد القادر صرُّون، وأهل سلا الجديدة أو الرباط، اختاروا نائباً عنهم : عبد الله بن علي القصرى.

ولا شك أنَّ حكومة تُسْنَد رئاستها في آنٍ واحد إلى خصمين متنازعين يتجاذبان حَبْل الرِّياسة والاستبداد بها تكون مُعرضة للانهيار والزَّوال.

وأنَّ أبا عبد الله العيَّاشي في العدوة الأخرى، كان ينظر إلى ذلك بعينيه، ويسمع ما يروج بأذنيه، وأنه تغاضى عنهما، وصرف وِجهته لمحاربة العدو المحتل لثغور المسلمين، واستنجد بهم فلم يُنجدوه، وطلب إعانتهم، فلم يُعينوه، وأمرهم بصنع السلاليم لإتمام العملية الحربية بالمعمورة، فماطلوه وتباطئوا عليه حتَّى ضاعت الفرصة، وجاء المدد للعدو، وكانت هذه الأمور كلها موجبة لتَغَيُّرِهِ عليهم، وباعثة على انْقطاع صلة الوَصْل بينه وبينهم، فصمَّم العزم حينئذ على محاربتهم حتَى يفيئوا إلى أمر الله، معتمداً على ما لديه من فتاوى العلماء المبيحة له ذلك حسبما تقدَّم.

ولَّما تطورت الأحوال السياسية والحربية بالضفة اليسرى للمصب، وقوِي الأخذ والرد، والحل والعقد، خاف أهل سلا من أيْلولَة الأمر إلى معمورة ثانية بالعدوة الرِّباطية، ومن أن

---

217) ملخص من دوكاسطري "De Castries"، ص 194 وما بعد من المجلد 3، من سلسلة فرنسا، و«تاريخ المغرب» لطراس "Terrasse"، ص 220 وما بعدها من ج 2.

يصبحوا كأنَّهم بين فَرْدَتَيْ الرَّحى تطحنهم متى شاءت، فجاءوا إلى أبي عبد الله العياشي، وطلبوا منه إعمال المتعين في تلك الظروف الحرجة، والأحوال المضْطربة.

لاسيما وقد كان الإصبان، والإنجليز، والفرنسيون، والهولانديون يتسابقون إلى التدخل في الأمْر لدى رؤساء الحكومة الانفصالية القائمة بالقصبة، إمَّا بصفة النَّاصح، أوْ بطلب فكاك الأسْرى، وفي الحقيقة، إنَّما كانوا يعملون للاستيلاء على ذلك المركز المُهِمِّ، إمَّا حربا، أوْ بطريق بسط حماية عليه.

فلبَّى أبو عبد الله حينئذ نداءهم، وضرب الحصار على القصبة وسلا الجديدة، كما كانت تُسمَّى في ذلك العهد، في شهر المحرم فاتح سنة إحدى وأربعين وألف (محرم 1041/ يوليوز 1631).

وأنزل جيوشه على الشاطئ الأيْمن للمصب، ونصب أربعة مدافع على ساحل البحر أمام القصبة، واتَّخذ بسلا القديمة إدارة أرْكان حربه، ومنها كان يدبر حركاته العسكرية، ويصدر أوامره الحربية، ونصَب مدفعاً كبيراً على مصب النهر في البحر ليمنع الدخول والخروج منه، وأنْزَلَ ولده ومعه خمسة آلاف فارس بشالَّة ليمنع وصول الميرة والمؤن إلى سكان المدينة والقصبة.

ولكن هذا الحصار لم يكن له مفعول إيجابي في إرْغام المحاصرين على الاستسلام، لأنَّ رمي المدافع لم يؤثر في أسْوار وحصون القصبة، ولأنَّ السكان كانت تصلهم المؤون من البحر، فطال الحصار، بدون فائدة تُذْكَر.

وفي أثناء هذه الخطوب المُدْلهِمَّة، تذكر الأندلسيون المحاصَرون السلطة العليا بمراكش، فراجعوا طاعة السلطان أبي يزيد الوليد بن زيدان ظاهرا، وولَّوْا وجوههم شطره، ووجَّهوا رسلهم إليه، مخبرين بما صدر من العيَّاشي، وأنه يريد الاستيلاء عليهم، وإرغامهم على الدخول تحت سيطرته، وأنَّهم لا يريدون به بديلا.

ولمَّا عَلِمَ العياشي بذلك، أعْلن أن خصومه يتواطئون مع الإصبان على تسليم القصبة والمدينة إليهم.

قال طيراس "Terrasse" في تاريخه :[218]

---

218) «تاريخ المغرب» لطيراس "Terrasse"، ص 221 من ج 2.

«كان أندلس الرباط يحنون دائماً إلى الاستقلال، ويرون أنهم متفوِّقون على سكان البلاد التي هاجروا إليها، والقبائل المجاورة لها، بأصلهم ولسانهم، وعوائدهم وحضارتهم، حتى أنهم في سنة إحدى وأربعين وألف (1631/1041)، تخابروا مع إسبانيا، وعرضوا على ملكها الاعتراف به، ويسلموا له القصبة، فلم ينجحوا في مخابرتهم معه.

وقد حاول السلطان أبو يزيد الوليد بن زيدان، مع ضعف قوته، وعدم قدرته، أن يغتنم فرصة هذا الخلاف وهذه الحروب ليقنع سكان سلا القديمة على الاعتراف به، ولو اسميا، وإنْ لم يكن ذلك رسميا، وحيث كانت أمه إصبانية، ظن أنه يسهل عليه الوصول إلى هذه الغاية.

ولأجل تطمينه وتطييب خاطره، وجه له الأندلسيون بعض الهدايا، وكان الاعتراف به صورياً فقط، واستمرّوا على ما كانوا عليه من الانفصال في أحكامهم، وإدارة شؤونهم الداخلية، بتمام الاستقلال، لأن أهم شيء كانوا يعملون له هو الانعزال والانفراد بعوائدهم، وأخلاقهم التي جاءوا بها، مهما أمكنهم ذلك عن باقي سكان البلاد التي ءاوَوْا إليها، ونزلوا بها، ولم يحجموا في هذه الحالة عن ربط صلة الوصل بينهم وبين الإصبان»[219].

ولمّا رأى العياشي، أنّ الحصار لم يأت بالنتيجة المطلوبة، والغاية المرغوبة، رفعه عن القصبة والمدينة، في ربيع الثاني عام اثنين وأربعين وألف (ربيع الثاني 1042/ أكتوبر 1632)، بعدما طال نحو سنة وأربعة أشهر.

وقد كانت إسبانيا تتتبّع بغية التشوف، ومزيد الحرص والتطلُّع، حوادث العدوتين، وتهتم بها غاية الاهتمام، وكانت في حيرة فيمن ستختاره لتمُدَّ يدها إليهما بواسطته، لعلها تجني من وراء سياستها الانتفاعية شيئا تحصل عليه، فيما كانت تصبو إليه.

هل تمدُّ يدها إلى الأندلسيين الذين أساءت إليهم، وامتحنتهم، وأخرجتهم من ديارهم، وجرَّدتهم من أموالهم، وأفسدت عليهم أخلاقهم وعوائدهم ؟

أم إلى العياشي، الذي هو العدو الأكبر لها، والذي تعرف بطشته الكبرى في ساحة الوغى، وما زاغ عن محاربتها ولا طغى ؟

وأخيراً، إختار ميدينا سيدُونْيا "Médina Sidonia" الأندلسيين على العياشي لسابق اتِّصالهم بالإصبان، وإن كانوا حمَّلوهم خسائر فادحة بقرصنتهم في البحر.

219) «تاريخ المغرب» لطيراس "Terrasse"، ص 221 من ج 2.

والعياشي لا يعرف إلاّ ولا ذمة في مطاردتهم وغزوهم حتّى يُخْرجهم من جميع ثغور المغرب أذلّة وهم صاغرون، مهما وجد لذلك سبيلا.

وأيضاً كانت سياسة إصبانيا تعمل على إبعاد الأندلسيين عن الاتصال بالإنجليزيين والفرنسيين، ولذلك دَخلت في اتِّصالات سرية معهم، ومدَّت يد المعونة والمساعدة إليهم، لعلَّهم يقبلون حمايتها.

تجدد الحرب بين أندلس القصبة وسلا الجديدة، وتدخل العياشي فيها مرة أخرى(220)

بعد رفع الحصار الذي كان مضروباً على الضفة اليُسْرَى للمصب، وانسحاب أبي عبد الله العياشي إلى ناحية الغرب، وسُكُون زوبعة الحرب، وما ترتَّب عليها من هَوْل وخَطْب، سكنت الأحوال بالقصبة وسلا الجديدة، نحو أربعة أعوام من سنة اثنين وأربعين وألف (1632/1042) إلى سنة ست وأربعين وألف (1636/1046).

واستأنف القراصنة أثناء هذه المدة غاراتهم القرصانية بجدٍّ ونشاطٍ.

ثم ثارت الأحقاد الكامنة، وتحركت القوارص السّاكنة، وتحكَّكت العقرب بالأفعى، واستنَّت الفصال حتى القرعي، واتَّخذ الكل أخلاق الضَّبُع طبعا، ولبسوا جلد النمر طوْعا، وحرَّقوا على بعضهم الأرَّم، ونادُوا هذا أوَانُ الشدِّ فاشْتَدِّي زيم.

لأنَّ الحورناشيرُوسْ، وهم أندلس القصبة، لم ينصفوا الموريسكوس، وهم أندلس الرباط وسلا الجديدة، وعاملوهم بعجرفة وكبرياء، وتجبُّرٍ واستبداد في الأحكام وإدارة الأعمال، فحَمِيَ أنْفهم، وغَلاَ دَمُ الغَيْظ في أدمغتهم، وصَمَّموا العزم على القضاء على جيرانهم الذين سلبوهم حقوقهم، واستبدُّوا بالأحكام دونهم.

وحيث كانوا أضعف منهم قوة واستعدادا، فقد عَمَدُوا إلى حيلة نجحت لهم، فبيَّتوا القصبة، ودخلوها على حين غفلة من أهلها، فاستوْلوا عليها في الحين، وأصبحوا بين عشية أوْ ضحاها، سادتها المسيطرين عليها، وذلك في شهر جمادى الآخرة سنة ست وأربعين

---

220) ملخص بتصرف من دوكاسطري "De Castries"، ص 196 وما بعدها من المجلد الثالث، سلسلة فرنسا، و«تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 219 والتي بعدها.

وألف (جمادى الآخرة 1046/ شتنبر 1636)، وشرَّدوا الحورناشيروس الذين كانوا بها، فخرجوا منها يلتفتون وراءهم خوفاً وفزعا، ففرَّ بعضهم إلى الجزائر، والْتَحق بعضهم بتونس، ولجأ آخرون إلى سلا القديمة محتمين بسلطة العيَّاشي، وانْدمج قليل منهم في سكان سلا الجديدة والرباط، وذهبت شِرْذمة منهم إلى مراكش، وطوائف إلى زاوية الدِّلاء، ورحلت زُمَرٌ منهم إلى أوربا.

ولما تمَّت هذه الحيلة، ونجحت العملية للموريسكوس استوْلوا على الدِّيوانة وجميع دخلها، وذلك كان قصدهم.

ثم استفزتهم خمرة الانتصار على إخوانهم، واستهوتهم لذة الفوز على جيرانهم، فمدُّوا أعينهم إلى ما وراء الضفة اليمنى للنهر، وأرادوا الاستيلاء على مدينة سلا القديمة، لتتمّ لهم السيطرة على العمران المتكون حول ضفتي المصب كله، وذلك أواخر سنة ست وأربعين وألف (أواخر 1046/ أوائل 1637) فنصبوا جسراً متحركاً من القوارب الصغيرة المقطورة على الوادي، لِتَمُرَّ عليه بطرياتهم وجيوشهم فرساناً ومشاة، تحت رياسة وإمْرَة القائد عبد الله القصري، وحاصروا سلا مدة شهري شعبان ورمضان من السنة المذكورة (يناير وابراير).

وطار الصريخ لأبي عبد الله العياشي، وكان متغيباً عن سلا، فخفَّ إليها على جناح السرعة، وتلاحقت به جيوشه، وهاجم المحاصرين، وصادفَ الحال أنَّ أسطولاً إنجليزياً كان راسياً بالميناء، مرابطاً على القصبة، وَمُطَالباً بفكاك الأسرى الإنجليز الذين كانوا بها، تحت إمارة الأميرال رينْسْبُورُغْ "Rainsborough". فاتَّفق معه العياشي وأعانه بمدافعه، فَقَنْبَلَتْ جيش القصري، وحطَّمت قنطرته فأصبحت أثراً بعد عين، واضطُرَّ إلى الانسحاب إلى ما وراء الضفة اليسرى.

وبعد هذا الانسحاب، انعكست القضية، وأصبح المحاصر مُحاصَراً، لأن العياشي ضرب نطاق الحصار مرة أخرى على القصبة وسلا الجديدة، منتصف ذي الحجة متم عام ستة وأربعين وألف (منتصف حجة 1046/ أوائل ماي 1637)، وبقي الأسطول الإنجليزي مساعداً له ومُتَمِّمًا دائرة نطاق الحصار من ناحية البحر، وأغْلق مدْخل الوادي، ولم يقتصر على ذلك، بل تجاوزه إلى إنزال بطرياته المدفعية البعيدة المدى إلى البر، وصوَّبها نحو الأساطيل الأندلسية التي كانت راسية بالوادي، فدمَّر ثمانية منها، وأحدث خسائر فادحة بباقيها.

ثم عقد معاهدة مع العياشي بتاريخ خامس ماي سنة سبع وثلاثين وستمائة وألف (05 ماي 18/1637 حجة 1046)، تتضمن الصلح وفكاك الأسرى واستجلاب ما يحتاج إليه من بارود ورصاص وسلاح من إنجلترا، وسيأتي نصها في محله، وسلَّم له العياشي من كان تحت يده أوْ مفرقاً بإمارته من الأسرى الإنجليز.

ولمَّا بلغ ما وقع بالعدوتين من الحصار والحروب بين الأندلسيين والعياشي للسلطان مولاي محمد الشيخ الأصغر السَّعدي الذي تولى بعد أخيه الوليد منتصف رمضان سنة خمس وأربعين وألف (منتصف رمضان 22/1045 فبراير 1636)، خاف عواقب ما تلده الأيام والليالي، وهي حُبَالَى لا يُدْرَى ما تلده، وتوقَّع شراً من العياشي أكثر من الإنجليز، وخرج من مُرَّاكش يَجُرُّ وراءه جيْشاً عرمرما، قِوَامه أربعة عشر بطرية مدفعية، قاصداً مصبَّ أبي رقراق.

وبمجرد ما علم العياشي بذلك، بادر بإبلاغه بواسطة رسالة أوْ رسول، مُؤكِّداً له أنه لا يريد من الاستيلاء على القصبة وما حولها ممَّا يسمى بسلا الجديدة إلاَّ ليُسلِّمها إليه مهما تمكَّن منها، وقصد بذلك تطمينه وإزالة ما خطر بباله من الشُّكوك والأوهام.

ولكنه في الوقت نفسه، اتَّفق مع الشيخ أبي عبد الله محمد الحاج الدلائي، على اتخاذ سائر ما يمكنهما من الوسائل والأفعال لعرقلة حركة السلطان وتقدمه نحو الشمال، ومن ذلك أنَّهما أعْلنا دعاية واسعة شاسعة بمُرَّاكش، فحْواها أنَّها ستهاجم بجيش قوي عتيد، يَصِلُ إليْها في زمن غير بعيد.

وفي الوقت نفسه، استعانا بقبائل أعْراب النَّاحية على إحْراق وإفساد سائر الزروع وإهلاك الحرث والنَّسل. ويؤخذ من هذا، أنَّ العيَّاشي والدَّلاءي ، وإن اختلفت وجهتهما في الاستبداد بالحُكْم والرئاسة والسيادة، فقد اتَّفقت على تحطيم الدَّولة السَّعدية بسائر الوسائل ليخلو لهما الجَوُّ، ونحن نعلم ما كان بين العيَّاشي وزيدان من السَّوابق والأحقاد.

ومع ذلك فقد تقدَّم الجيش السلطاني إلى أن وصل إلى فضالة، ولم يستطع مُجاوزتها، لفقدان المؤن، وانْتشار المجاعة، وفرار الجند والمرتزقة منه. ورجع السلطان أدراجه إلى مراكش، فدَخلها في المحرم فاتح سنة سبع وأربعين وألف (محرم 1047/ يونيوه 1637).

وفي أثناء هذه الحوادث، وانتظار وصول الجيش السلطاني، واشتداد حلقات الحصار برًا وبحْرًا على القصبة وما حولها من العمران الذي كان يطلق عليه سلا الجديدة، اشتدَّت وطأة الأزمة، وقلَّت أوِ انْعدمت الأقوات بالكلية، واختلفت الآراء، واستحكمت مادة الخلاف

والشقاق بين قادة المحاصَرِين، واندلعت نار الثورة بينهم، تُحَاوِلُ التهامهم، ولعل العياشي لم يكن أجنبيا عن كل ما وقع.

وقد أسفرت هذه الأهوال والفِتَن، عن ظهور ثلاثة أحزاب بين الثوار :

- **الحزب الأول** :

وهو حزب الحورناشيروسْ، كان من مبْدئه ورأيه، أن تقع المخابرة والاتفاق مع العياشي لتنحلَّ الأزمة سريعا.

- **والحزب الثاني** :

كان يرفض كل مخابرة مع العياشي أوِ الْخضوع إليه، ولا يعترف إلاَّ بسلطة السُّلْطان السَّعدي بمراكش، ويقول : إذا لم يتمكن من الوصول إليهم لإنقاذهم بنفسه، فسوف يوجه لهم الجيش والمؤن، ولو على طريق البحر لإغاثتهم، ورفع الحصار عنهم.

- **والحزب الثالث** :

حزب القصْري والمدافع عنه، والشَّاهد له بحسن السيرة، وطيب السَّريرة، والكفاءة والمقدرة.

ودام الجدال واحْتَدَّ واشْتَدَّ الخصام، بين هؤلاء الأحزاب، مدة عشرين يوما، خلع الثوار أثناءها عبْد اللَّه القَصري من رئاسته أوْ إمارته، وسَجَنُوه، واتَّهموه بأن إخلاصه للصَّالح العام لا يتجاوز أقْواله إلى أفْعاله، وأنه لا يهتم إلاَّ بترسيخ قدمه في الرِّئاسة واستغلالها والاستبداد بها.

وكان من أعظم المحرضين على نكبته، ثلاثة من الأندلسيين الحُورْنَاشِيرُوسْ المطرودين من القصبة والملتجئين إلى سكَّان سلا الجديدة وهم :

- علي كَلاَنْ
- وموسى سَانْتِيَاكُو
- وصهره سلَيْمَانْ بن الطاهر.

وكانوا يطالبون بإغْراقه في البحر، أوْ بقطع رأسه، تقرُّباً بذلك إلى العيَّاشي، لعلهم ينالون منه امتيازات في شروط الصلح التي فاتحوه بالمذاكرة فيها.

ولمّا خُلع القصري من الرياسة وسُجن، عوّضوه بانتخاب ثلاثة رؤساء، وهم :

- كايا فاشير.
- وصهره سليمان بن الطاهر.
- والحاج العبّاس الهرّادو.

وبعد استفهام العيّاشي عن مطالبه لإقرار الصلح بينه وبينهم، طالب :

1 – بأخذ نصف مداخيل المرسى، وكانت مهمة، قدّرها بعض الأوربيين الذين كتبوا فيها بنحو سبعة وعشرين مليون دُوكًا في مدة عشرة أعوام.

2 – وبنصف ما يتحصّل من جميع المغانم البحرية.

3 – وبتعويض الخسائر التي لحقت السلاويين أثناء الحصار الذي ضُرِبَ عليهم مدة شهرين كاملين.

4 – وبرد جميع الأندلسيين الحورناشيروس المطرودين من القصبة والملتجئين إليه، إلى ديارهم وَرَدِّ سائر ما ضاع لهم من حقوقهم وأموالهم.

فقبل الثُّوار الشرطين الأولين، ورفضوا الشرطين الأخيرين. وهنا انقطعت المخابرة مع العياشي، وحوّل الأحزاب نظرهم نحو السلطان محمد الشيخ الأصغر السّعدي قائلين : إنهم نزلوا في القصبة بالإذن من السّعديين، ولذلك يتعيّن الرجوع إليهم، وعدم الاستسلام إلى العياشي.

وفعلاً قادوا القصري يرسفُ في قيوده وأغلاله أوائل شهر صفر (يوليوز) من السنة المذكورة، وأركبوه لَيْلاً خُفْيَةً عن أعين العامّة زورقاً ووجّهوه بحراً إلى أزمور، فاسْتَلَمَهُ ممَّن جاء به عاملُها ووجّهه إلى السلطان محمد الشيخ الأصغر، وكان مخيماً في محلته بتلك النّاحية، فقابله السُّلطان واستفسره، واستفرغ عَيْبَة سرِّه، ونزع عنه قيوده وأغلاله وَأقرّه في ولايته، وردّهُ إليها مكرّماً مجبورا، وأرْكبه سفينة إنجليزية مشحونة بالقمح تسْكيناً لهيجان الثائرين المحاصَرين، ولعلّه أقرّه في ولايته لعداوته للعيّاشي.

ولمّا وصلت السفينة إلى المصب، وحاولت الدخول إلى المرسى منعها الأسطول الإنجليزي المحالف للعيّاشي من الدخول، حتى يسلّم له الأندلسيون جميع الأسرى الإنجليز الذين عندهم بالقصبة وبالمدينة، واختلفت الرُّسل بينه وبينهم، وأخيرًا سلّموهم.

وكان رجوع القصري ودخوله إلى سلا الجديدة في ربيع الأول (آخر يوليوز) من السّنة نفسها، وتلقّاه السكّان بالفرح والهُتاف والطُّبُول والمزامير والرايات والأعلام.

وقُرِئ كتاب ولايته على الجماهير فهتفتْ له، واستقر في رئاسته كما كان، ما عدا القصبة فإنها بَقِيَتْ بيد صهْره كايَا فَاشِيرْ.

ثم تتبَّع أعداءه والمتسبِّبين في نكبته، فتقبَّض عليهم، لأنَّهم كانوا يُوالون العياشي. فَمنْهم من قُطِعَ رأسه، ومن بينهم صهره سليمان بن الطَّاهر، ومنهم من فَرَّ، ومنهم من نُفِيَ وطُرِد، وسكنت الضَّجة وخبت نار الفتنة، وذلك في شهر ربيع الأول عام سبعة وأربعين وألف (ربيع الأول 1047/ غشت 1637).

وفي أثناء هذه الأحوال، أفلح الأسطول الإنجليزي الذي كان محاصِراً للقصبة ومصب الوادي بعدما حاز أَمِيرَالُهُ الأَسْرى الإنجليز الذين كانوا عند العياشي، وعند الأندلسيين بالقصبة وسلا الجديدة، وبلغ عددهم نحو ثلاثمائة أسير، وتنفَّس الخناق من ناحية البحر عن المحاصَرين، ومدَّ القصْري يده للإسبان طالباً إسعافهم بما أمْكن من الأقوات، فوجَّهوا له شحنة من البِسْكُوطْ.

وحينئذ علم العياشي أنه لم يبق له أمَلٌ في إخضاع الأندلسيين بطول أمد الحصار والمجاعة، فَسَلَكَ حينئذ طريق المخابرة وأسْفرت على الاتفاقية المنعقدة بينه وبينهم، في ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وألف (ذي القعدة 1048/ أبريل 1638)، ورجع بمقتضاها الأندلسيون المنفيون من سلا الجديدة إلى ديارهم، وتوصَّلوا بحقوقهم وأموالهم وممتلكاتهم كلها، ورفع العياشي الحصار، وانسحب جيشه فخيَّم بناحية المعمورة.

وعقب هذه الحوادث قَتَلَ الحورناشيروسْ الرئيس القصري غيلة، وبمجرد ما بلغ اغتياله للسلطان محمد الشيخ الأصغر، وجه فرْقة من جيشه عددها خمسون وثلاثمائة جُنْدي، تحت إمْرَةِ قائد من قواده أحد مسلمة الفرنسيين، وهو القائد مُورَا "Morat" لحماية القصبة.

الحالة بالقصبة وسلا الجديدة بعد انسحاب العياشي ورفعه الحصار عنهما[221]

لما انسحب أبو عبد الله العيَّاشي، إلى ناحية المعمورة، ورفع الحصار عن القصبة وسلا الجديدة، ورجع الأندلسيون إلى دورهم، وحازوا أملاكهم وأموالهم، سكنت الأحوال بعض الشيء نحو الثلاثة أشهر، ثمَّ عاد الحصار، وعادت الحرب جدعة.

---

220) ملخص بتصرف من دوكاسطري "De Castries"، ص XXIII من مقدمة المجلد الثالث، سلسلة فرنسا، ومن «تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 220-221.

وذلك أنَّ الحُورْنَاشِيرُوسْ اتَّحدوا مع الأندلسيين الذين انضمُّوا إليهم بالمدينة، وأصبحوا قوة يُخْشى بأسها، ويُحْسب لها حسابها، وانضمَّ إليهم نحو الألف من عرب الناحية دخلوا المدينة لِبَيْعِ بعض الأقوات لأهلها، وحاولوا الاستيلاء على القصبة، فلم يقدروا عليها، لأنَّ الحامية السَّعدية، انضمَّت إلى الأندلسيين الذين بها تحت إمْرة ولد القائد القصري الذي خلف أباه في القيادة بعد اغتياله، فصدُّوهم عنها.

وحيث لم يتمكنوا منها، ضربوا عليها نطاق الحصار من جديد، ولم يشارك السلاويون بالضفّة اليمنى في هذا الحصار، لغيبة أبي عبْد الله العيَّاشي عنهم بالنَّاحية الفاسية، وذلك في شهر صفر عام ثمانية وأربعين وألف (صفر 1048/ يوليوز 1638).

ويقال إنَّ هذه المؤامرة، نظمت بإغرائه وآرائه.

إلاَّ أنَّ حلقات الحصار، لم تكن مُحكمة الاتِّصال في هذه المرة، لأنَّ القصبة كان يأتيها رزقها رغداً من كل مكان على طريق البحر، سواء بواسطة بعض السُّفن الإسبانية أو الإنجليزية، أوْ بواسطة سفن السلطان محمد الشيخ الأصغر السَّعدي، وكانت هذه الأرزاق، تُباع بأثمان رخيصة جداً في الأسواق.

ومع ذلك قَوي الهرج وتعذَّرت الحركة، وخاف الأوربيون النَّازلون بالقصبة والمدينة على أنفسهم، فكتب نائب القنصل الفرنسي المُسمَّى : كَاسْبَارْ دُو رَاسْتَانْ "Gaspard de Rastin" إلى رِيشْلْيُو "Richelieu" ينْصَحه بأن يعقد صلْحًا مع العيَّاشي لأنه تُخشى قوته، يكون فيه ضمان لحياتهم ومصالحهم، وهو خير من عقده مع الأندلسيين لتفرُّق كلمتهم، واختلاف أحْزابهم، وكان القنصل الهولاندي يرى مثل هذا الرأي.

وفي هذه الظروف المضطربة، والأحوال المرتبكة، فاتح الإنجليز والإسبان أندلس القصبة في حمايتهم، وتسليمها إليهم، بواسطة أمير ورئيس الحامية القائد مورا "Morat"، السَّعدي، فلم يتم الاتفاق بينهم، وصرَّح مورا للمُعْتَمَد السياسي الإنجليزي، بأنَّه سيدافع عن القصبة إلى آخر نفس، لأنَّ السُّلْطان سلَّمها إليه، وإنْ كان لابُدَّ من تسليمها، فإنه سيُسلمها للإصبان.

وجاء أبو عبد الله العياشي عقب ذلك، فأرهفَ حده، وضاعف جنده، وعزم على التَّضْييق على المحاصَرين حتى يأخذهم أوْ يستسلموا له.

وبينما هو مشتغل في استعداده، جاءه الصَّريخ من أولاد نُويب، بأولاد بوعزيز بدكَّالة، بأنَّ برتغال البريجة تطاولوا على المسلمين هنالك، وساموهم الخسف والهوان، فتراجع عن

الأندلسيين، وأقلع عنهم إلى ناحية العرائش، ومنها جمع جيوشه، وقاد المجاهدين إلى البريجة، وأوقع بهم وقعة شنعاء تحدَّث عنها مؤرخو المسلمين والمسيحيين، وتغنَّى بها الشعراء في أشعارهم، قُتِلَ فيها قائد الجديدة، ولم ينْجُ من جيشه إلاَّ بضعة عشر رجلا، وذلك في المحرم فاتح سنة خمسين وألف (محرم 1050/ أبريل 1640).

ورجع إلى سلا، ومعه عدد وافر من الأسرى، فسُجنوا ببعض دهاليزها سنين عديدة حتى تم فداؤهم[222]، وبعد رجوعه من هذه الغزوة متوجًا بتاج النصر، رافلاً في حلل الفخر، أقْسم أنَّه سيتصدّى لقتال الأندلسيين حتّى يحكم الله بينه وبينهم.

222) «نزهة الحادي»، ص 239-240، طبع فاس، و«الاستقصا»، ص 135-136 من ج 3، طبع القاهرة، وص 293 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

المبحث التاسع

المواصلة بين أبي عبد الله العياشي
وأبي عبد الله محمد الحاج الدِّلائي

كانت الجامعة الصوفية، والقيام بالدعوة الجهادية، واتحاد الكلمة على تقويض دعائم الدولة السَّعدية، صلة وصل بين الشيخين أبي عبد الله محمد العياشي، وأبي عبد الله الحاج الدلائي.

وكان كل منهما يعظِّم الآخر، وينشر فضائله ومحاسنه؛ واختلفت الرسل والرسائل بينهما، مؤيدة دعوتهما، ومعلنة اتفاقهما واتحادهما.

وكان أبو عبد اللّه محمد الحاج، يطيل الثناء عليه، ويديع محاسنه، ويقول في دعائه : "اللّهم اجْزِ عنا سيدي محمد العياشي أفضل المجازاة، وكَافِه أحسن المكافاة، واجعلْ مكافأتك له، كشف الحجب عن قلبه، حتى تكون أقرب إليه منه. اللّهم لا تحرمه توجُّهَه إليك، وانقطاعه لخدْمتك. اللّهم نفِّس كُربته، وكمِّل رغبته، وأجبْ دعوته، وسَدِّدْ رَميته، وارْدُدِ الْكرّة على من عاداه في الحق، إنّك على كل شيء قدير".[223]

وكان يُقدِّم بعضهم لبعض الهدايا، التي هي عنوان المحبّة والإخلاص، ودليل على ما يكنُّه المُهْدي للمُهْدَى له من الاعتبار والاختصاص.

قال الشيخ أبو الرَّبيع سليمان الحوَّات - رحمه الله - في كتابه «البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزَّاوية الدلائية» :[224]

---

223) «نزهة الحادي»، ص233 ، طبع فاس، و«البدور الضاوية»، ص 187، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية .

224) نفس المصدر، ص 172 ونفس المخطوط والجزء.

"وردت على الشيخ أبي عبْد الله محمد الحاج بن الشيخ الأكبر أبي بكر، هدية من قبل الفقيه العابد، الرئيس الجليل الماجد ذي الفضل الفاشي، أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد العياشي، قدَّس الله روحه، وبرّد ضريحه، صحبة ولده الفقيه الأجل، النزيه الأفضل، أبي محمد، عبد الله، إذْ جاء زائرًا للشيخ عن إذْن والده المذكور، في أواخر ذي القعدة الحرام عام ثلاثة وأربعين وألف (أواخر ذي القعدة 1043/ أبريل 1633).

وكانت هدية هائلة، تشتمل على أنواع الملْف والكتَّان، وغيرهما من الثياب الرفيعة الغالية الأثمان، فاستعظمها الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، وقال : «ما هذه هدية الفقير للفقير»، ثمَّ دعا أكبر أهل بيته، وهو ابن عمه، الفقيه العالم العامل، سيدي أبو القاسم بن إبراهيم، فشاوره في أمْرِها، ليرى رأيه فيها، فقال له : «أرَى أنْ تُجْعل في الصناديق إلى أن يظهر لنا ما تصرف فيه». فقال له الشيخ سيدي محمد : «لا والله لا باتَتْ عندي منها خرقة ولا أظلَّها لي سقف"، ففرَّقها في الحين على الضعفاء والمساكين، والعلماء والشرفاء وغيرهم من عباد الله المسلمين، ولم يتلبَّس منها بجليل ولا حقير، ولا قليل ولا كثير.»

وخاطبه برسالة يعظم فيها قدره، ويستمنح من الله نصره، ويقِرُّ له بالفضل والقيام بفريضة الجهاد، التي تكون فرض عين على كل مسلم إذا فجأ العدوُّ البلاد، كما كان المغرب في ذلك الوقت، ويَعيبُ على من لم يَسرْ في ركابه، أوْ لم يتمسَّك بأسبابه، ونصها :(225)

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

حفظ الله رئيس هذا الدِّين وَنقيبه، المنصور الرَّاية المبارك الأمر، الميمون النقيبة، المثابر على فضيلتي الرِّباط والجِهاد، والدُّؤُوب على إظهار العزم في ذات الله والقوة والجلاد، الأخ في ذات الله، ونعم الأخ والولي، والوفي بعهد الله والصَّفي، وناهيك من ولي ووفي وصفي، سيدي محمد بن أحمد العياشي، أصلح الله أعْماله، وأنْجح من خير الدارين آماله.

وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ورضوانه الأعم وتحياته، عن تمام الخير والعافية، وما عوده ذو الفضل العظيم من ألْطافه الخفية الوافية، ونعمه الجمَّة المتوالية، وقد انتهى إلينا عن تلكم القبائل المحيطة بسلا، حسبما نقله الرُّواة حديثاً صحيحاً مُرْسلا، أنهم ما قاموا بواجب شكر الله في نعمه التي أسداها الله إليهم، وأسبغها عليهم، وهي ذاتكم التي نابت عن الأمَّة المحمَّدية في آداء هذا الفرض، الذي حمدتْ سعيه فيه أهْل السماوات

225) نفس المصدر ونفس المخطوط والجزء، ص 319.

وأهْل الأرض، ولبست قلوبَها فوق دُرُوعها، ولم يضق بالمساء والغُدُوِّ على العَدوِّ رحْب ذِراعها، وصينت الدماء، وحُفظت الدِّيَار، ووفَتْ بعهد الله في رعاية دين النبي المختار، وأنَّ من أولئك الأعراب مُثبِّطا ومتربِّصًا، ومستهزءًا ومتنقِّصًا، وخادعاً وخاذلا، وماكراً وعادلا، وطالما دعوتهم إلى ذات اللّه سراً وجهارا، وليلاً ونهارا، فما ازدادوا إلاّ فراراً ونماراً، ونفوراً وإصرارا، حتى قامت بك الحجة، وبانت لكل الناس المحجّة، وَيْحَهُمْ أَلَمْ يعلموا أنَّ الله سبحانه لهم محاسب وسائل، وأنَّ اتباعك والإئتمار بأمرك، والانقياد لكلمتك والتعلُّق بأذيالك، والإذعان لحجتك، وإجابة دعوتك، هو لهم عند اللّه عزَّ وجلَّ من أرجح القربات وأعظم الوسائل، لأنَّك ما دعوت إلاَّ للَّه، ولا قطعت يومك وأمسك إلاَّ فيمَا يرضى اللَّه، ويرضي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ما دام ملك اللّه. يا ليتني كنت لك ثانيا، لاَ كاسلاً وَلاَ مُتوانيا، ويا ليتهم عرفوا أنَّ اللّه تعالى أنْعم عليهم بك، ونظر إليهم بوجودك وسببك، فسيذكرون هذا ويندمون، إذا وفدوا على ما عليه يقْدِمون.

ولا عجب من قبيلكم الوافر، المتظاهر المتظافر، قبيل بني مالك، بطن من شعبة سُويد الأحرار، العرب العاربة الصُّرحاء الأخيار، ما كنت أظنُّ أنهم يملكون معكم أرضاً ولا جدارا، ولا درهمًا ولا ديناراً، ولا أحسب إلاَّ أنَّهم يُحكِّمونك في رقابهم، فضلاً عن أموالهم، ويُصرِّفونك في ذواتهم، فضلاً عن أحوالهم، ويشكرون نعمة اللّه عليهم، ويعترفون بالعجز عن شكرها، ويلقون إليك مقاليد أمورهم، في حالي خيرها وشرِّها.

وإذا كان عادة القبائل الأُول يَردُّون أمورهم لمن فيه خصلة واحدة من رأي أوْ شجاعة، أوْ جود أوْ دين، ويجعلونه المعول، فكيف لا يرده قبيلكم لمن جمع اللّه له هذه الخصال وزيادة، وأحلَّه بجهاده على الرُّتبة العليا من الرئاسة والسيادة، وسلك بهم مسالك الطاعة، وشيَّد لهم فخراً تبقى مناقبه إلى قيام السَّاعة. فتاهًا عليهم، لَقَدْ واللّه أخطئوا الطريق، ولا وفقوا إلى مساعدة أفضل رفيق وفريق.

وعلى هذا، فلا يهمَّنك شانهم إنْ لم يجيبوا الطُّرُق المراشد، فأعرض عنهم، وعدَّهم كرجل واحد، وإنْ كانوا أوْفر من حصى البطحاء، وأكثر عدداً من رمال الدهناء، فاللّه مولاك وناصرك وعباده المومنون، وربك وليك وأولياؤه المحسنون، واحْسبهم كالْعدَا، ولهم من الله مَوْعِدا، ﴿وإن تظاهرا عليه فإنَّ اللّه هو مولاه وجبريل وصالح المومنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾، فباللّه النصرة وبمن فيه غيرة إسلامية، وحمية دينية إيمانية، لا يسلمك ولا يخذلك، ورضي الله عن أُمِّ المومنين خديجة الصدِّيقة الكبرى، كلاَّ واللّه لا يخزيك اللّه أبدا، إنَّك لتصل الرحم وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق. ﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم﴾.

فيا ليت أهل الوقت خاصتهم وعامتهم، فقيرهم وفقيههم انْصَفوا، وبالحق اتَّصفوا، وبالإذعان إليه اعْترفوا بمن سدَّ عنهم باب العصيان، وتحمَّل عنهم ما يُوَرِّطهم في غضَب الملك الدَّيَّان. ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾. ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض﴾. ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكُفَّار ولْيَجِدُوا فيكم غلظة﴾ الآية.

فَتِقْ بربك، وشُدَّ يدك على الاعتصام بحبله، والاستنصار به ، وبأوليائه المومنين.

ومن تكن برسول الله نصرته   إن تلقه الأسد في آجامها تجم

ومن حَرَمَه الله من الانخراط في سلك المجاهدين، وتأبَّى عن نصرة الدِّين، فتلك عقوبة ومحنة له من اللّه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه، إذ هو العالم بالطويات، والمسؤول في بلوغ المامولات والأمنيات، بمنِّه وطوْله، والسَّلام.

وكتب عبد ربه تعالى خديم المساكين، وغبار نعل الصالحين :

محمد بن أبي بكر الدَّلائي وفَّقه الله.

ولمَّا تمت الغزوة الكبرى بحلق المعمورة، وغزوة العرائش التي نصر الله فيهما أبا عبد الله العياشي نصراً مؤزَّرا، وكتب له من الفوز والظفر حظّاً مُوفَّرا، كتب له رسالة أخرى يهنئه فيها بهذا الفتح المبين، والعز المكتوب لمن معه من المجاهدين، وكافة جيوش المسلمين. فأجابه أبو عبد الله العياشي برسالة أُخْرى يقول فيها :(226)

الحمد لله وحده   وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

أبقى الله تعالى للمسلمين بركة الحبيب في ذات الله، الولي في مَرْضات الله، حسنة الزَّمان، وقدوة الأوان، مقيم سُوق الكتاب والسُّنة، ومعظم المنَّة، بذلك على المسلمين وله المنَّة، سيدي محمد ابن الشيخ القُدْوة الشهير، القُطْب الكبير، البركة الأسوة، سيدي أبي بكر الدّلائي.

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ورضوانه الأعم، وتحياته، عن الخير والعافية، والحمد للّه، وما تَعَوَّده العبد من فضل مولاه، وما تعهدونه من المحبَّة التي ثبتت المصافات فيها ابتغاء رضاه، والتماس دعاء يستعين به المحبُّ في صلاح دنْياه وأُخْراه.

---

226) «البدور الضاوية»، ص 323 من ج 1، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية

وقد ورد علينا المعظم كتابكم أثيرَ المحل لدينا، كريم الوُرود علينا، مُهَنِّئًا بغزوة العرائش أعادها الله، ومُتضمناً سروركم بذلك، وما كيَّفه اللّه تعالى للإسلام وسنّه.

وقد سمعتم - رضي اللّه عنكم - خبر هذه الغزوة التي كيفها اللّه تعالى على المعمورة، وامْتَثلتْ أمره في رقاب الكفرة السُّيوف المامورة، وبلغكم من شرحها ما لم يحتج إلى إعادة، ولا افْتقر إلى زيادة، وقد قوي الأمل في الله سبحانه، أن تكون تلك الغزوة مفتاحاً لفتحها، ومقدمة تستلزم لعزائم الإسلام نتيجة نجْحها، فالمسلمون الآن نازلون بعُقْر دارها، ومرسلون الصَّواعق على أسوارها، حتى تغْرق إنْ شاء الله بكُفَّارها، ويأذن الله ببوارها وتطهيرها، من أدْناسها وأوْضارها، وعودها إلى ملك الإسلام بعد إبَاقها وفرارها. هذا الذي انْعقدت عليه النِّية، وانطوتْ عليه الحنيَّة، لكن أيْن المساعد، والأمر لا ينهض به الواحد، والمسلمون - جبر الله صدعهم ويسَّر على ما يُرْضيه جمعهم - لا يتفق لهم رأْي، ولا يثْبت لهم حفظ لحِمَى الإسلام ولا وَعْي، حتى إنَّ افْتراق كلمتهم أضرُّ على الإسلام من اجتماع كلمة عدوه، وبُعدهم عن نصرته شر من قرب الكفر ودنوه، وقد ذهب الإسلام ضياعا، وفاضت نفسه شعاعا، يستغيث فلا يُغاث، ويستصرخ فلا يكون لمستصرخه انبعاث، لوْ صور الإسلام شخصاً جاءهم مستصرخا، يا إخواتي، يا معشري في الشدة والرخا، والمشتكي بذلك إلى اللّه وإلى أمثالكم أهل اللّه، والأمر أظْهر من أنْ يُشار إليه، والنهار أجدى من أن يُستدلَّ عليه.

وحامل هذا، الولدُ الأحظى، الخاصة البار الأرضى سيدي الحسن، يشرح لكم الحال على ما هو عليْه بما في علمه ولديه.

وقد أنَّستمونا في كتابكم عن الغربة التي أوْحشتنا، ونفَّستم كُربة تخاذل المسلمين التي أدْهشتنا، وما غاب عنكم أكثر، وحسبنا اللّه، والحول والقوة بالله، والاعتماد على الله، ولا أكثر، والله تعالى يبقيكم، وللمسلمين منكم الرُّكن الذي لا يُهدم، ومن أدعيتكم المباركة الجيش الذي لا يُهزم. والسَّلام.

وخاطبه برسالة أخرى يعْتذر فيها عن شخص كان وجهه إليه، وأقامه مقام الخادم لديه، فصدر منه ما يوجب الاعتذار عنه، يقول فيها :(227)

الحمد للّه الحليم العفو الرؤوف، المنزه عن صفات من وُصف بها فهو مرؤف، وصلَّى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد مدينة العلم، المسورة بسورة السَّماحة والحِلم، وعلى ساداتنا آله وصحبه، وكل من انتظم في سلك أتباعه من أهل حزبه.

---

227) «البدور الضاوية»، ص 187 من ج 1، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية

هذا، وإنَّ المُجلِّي بطلعته ظُلَم الظُّلْم والفساد، المحلي خزائن المعالي بموجبات النِّفاق على حين الكساد، المستوطن حبُّه في سويداء الفؤاد، من أَلْقَتْ إليه المكارم أزِمَّة الانقياد، وصلحت به بحمد الله البلاد والعباد، حوطة الإسلام وحمايته، وخديم الدين المحمَّدي وكفايته، سيدي مَحمد بن أحمد العياشي المحمود الأوصاف، بشهادة من يُعَدُّ من أهل الإنصاف، زاده الله من المكارم أعلاها، ومن نفائس دُرَر المجد أغلاها، وتوَّجه بتاج الكرامة والرضى، وأمده بدائم مَدَدِه السَّرمدي حتى يرضى، وسلَّم جنابه القدسي، العلمي، العملي، المجاهدي، المرابطي، من جميع البلايا، وأتْحفه من جميع تحفه الفاضلة الوهْبية بأعلى المزايا، وأهدى إليه من طيب بركاته ورحماته مَا يرضاه دينه العَلِيُّ حُماته.

قد شهدنا على أنفسنا بالإقرار بفضله علينا، وإنَّ ما يَسُرُّهُ يسرنا، وما يَضُرُّه يضرنا. علم ذلك منَّا يقيناً من له أدْنى مخالطة، بحيث لا يمكنه أن يدفع ذلك بنوع من المغالطة، وأنَّ الضارَّ بالعين ضارٌ بإنسانها، لكن النفوس الإنسانية محل لخطئها ونسْيانها.

ومن أقمناه لديكم مقام الخديم والولد، قد ساءنا منه ما ساءكم ممَّا عنه ورد، وطلبنا من جميل أوْصافكم معاملته بالصَّفح الجميل، فلن يزال الإنسان إلاَّ من عصمه اللّه يُسْتمال أوْ يميل، ولولا الحرارة ما عُرِف الظل، ولولا الوابل لقيل النهاية في الطَّل، وما عُرف العفو لولا الإساءة، ولا يقال صَبَر المرءُ إلاَّ فيما ساءه، وما عرفنا صاحبَه إلا مُحبًّا لِكُلِّ مَنْ للدين ينتسب، فإنْ خرج عن نظركم فقد أتاه الغلط من حيث لا يحتسب.

وكتب خديم المساكين، وغبار نَعْل الصَّالحين.

محـمـد بن أبي بكر الدلائي، وفـقـه اللّه بمنه.

ثم كتب أبو عبد الله الدلائي رسالة أخرى، خاطب بها الشيخ أبا زيد عبد الرحمان العائدي من أسرة أبي علي الحسين العائدي دفين سلا، وصاحب الضريح المشهور بها، كلُّها ثناء على أبي عبد الله العياشي، وإقرار بفضله وقيامه بفريضة الجهاد، وحضٌ على الدعاء له بطول البقاء يقول فيها بعد الخطاب ومقدمة الافتتاح :(228)

... واستدعي من الله تعالى بقاء هذا السيد الولي الصالح، المرابط المجاهد في سبيل الله، العالم العامل النَّاصح، العارف بالله المحقق الصُّوفي الربَّاني، أبي عبد الله، سيدي مَحمد بن أحمد العياشي المالكي الزياني، أعزَّ الله أنْصاره، وأجرى على سبيل الحق أقواله وأفعاله وأخباره.

228) «البدور الضاوية»، ص 329 من ج 1، مخطوط لخزانة الناصرية السلاوية

فله مَدَدٌ من هذا النور، وإليه فيه سَنَدٌ عالٍ، ينتهي من أُستاذه المنقطع إلى اللّه، العارف باللّه، الإمامْ أبي محمد، سيدي عبد الله بن حسّون، أفاض الله علينا من بركاته، إلى وارث القُطْبانية والنور الشُّعاع، أبي مُحمد، سيدي عبد العزيز بن عبد الحق الحرَّار، المعروف بالتبّاع، إلى القطب الجامع لأشْتات الكمال، مولانا الشريف، أبي عبد الله، سيدي مَحمد بن سليمان الجزولي، رضي الله عنه وعن آبائه الطاهرين، قد أرشد النَّاس وهداهم به، والدعاء إلى اللّه، وذكَّر العامَّة والخاصَّة على حين غفلة منهم، وما ترك مُصلٍّ إلاَّ بلَّغه.

أمَّا نهي القبائل عن قطع الطَّريق والظُّلم، ففيه صلاح دنياهم ومعاشهم، وأمَّا الآخرة فما شعروا بها ولا عرفوها، ولو عرفوها ما احتاجوا إلى هذا. فالظلم يُخْلي الخيام، ويعمرها بالأيتام، ويقصِّر الآجال، ويُفسد الأعمال، ويُسْحت المال، ويوقع في سخط ذي الإكرام والجلال.

كان المَلاَلِقَةُ إذا نُهُوا عنه وقيل لهم اتركوا الظُّلم وقطع الطَّريق يضحكون ممَّن يقول لهم ذلك ويستخفُّون به.

بالله ياسيدي، أيْن حلتهم اليوم، وهل بقي لهم قبيل يُذكر، فتلك بُيوتهم خاوية بما ظلموا.

وأمَّا أمره إياهم بدفع الأعشار والزَّكوات، فلا يتم الإيمان إلا بذلك، قال الله تعالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، فما بعد الصلاة إلاَّ الزكاة، وببركتها أُمطروا، وعمَّهم الخيرٌ وجبروا، وإلاَّ فأهْل هذه الجهات يَبِسَ زرعهم، واشتعلت نار الفتنة بينهم، فهم في أشدٍّ العذاب، وقد صرفها في مصْرِفها الشرعي المؤكَّد، وأعان بها المجاهدين، فهم أكلوا الأعشار، ودعواْ لأهْلها بالخير والخلف.

وأمَّا دعاؤه النَّاس لأمْر الجهاد، واستنجادهم واجتماعهم عليه، فبه قُهر العدو الكافر، وبه رُدَّ كيده في نحره، مات واللّه الإسلام، قطع العدو الكافر البحر، ودَهِمَ المسلمين في بلادهم، وتخطَّف النَّاس وأسرهم من بين خيامهم، وعَدِمْنا من يعين عليْه، ويبْكي على هذا دهره.

وهذا المجاهد جمع كلمة الإسلام وأمرهم فَمَا وَجَدَ مُعينا، وتحقَّقْناه يقينا. فواللّه لو كان في ملَّة النَّصارى، لَمَلَّكُوهُ رقابهم وأولادهم، وحكَّموه فيها، ولكنَّ دينَهم المعْوج قائم، وديننا المستقيم مات ومات أهله.

وأخبروهم بأنَّ العدوَّ الكافرَ، لا يطرد بهذا ولا بأعظم منه، وناره لا تظن أنَّها تطفَى، هيهات من طال عمره يرى كيف تؤدَّى له الجزية.

ها جـزيرة الأندلس، كـان ابـتـداء قـتـاله أهلهـا من المـائة الرابعـة، وكـانت عليـه هزائم مشهورة، في كتب التواريخ مسطورة، وفي الألسنة مذكورة، حتى ابتدأها بهزيمة العُقاب التي كانت على المسلمين، وتمَّ له في المائة التّاسعة ملكها كلها، على قوة أهلها وكثرة حشودهم وجنودهم، والسلام.

في أواسط ذي القعدة عام ثلاثة وأربعين وألف (أواسط ذي القعدة 1043/ ماي 1633).

خديم المساكين، وغبار نِعال الصّالحين،

محمد بن أبي بكر الدلائي كان الله له آمين.

*   *   *   *

هكذا كان الشيخان الرئيسان مَحمد العياشي بشمال المغرب، ومَحمد الحاج الدلائي بجنوبه يتبادلان الهدايا، وتختلف بينهما الرسل والرسائل، ويُجل أحدهما الآخر، فيعترف الدلائي للعياشي بالرئاسة الجهادية، والقيام بالواجب دفاعاً عن الدين وصيانة حِمَى الإسلام والمسلمين.

ويَقِرُّ العياشي للدلائي بجلالة قدره وصلاحه وولايته، ورفعه لمنار العلم ونشره لرايته، ويتبرَّك بِيُمْن نَقيبته، ويطلب صالح أدْعيته، ويستعين بآرائه، ليحقق النصر في ساحات الوغى على أعدائه.

إلى أن نزلتْ نازلة الأندلسيين الذين آوَوْا إليه واحتموا بحمايته، فتكدَّر صفو هذه المواصلة وانقطعت صلتها بينهما، وظهر ما كان من المنافسة على الرئاسة في الصدور خفيا، وأصبح ماثلا للعيان جليا، ولم يعد أحدهما بصاحبه برًا حفيًا، وهو ما سنراه في المبحث الآتي.

المبحث العاشر

الخلاف بين العياشي والدلائي وأسبابه وما نشأ عنه

لمَّا رجع أبو عبد الله العياشي إلى سلا من غزوة البريجة (الجديدة)، ورأى الحالة السائدة وراء الضفَّة اليُسرى للمصب، امْتلأ قلبه غيظًا وحزنًا، وخاف أن تمتدَّ إليها يد أجنبية فتسيطر عليها، لاسيما والإصبان بالمعمورة يتربَّصون بها الدَّوائر، ويحْلُمون بالانقضاض عليها مهما وجدوا لها سبيلا، وأساطيل الإنجليز تغْدو وتروح على المرسى، وتحاول النزول بها متحيِّنة سنوح الفُرص، ومُنْتَحِلة الأسباب الموجبة لهذا النزول، وقناصلهم وتُجَّارهم بالمدينة، يفتلون في الذروة والغارب لرؤساء الأحزاب بالقصبة والمدينة، وإذا تَمَّ لهم ما أرادوا قُضِيَ على العياشي وعلى سلا، وأصبحت الضفة اليسرى للمصب، معمورة ثانية، تُهدِّد جنوب المغرب، كما تُهدد المعمورة والعرائش شَماله.

ولمجاورتها له، وموْقعها السَّتراتيجي من مركز رئاسته، يتعيَّن عليه أنْ يحافظ عليها ويحميها بكل ما لديْه من حول وقوة :[229]

ولهذه الأسباب والموجبات، أعاد ضَرْبَ نطاق الحصار على القصبة وسلا الجديدة، وعزم على استفراغ جهْده، في مَدِّ نفوذه وحكْمه، على ما وراء النهر من العُمْران، مُعتمداً في ذلك على ما لديْه من فتاوى العلماء والفقهاء في وقته.

ولمَّا رأى الأندلسيون ما نزل بهم مرَّةً ثانية من خصمهم الألد، أبي عبد الله العياشي، فكَّروا، وقدَّروا، ونظروا، وتدبَّروا فيما سيقابلونه به، وما يدْرؤون به في نحره، فاهتدوْا إلى

---

229) دوكاسطري "De Castries"، ص 197 من المجلد III، سلسلة فرنسا.

الاستنجاد بالشيخ أبي عبد الله مَحمد الحاج الدلائي، وقالوا : نسلط هذا البربري، على هذا العربي، وكلاهما بيده طرف مهم من المغرب، وكلاهما مادٌّ عنقه إلى الملك، وكلاهما له جند وقوة، وكلاهما تُخاف شوكته، وتُتَّقى بطشته، فإذا التقيا، واختلطت جيوشهما، واختلفت سيوفهما، وقفنا وراءهما ننظر وننتظر لمن ستكون الدَّبْرة، ونحن مع الغالب إن شاء الله.

وقد تقدَّم لنا أن أندلس المدينة، لمَّا استولوا على القصبة سنة ست وأربعين وألف (1636/1046)، وشرّدوا من كان فيها من الحورناشيروس، آوَتْ طوائف منهم إلى زاوية الدِّلاء، وهي يومئذ في أوْج عزها ومجدها، فأوعز سكان القصبة والمدينة إلى إخوانهم الملتجئين إلى الزَّاوية، باستنهاض هِمَّة رئيسها إبي عبد الله مَحمد الحاج، وترغيبه في محاربة العياشي، واستيلائه على العدوتين، وتخليصهم من حصاره وسيطرته، وصوَّروه فيما قرَّروه له، أنَّه خصم له، وإنْ تغاضى عنه، فسيقضي عليه في يوم من الأيام.

فحرَّكوا منه ما كان ساكنا، وتجلَّى ما كان كامنا، ووجدوا منه سمْعاً صاغيا، وقلْباً واعيا، وطرْفًا نحو ذلك المصب الرقراقي رَانِيًا.

لأنَّه منذ مدة طويلة وهو يتشوَّفُ إلى مرسى على شاطئ المحيط، لِمَا له فيها من المصلحة التجارية والسياسية، وهي الاتصال بالخارج لِجَلب ما يحتاج إليه من العُدَّة والسلاح، وغير ذلك من البضائع التجارية والسِّلَع.

ولعله كان يُدَاري العياشي في أول أمره، لِئَلاَّ ينافسه فيما كان يسعى إليه من الملك والرياسة المطلقة بالمغرب، أوْ لاَ أقَلَّ من أن يكون ساعداً من سواعده، وأحد نُوَّابه الذين لا يخرجون عن أمره.

ولمَّا امتدَّ نفوذه بالجنوب، وأمِنَ من السَّعديين لضُعْفهم عن مقابلته ومواجهته، أراد القضاء على العياشي الْمُنَاوِئ لَهُ، ليصفو له الجُو بالشمال.

ولكن، حيث كان يعلم أنَّه لا تلين له قناته، إتَّخذ قضية الأندلسيين سببا، وَأَرْهَفَ حدَّه، وهيَّأ جُنده.

وهكذا تغيَّرت الأحوال بين الطَّرفين، وأظْلم الجو السياسي في النَّاحيتين، وصار كل من الشيخين يُحْصي هفوات قرينه، ويتتبَّع عثراته، ويلتقط من الصَّادر والوارد زَلاَّته، ومن قبلُ كانت القوارص تسري من بعضهم لبعض.

ثمَّ وجه الدلائي للعياشي رسالة كإنذار، ضمَّنها الشَّفاعة في أهل الأندلس المحتمين بحماه، فلم يقبل العياشي الشفاعة، وقال : "إنَّ الرأي في استيصال شافتهم".[230]

وبذلك خُتمت الرسائل والأقوال بين الفريقين، وتعذَّر كل توسط أوْ مسعى، وأصبحت الحرب على قاب قوسين أوْ أدْنى.

الفصل السادس

عن العدوتين سلا ورباط الفتح
في عهد الدلائيين وما نشأ بين هؤلاء
وبين العيَّاشي من حروب

المبحث الأول

الدلائيون بالعدوتين سلا ورباط الفتح

قدمنا فيما سلف من الفصول تفاصيل ما كان بين أبي عبد الله مَحمد العياشي، وأبي عبد الله مَحمد الحاج الدلائي من الصلة والمواصلة الموصولة المتأصلة على الاحترام والتعظيم المتبادل من الجانبين، المؤسسة قواعده على الرابطة الصوفية، والجامعة التبّاعية الجزولية، والإقْرار لأبي عبد الله العياشي بالقيام بالفريضة الجهادية، الواجبة على كل مسلم، في ذلك العصر المظلم، الذي بسط العدو فيه يده على جل سواحل المغرب.

وأنَّ تلك المواصلة وذلك التعظيم المتبادل، استمَّر إلى أنْ رَدَّ العياشي شفاعة الدلائي في الأندلسيين المحاصرين بالقصبة وسلا الجديدة سنة خمسين وألف (1640/1050).

وانضاف إلى ذلك أسباب أخرى، وأحقاد كانت كامنة في الصدور بسطناها في الفصل السابق.

فكان ذلك كله سبباً في تكدير صفاء الود المتظاهر به بين الرجلين، وانقطاع حبل الصلة بين الجانبين، وكشف حينئذ كلٌّ واحد منهما القِناع عمًّا كان يضمره لصاحبه.

وبمقتضى هذه الموجبات والأسباب الظاهرة والخفية، أجْمع الدلائيون على حرب أبي عبد الله العياشي، ومدّ نفوذهم وحكمهم على عمران مصب أبي رقراق وما اتصل به من شماله.

فأخذ مَحمد الحاج أُهْبَتَهُ، وجنَّدَ جنده، وأرهفَ حَدَّه، وخرج من زاويته يجر وراءه قبائل البربر، ومن لفَّ لفَّهم، أوْ شايعهم، وقصد مصب أبي رقراق في السنة المذكورة، ورفع الحصار عن القصبة وسلا الجديدة، وخلَّص الأندلسيين من نيِّر أبي عبد الله العياشي بعدما ضاقوا به ذرعا، وكان ما سنذكره.

الحرب بين الدلائي والعياشي واستشهاده وبقية أخباره[231]

لمَّا رفع الدلائيون نطاق الحصار عن القصبة وسلا الجديدة، تجاوزت جيوشهم الضفة اليمني للمصب، وتقدمت نحو الغرب، فقابلتها الجيوش العياشية، وكانت بينهما حروب، انتصر في أوَّلها الدلائيون. ثم كانت الهزيمة أخيرًا عليهم، وفتك العياشي بالعرب الذين انضمُّوا إليهم، مع المدعو التَّاغي عدوِّ العياشي فتفرقت الجموع، وتبرأ التَّابع من المتبوع.

وبعد هذا الانتصار، ذهب العياشي إلى طنجة بقصد الجهاد، وبينما هو مشتغل فيه بالانجره، بلغه أن الجيوش الدلائية، انتشرت بأطراف أَزَغَارْ بقبيلة الغرب، وانضم إليهم التَّاغي والدَّخيسي، وأهل حزبهم من الگدَادِرَة وغيرهم، وأنَّهم عازمون على مصادمته، فأراد أن يغض الطَّرْفَ عنهم، ويصرف عنانه عن مواجهتهم، فلم يزل أصحابه يحرضونه حتى برز لمقابلتهم ومقاتلتهم.

ولمَّا التقى الجمعان كانت الدَّبْرة عليه، وقُتِلَ فرسه تحته، فرجع إلى الخلْط، وهم قبيلة من الغرب منازلها جنوب القصر الكبير، مع سفيان وبني مالك، وكان أكثر رؤسائهم في حزب التَّاغي، وعلى رأْي الگدادرة.

وبعد رجوع البربر إلى أوطانهم، بقي أبو عبد الله العياشي عند الخلط أياما، ثم غدروا به فقتلوه بموضع يسمَّى عين القصب بتلك الناحية، واحتزُّوا رأسه وحمله بعضهم إلى سلا، وكأنَّه حمله إلى أهل الأندلس، إذ هم أعداؤه بها.

قال في «نشر المثاني» :

"ودفنت جثته بإزاء روضة أبي الشتاء، وأمَّا القبة المنسوبة إليه بقبيلة أولاد بوعزيز، فالظاهر أنها اتخذت على بعض معاهده التي كان يأوي إليها في عهد إقامته بها في ابتداء أمره، وليس له هناك قبر على الصحيح".

وكان استشهاده رحمه الله، تاسع عشر محرم عام واحد وخمسين وألف (19 محرم 30/1051 أبريل 1641).

---

231) مراجع هذا الفصل : «نزهة الحادي»، ص 241 طبع فاس، و«نشر المثاني»، ص 179 من ج 2، طبع فاس ؛ و«البدور الضاوية»، ص 66 من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا ؛ و«الاستقصا»، ص 137 من ج 2 طبع القاهرة ؛ وص 295 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001. و«تاريخ الرباط» لكايي، ص 221. ودوكاسطري، المجلد الخامس، سلسلة هولاندا، ص 24 من المقدمة، والمجلد الثالث سلسلة فرنسا، ص 198.

وقد ذكر ليڤي بروڤنسال "Lévy Provençal" في كتابه المسمى : «مؤرخو الشرفاء» (Les Historiens des Chorfas) [232] ان روضة الدفن الموجودة الآن أمام زاوية الشيخ أبي الشتاء بفشتالة تُعرف في زمننا هذا بروضة العياشي المشهور في تلك القبيلة بمُجَاهد سلا وأنَّ الحملة العسكرية الفرنسية التي احتلت هذه القبيلة في حدود ستة عشرة وتسعمائة وألف (1327/1916) تحت قيادة الجنرال كورو (Général Gouraud) والكولونيل پَّانْ (Le Colenel Pein) قَنْبَلَتْ مشهد العياشي بالروضة المذكورة فخرقته، فظهر بداخله صندوق مقفل ظَنَّ العسكر والنَّاس أنَّ بداخله كنْزا، ولمَّا فتحوه، وجدوا بداخله رأساً مقطوعا، فعلموا أنه رأس العياشي بقي محفوظاً إلى هذا العهد، فتعجَّبوا منه وردُّوه إلى محله.

ورمزوا لتاريخ وفاته بقولهم "مات زَرْبُ الإسْلام" بإسقاط ألف الوصل.

وكان الذي تولى قتله المسمَّى أحمد بن علي، وقتله الخضر غيلان بعد ذلك لمَّا استولى على مدينة القصر سنة ثلاث وستين وألف (1063/1653).

وأشار أبو عبد الله بن علي الدكالي إلى قضية قتله في رجزه «إتحاف أشراف الملا» بقوله : [233]

ثُمَّ قَضَى قَتْلاً بِعَيْنِ الْقَصَبِ   مَحْمُودَ سِيرَةٍ بِحَالٍ عَجَبِ
غَدَرَهُ الْخُلْطُ فَوَيْلٌ لَهُمُ   بَاعُوا بِهَا خُسْرًا وَ بِيسَ الْمَأْتَمُ
مَاتَ بُعَيْدَ الأَلْفِ وَالْخَمْسِينَا   وَكَمْ كَرَامَةٍ بَدَتْ يَقِينَا

وقد حاول ولده العلامة، أبو محمد، عبد الله الأخذ بثاره من الدلائيين في وقعة وادي الطِّين، فلم يُقَدِّرِ الله له ذلك، كما سيأتي بيانه في فصل التعريف به.

ولمَّا قُتِلَ فرح النَّصارى بمقتله غاية الفرح، وأعطوا البشارة على ذلك، وأقاموا الحفلات والأفراح مدة ثلاثة أيام، وحدَّث رجل كان بالإسكندرية، أنَّه رأى النصارى يفرحون في يوم من الأيام ويطلقون المدافع، فسألهم عن السَّبب، فقالوا : قُتِلَ "سَانْطُو" بالمغرب.

وقال الشيخ أبو سالم العياشي في «رحلته» : [234]

---

232) ص 348.

233) ورقة 43، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

234) ص 47 من ج 2، طبع فاس.

"أخبرني الشيخ أبو عبد الله، محمد الفزاري، أنَّه كان بالمدينة المنورة رجل مغربي من أهل القصر في السنة التي مات فيها الولي الصالح المجاهد سيدي مَحمد العياشي، قال : "فجاءني ذات يوم وقال لي إني رأيت في النَّوم أجِنَّة، ورأيت رجلاً جالساً مقطوع اليد تسيل دمًا"، فقلت له : "الذي يظهر لي من رُؤْياك، أن الرجل الصالح المجاهد الذي كان بسلا قد قُتِلَ"، قال : وبعد ذلك، في آخر العام، قدم الحجاج من المغرب، وأخبرونا بموته رضي الله عنه".

وإلى هذه الرؤيا المنامية، يشير أبو عبد الله، محمد بن علي الدكالي في رجزه بقوله : (235)

وَرِيـــئَ في الْمَـدِينَــةِ الْمُنَــوَّرَةْ   أَنَّ وَفَـــاتَهُ تَبَـــدَّت خَـطِــرَةْ
فَـصَـدَّقَ الْعِـيَـانُ رُؤْيَا الْحَـالِمِ...

ويُحكى أنَّه وُجِد مقيداً بخط يده، أنَّ جملة من قتله من الكُفَّار في غزواته سبعة آلاف وستمائة وسبعون ونيف.

وقد رُثِيَ رحمه الله بقصائد كثيرة، منها قصيدة الأديب البليغ، أبي العباس، أحمد الدغوغي، وهي :(236)

إنْ غَاظَ أَوْ غَاضَ مَنْ أَفَاضَ بَحْرَ نَدَى   فَــجَفَّ روضُ مُنًى كم مَجَّ مِنْهُ نَدَا
فَلْيَحْكِهِ الدَّمْعُ طُوفَانًا طَغَى هُوَ عَنْ   مَنْ لاَ نَظِيــرَ لَهُ فِي غَــرْبِنَا وُجِـدَا
وَأَطْفَــأَ النُّورَ وَالنِّيــرَانَ إِذْ وَقَــدَتْ   مَــا لا انْطِفَــاءَ لَهُ مِنْ لَوْعَــةٍ أَبَدَا
فَــلاَ جُــمُــودَ لِدَمْعٍ لاَ خُــمُــودَ لَهُ   لَمَّــا تَلَظَّى فُــؤَادِي مِنْهُ مُــفْــتَــأَدَا
وَالشَّمْسُ إِنْ طَلَعَتْ أَفْلاَكَهَا عَضَلَتْ   أَحْـلاَكَـهَـا مِنْ تَحَلِّيـهَـا بِبَـدْرِ هُدًى
كَمْ شَادَ، كَمْ سَادَ، كَمْ سَدَّ الثُّغُورَ وَكَمْ   أَدى، وَأذَى عُثَاةَ الْغَيْثِ مُقْتَصِدَا
وَكَمْ أَبَادَ جُـمُـوعَ الرُّومِ قَـهْـراً وَكَمْ   أَرْدَى الْعِــدَا وَعَنِ الإِسْــلاَمِ ذَادَ رَدَا
يَا عَيْنُ وَيْحَكِ سحِّي وَاذْرِ فِي وَكِفِي   وَيَا فُــؤَاد تَمَــادَ وَالْتَــهِبْ كَـمَــدَا

---

235) ورقة 44، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

236) ص 243 من «نزهة الحادي»، طبع فاس.

فَاتَ السُّرُورُ فَسَاءَكَ الشُّرُورُ وَقَدْ ... سَرَّتْ وَفَاةُ نَصِيرِ الْحَقِّ مَنْ عَنَدَا
الْقَائِمُ الصَّائِمُ الْمُحْيِي اللَّيَالِيَ فِي ... رِبَاطِهِ بِالشِّتَا وَالصَّيْفِ مُجْتَهِدَا
الْعَالِمُ الدَّائِمُ الْحُرُوبِ فِي مَدَدِ ... الأَيَّامِ صَوْمًا وَصَوْنًا لِلْعُلَى اعْتَمَدَا
لاَ خَطْبَ أَفْظَعُ مِنْ هَذَا الْمُلِمِّ لَقَدْ ... دَهَى وَأَذْهَلَ حَتَّى لَمْ يَدَعْ جَلَدَا
بَحْرُ الْكَرَامَاتِ رُوحُ الْمَكْرُومَاتِ مَضَى ... غَيْظُ الْحَسُودِ وَحِيدُ الْعَصْرِ مُنْذُ بَدَا
وَقُرَّةُ الْعَيْنِ قَاهِرُ الْبُغَاةِ غَدَا ... وَعِصْمَةُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَعًا لُحِدَا
هَلْ كَانَ إِلاَّ جَنًى لِلْمُجْتَنِي، وردىً ... لِمَنْ غَدَا بِعَدُوِّ الدِّينِ مُعْتَضِدَا
وَمَاجِداً مُنْجِداً لِلْمُهْتَدِي بَائِداً ... لِلْمُعْتَدِي وَهُدًى لِلْمُتَّقِينَ هَدَى
يَرْجُو وَيَرْهَبُ إِذْ يَدْعُو وَيَرْغَبُ أَنْ ... يَدْنُوا مَعَ الشُّهَدَاءِ الصَّفْوَةِ السُّعَدَا
حَتَّى اسْتَجَابَ لَهُ رَبٌّ وَطَابَ لَهُ ... قُرْبٌ وَقَابَلَهُ أَرَبٌ فَكَمْ جَهَدَا
فَوْقَ الْمُنَى نَالَ لَكِنْ حُسْنُ مَقْتَلِهِ ... فِي اللَّهِ يُوتِرُ مِنْ أَمْثَالِهِ عَدَدَا
لِلذَّاتِ وَالنَّفْسِ لَذَّاتٌ لَقَدْ هُجِرَتْ ... مِنْهُ لِوَصْلِ مَعَالِي الْحَقِّ مَدَّ يَدَا
مَا كَانَ أَمْنَعَ تِلْكَ النَّفْسِ لَوْ رَهِبَتْ ... لَكِنَّهَا هَرَبَتْ مِنْ أَنْ تَهَابَ رَدَا
خَلْقٌ لَهُ الْخُلُقُ الصَّعْبُ الأَمَرُّ جَلاَ ... مِنَ الْحِفَاظِ زَكِيِّ النَّفْسِ سَهْلَ نَدَا
أَمَّا إِذَا أَبْنَاءُ عَيَّاشِ الْعُلاَ سَئِمُوا ... عَيْشًا فَلاَ عَاشَ مَوْلُودٌ وَلاَ وُلِدَا
أَجْرَاءَ أَجْرَاءَ لَيْثٍ قَدْ جَرَى دَمُهُ ... بَيْنَ الْكِلاَبِ كَأَنْ لَمْ يَفْتَرِسْ أَسَدَا
لَمْ يُمْسِ قَطُّ وَلَمْ يُصْبِحْ سِوَى قَرِمٍ ... يَلْقَى فَيَلْحِمُ جَمْعًا مِنْ لُيُوثِ عِدَا
كَأَنَّهُ لَمْ يَصِلْ فِي اللَّهِ مُنْتَصِراً ... لِلدِّينِ مُسْتَأْصِلاً بِاللَّهِ مَنْ جَحَدَا
كَأَنَّهُ لَمْ يَقُمْ بِالْحَقِّ مُنْتَقِمًا ... لِلْحَقِّ أَوْ لَمْ يُقِمْ مِنْ مُبْطِلٍ أَوَدَا
مِنْهُ اكْتَسَى جَسَدُ الدِّينِ الْحَيَاةَ إِلَى ... أَنْ رَاحَ فَارْتَاحَ رُوحٌ فَارَقَ الْجَسَدَا
قَدْ جَاءَ فِي نَصٍّ وَحْيٍ لايموت فَتًى ... قَدْ فَازَ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ فِي الشُّهَدَا
مَنِ اسْمُهُ اسْمُ أَبِيهِ وَاسْمُهُ صِفَةٌ ... تُولِيهِمَا صِفَةٌ لِلشَّاكِرِينَ يَدَا
كُلُّ الْمَحَاسِنِ مَوْلاَهَا مُحَمَّدُهَا ... وَكُلُّ وِجْدَانِ حَمْدٍ بَعْدَهُ فُقِدَا
وَكُلُّ حُسْنٍ وَإِحْسَانٍ زَهَا شِيَمًا ... قَوْلاً وَفِعْلاً فَفِي وِجْدَانِهِ وُجِدَا

مَنْ لِّي وَلاَ مَنْ بِإِتْيَــانِ الزَّمَـــانِ بِهِ ... فِي الْمَكْرُمَـاتِ بِمِثْلٍ يَسْتَحِي صَمَدَا
مَنْ لِّي وَلاَ مَنْ بِحَـامٍ لِلثُّـغُـورِ وَمَنْ ... لِّي صَـــاحٍ لاَ مَنْ بِأَنْ أَحْظَى بِهِ أَبَدَا
مَنْ لِّي وَلاَ بِحَـــامٍ بَعْـــدَهُ بَطَلٌ ... لاَ فِي الْوَغَى عَدَدًا يُخْشَى وَلاَ عُدَدَا
نَارُ الْقِـرَى فِي الْقِـرَاعِ مِنْ مُـهَنَّدِهِ ... وَكَمْ قَرَى الضَّيْفَ مِنْ لُّحُومِ مَنْ عَنَدَا
فَـــغَـــادِرُوهُ وَقَـــوْمٌ عَـــزَّرُوهُ لَهُمْ ... شَـيْـئَـانِ حُكْمُـهُـمَـا سِـيَّـانِ فَـاتَّحَـدَا
عَـدَوْا وَلَيْـسُـوا ذَوِي قُـرْبَى وَلاَ أُمَنَا ... كَـانُوا فَـخَـانُوا مَنِ اسْـتَـدْنَاهُمُ بُعَـدَا
لَوْ جُـمْلَةً بِحُـسَامِ الْعَدْلِ صَـبَّحَـهَا ... مَـا بَيَّـتَـتْـهُ جُـمُـوعُ الْجَـوْرِ مُنْفَـرِدَا
لكِنَّهُمْ نَفَـــرٌ ضَلُّوا وَقَـــدْ بَقَـــرُوا ... رَاعِـيَـــهُمْ فَلْيَظَلُّوا يَجْـرَعُونَ سُــدَا
وَلْيَضْحَكُوا اليَوْمَ وَلْيَبْكُوا فَقَدْ ذَهِلُوا ... عَنْ عِلْمِ مَـا جَـهِلُوا مِـمَّـا يَرَوْنَ غَـدَا
وَتِلْكَ أَيَّامُـــهَـــا دُنْيَـــا مُـــدَاوَلَةٌ ... مَنْ بَاتَ يَفْـرَحُ سَـاعَتَهُ غَـدَاةَ غَـدَا
وَعَـيْـشُكُم ءَالَ عَـيَّـاشٍ فَـلاَ تَهِنُوا ... بَعْدَ ابْنِ أَحْمَدَ أَنْ يُذَمَّ فَقَدْ حُمِدَا
إِنْ غَـابَ مَـرْءَاهُ فَـالآثَارُ شَـاهِدَةٌ ... مَشْهُودَةٌ فَلْيَبُؤْ بِالرَّغْمِ مَنْ جَحَدَا
فِي الْخُلْدِ حَـيَّـاهُ رِضْـوَانٌ وَهَنَّأَهُ ... مِن مَّـالِكِ الْمُلْكِ بِالرِّضْـوَانِ إِذْ وَفَـدَا
يَا أَوْلِيَـاءَ قَـتِيلِ الظُّلْمِ حَـسْـبُكُمُ ... سُلْطَانُ نَصْرٍ بِنَصِّ الذِّكْرِ قَدْ شَهِدَا
مَا غَاضَ بَلْ فَاضَ بَحْرٌ بَعْدَمَا انْفَجَرَتْ ... مِنْ لُجِّهِ فَجَرَتْ صِفْوًا بُحُورُ نَدَى
بَلْ فِي ابْنِهِ وَبَنِيــهِ الأُسْـدِ ثُمَّ لَهُمْ ... بِمَنْ سَـيَـمْـلأُ عَـيْنًا بِالمُنَى وَيَدَا
وَيَنْتَـهِي الأَمْـرُ مِنْكُمْ فِي الأَنَامِ لِمَـا ... عُـقْـبَـاهُ تُرْضَى وَتُرْدِي أَوْلِيَـا وَعِـدَا
فَلِي بِبَـالِيَ فِي تَصْـدِيقِــهِ وَلَكُمْ ... مَا فِيهِمَا مِنْ مُّصِيبٍ جِدٌّ وَاجْتَهَدَا
كَمَـالُ فَوْزٍ بِحُسْنِ الْحُسْنَيْنِ مَـعًـا ... وَاللَّهُ حَسْبِي كَفَانِي صِدْقِيَ الْفَنَدَا

ثنـاء النـاس علـى
أبي عبد الله العياشي

بيت العيَّاشيين، بيت علم وفضل وخير وصلاح، ولرجاله أعمال مشكورة، ومواقف في الجهاد مشهورة، وغدوات وروحات في الذَّب عن الدين وحماية الوطن مذكورة.

وقد اتفق مؤرخو وكُتّاب وفقهاء العصر الذي عاش فيه العياشي على الثناء عليه، والتّنويه به والإشادة بذكره، وأنّه كان مخلصاً في عمله، رافعاً لراية الإسلام، ذائداً عن حوضه أن يتهدّم، وعن سياجه أن يُخْرق أوْ يُثْلم.

وقد تقدم لنا في فصل المواصلة بينه وبين الدلائيين، ما كان يصفه ويدعو له به شيخ الزّاوية الأكبر، أبو بكر، وما كان يخاطبه به من التبجيل والتعظيم والاحترام ولده الشيخ أبو عبد الله، مُحمد، وولده الأمير، أبو عبد الله مَحمد الحاج، قبل أن تشتعل نار الحرب بينهما، لأسباب سياسية، ظاهرها، رده شفاعته في الأندلسيين، وباطنها تشوّفه لبسط سُلطانه على العدوتين، وانفراده بالرئاسة في شمال المغرب وجنوبه، بلا مُراجع ولا مُنازع.

قال أبو الربيع سليمان الحوّات في «البدور الضّاوية»، لمّا تكلّم على المادِّين أعناقهم للملك، حين انْهار صرح الدّولة السعدية :[237]

"كان أبو عبد الله، مَحمد العياشي، أجملهم قصدا، وأنفعهم رشدا، إذْ كان أكثر توجهاته مصروفاً إلى الجهاد، والاستعداد له ما استطاع من حشر الأجناد، حتى كان له الفتح المبين الذي لم يكن لغيره من الملوك منذ سنين. فَمنْ ثَمَّ كان شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، أبو عبد اللّه، محمد بن أبي بكر المذكور، كثيراً ما يَحْمِدُ سعيه المشكور، ويذيع محاسنه، ويمده بدعائه بما يُقَوِّي ظواهره وبواطنه". اهـ.

وممن أثنى عليه، وأشاد بذكره، الشيخ الإمام، أبو عبد اللّه، مَحمد بن أحمد ميارة الفاسي في فاتحة شرحه الصغير على «المرشد المعين»، لمّا وفد عليه زائراً مع شرفاء فاس وفقهائها، مستغيثين به لمّا وقعت الحرب بين أهل فاس، وبين الحياينة وشراكة، بإغراء أحمد بن زيدان، كما في «نشر المثاني»[238] و«الاستقصا»[239].

قال الشيخ ميارة :[240]

"قد مَنَّ عليَّ ذو العظمة والجلال، الكريم المتفضل المتعال، بزيارة الولي الصالح، العالِمْ العامل السابح، قطب الزّمان، وكهْف الأمان، المجاهد في سبيل رب العالمين، المُرَابط في

237) ص 187 من ج 1، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

238) ص 177 من ج 1، طبع فاس.

239) ص 134 من ج 3 ، طبع القاهرة. و ص 292 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

240) ص 3، طبع تونس.

الثغور مُدَّةَ عُمره لحياطة المسلمين، ذي الكرامات الشهيرة العديدة، والفتوحات العظيمة الحميدة، من لا شبيه له في عصره وما قَرُبَ منه ولا نظير، إلاَّ الله الذي تفضل به علينا، وأقرَّه بمنِّه وجُوده بيْن أظْهُرنا، فهو كما قيل :

حَلَفَ الزَّمَانُ لَيَاتِيَنَّ بِمِثْلِهِ حَنِثَتْ يَمِينُكَ يَازَمَانُ فَكَفِّرِ

البركة القدوة، المُجاب الدَّعوة، أبي عبد الله، سيدي مَحمد بن أحمد العياشي، أبقى الله بركته، وعظَّم حرمته، وبلَّغه من خير الدارين أمنيته، وأطال للمسلمين عمره وقواه، وجعل الجنّه نُزُلَه ومثواه، مع جماعة من أعيان السادة من الشرفاء والفقهاء القادة، وذلك أواسط الحجة الحرام متم سبعة وأربعين وألف (أواسط ذي الججة 1047/ أواخر أبريل 1638)، وهو - رزقنا الله رضاه - بثغر سلا.

فاجْتمعْتُ إذ ذاك بنجله السَّعيد، الموفق الرشيد، العالم الهمام، حجَّة الله في الإسلام، ذي العقْل الرَّاجح والهَدْي الواضح، عُهُود من الآباء توارثها الأبناء، المُتواضع الخاشع، صاحب القلم البارع، سيدي وسندي، أبي مُحمد عبد الله، سلَّمه الله من كل مكروه ووقاه.

ثم ذكر المؤلف أنَّه حضَّه على اختصار شرحه الكبير...

وزاد في «نشر المثاني»(241) أنَّ أبا عبد الله العياشي، قدم فاساً ونظر في أمرها، وغزا عرب الحياينة مراراً وأثْخَنَ فيهم حتى خضعوا لطاعته... اهـ.

وممَّن أثنى عليه، الشيخ الإمام، أبو عبد الله، مَحمد بن ناصر - رحمه الله -، في رسالة كتب بها إلى المجاهد الخضر غيلان يقول فيها :(242)

"من عبد الله تعالى، مَحمد بن ناصر، كان الله له، إلى الفارس القائم بنصر دين الله، البائع نفسه في إعلاء كلمة الله، الخضر غيلان، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاَّ هو.

أمَّا بعد،

فإني أحبك في الله، وإنَّ لساني لهجٌ بالتَّضرع إلى الله تعالى في نصرك على الكافرين منذ خرج الإنجليز.

والباعث على إعلامك بهذا أمْران :

241) ص 179 من ج 1، طبع فاس.

242) «رسائل الشيخ ابن ناصر»، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

– أحدهما قوله صلى الله عليه وسلم : إذا أحَبَّ أحدكم أخاه فَلْيُعْلِمْهُ.

– وثانيهما، استنهاض همَّتك للجد فيما أنت بصدده من الجهاد، وعدم الالتفات إلى ما تورَّط فيه غيرك من الاغترار بالفاني، فأنت ما دمت في هذا على طريق صالحة، وعِبَادُ الله الصالحون كلهم معك.

ورحم اللّه صاحبك الذي أسَّسَ لك هذه الطريق الصالحة وربَّاك عليها، أعني أمير المومنين، نور البلاد المغربية، سيدي محمد العياشي، جزاه اللّه عنا وإياك ومن سائر المسلمين خيرا، فهو سيدنا وسيد غيرنا الذي ندين الله بمحبته، ويجب علينا وعلى المسلمين تعظيمه وتعظيم من هو منه بسبيل" .

ثم قال الشيخ ابن ناصر – رحمه الله – بعد كلام ما نصه :

"ونَسْتَوْصي بئال سيدنا وسيد المسلمين في زمانه كافة خَيْرًا، سيدي مَحمد العياشي فهو عزك، وبتعظيمهم قِوَامُ أمْرك، وهذا من نصيحتي إليْك التي هي من نتيجة محبَّتنا لك، فعاملهم بالوفاء، ولا تواخذهم بالجفاء..."(243)

ولمَّا عرف به في «الصفْوة»، وصفه بقوله :

"الفقيه المجاهد، الولي الصالح، أبو عبد الله، مَحمد بن أحمد العياشي الزياني المشهور.. ثم قال : ... مع الدِّين المتين، والورع التَّام، وقلة الكلام، ومداومة الصيام..." اهـ.

وقال أكنسوس في «الجيش العَرَمْرَمِ» :(244)

"أمَّا سيدي مَحمد العياشي المعروف بالمجاهد، فإنَّ رضى العلماء بفعله، وثناءهم عليه، ووصفهُم له بأنه مجاهد، كالشيخ عبد الواحد بن عاشر وغيره، الظاهر من ذلك أنَّه لا يحْسَبُ من الثوار النازعين اليد من طاعة من ثبتت إمامته وولايته وبيعته، بذليل ما ذكره العلامة السيد الصغير اليَفْرني في كتابه «الصفْوة»..." وهو ما تقدم.

وممَّن أثنى عليه، وحبذ قيامه بالجهاد في سبيل الله، العلامة، أبو عبد الله، محمد العربي الفاسي، وإليه يشير في جوابه عن الأسئلة المرفوعة إليه فيما يتعلق باسترجاع المدن والحصون المغربية التي استولى العدو عليها، وهل يتوقف وجوب الجهاد على وجود الإمام أمْ لاَ.

243) «رسائل الشيخ ابن ناصر»، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

244) ص 41، طبع فاس.

"بأن وُجُوب الجهاد، لا يتوقف على وجود الإمام، وأنَّ القائم به يُضَاعف أجْره، وينشر في الملإ ذكره، فيكون للواحد أجر سبعين، ويماثل فاعل الخير الدال عليْه والمعين"[245].

وقد خصَّه الشيخ عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن الحسن أمَلاَّق بكتاب جمع فيه أخباره وقيامه بالجهاد، سمَّاه : "الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد"، وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 91 د.

وعلى كل حال، فقد عاش العياشي عيشة جهاد ومثابرة ومصابرة ومرابطة في الثغور المغربية حماية لها، ودفاعاً عن كيانها، ولذلك أثنى عليه الجم الغفير من الأعيان والأعلام، الذين يُقتدى بهم ويُهتدى بهديهم من أئمة الإسلام.

ومدحه العلامة الإمام الشَّهير، أبو محمد، عبد الواحد بن عاشر بقوله :

يَا حَـــادِيَ الأظْعَـــانِ فِي الرِّيَاشِ   أبْلِغْ سَـلاَمِي فَـخْـرَنَا الْعَـيَّـاشِي
مَـنْ نُورُهُ بَـدَا وَفَـــضْلُـهُ غَـــدَا   تَـحْـدُو بِهِ الرُّكْـبَـانُ وَالْمَـوَاشِي
طَوْدُ الْهُدَى عَيْنُ النَّدَى سَيْفُ الرَّدَى   فَــرِيدُ وَقْـتِـهِ الإمَـامُ الْخَـاشِي
لِلَّهِ سَـــيْفٌ صَــارِمٌ وَقَـــاصِمٌ   ظَهْـرَ الْعِـدَا كَـبِـيـرَهُمْ وَالنَّاشِي
كَمْ غُـصَّـةٍ جَـرَّعَـهَـا صُـدُورَهُمْ   جَـانٍ بِهَـا وَاقِـفُـهُمْ وَالْمَـاشِي
يَتْـرُكُـهُمْ عِنْدَ اللِّقَـا رَهْنَ الشَّـقَـا   صَـرْعَى عَلَى الأرْضِ كَمَـا الْكِبَـاشِ
تَهْنِيكُمُ حَــيَـاتُكُم يَا مُـسْلِمِـينْ   مَـا عَـاشَ فِيكُمْ سَيِّدِي الْعَيَّاشِي
أنَـامَ لاَ شَـكَّ الأنَـامَ الْـكُـلَّ فِــي   ظِلِّ الأمَـــانِ لَيِّنَ الْفِـــرَاشِ
يَا عَـاذِلِي فِي حُـبِّـهِ عَـذْلَكَ دَعْ   وَلاَ تُحَـــدِّثْنِي حَـــدِيثَ الْوَاشِي
إنِّي امْـرُؤٌ بِالْحُـسْنِ مَـفْـتُـونٌ وَعَنْ   جَـمِـــيعِ لَوْمِ لاَئِمِيَّ عَـــاشِي
هَـدِيَّـتِـي إلَـى الْـكِـرَامِ أبْـرَزَتْ   سَـلاَمَـهَـا لِلسَّـامِـعِـينَ فَـاشِي

ومدحه أيضاً الأديب الكاتب، أبو عبد الله، مُحمد بن أحمد المكلاتي، فقال :

حَـدِيثُ الْعُـلاَ عَنْكُمْ يَسِـيرُ بِهِ الرَّكْبُ   وَيَنْقُلُهُ فِي صُـحْـبِـهِ الشَّرْقُ وَالْغَـرْبُ
وَحُـــبُّكُمُ فَــرْضٌ عَلَى كُلِّ مُـسْلِمٍ   تُنَالُ بِهِ الزُّلْفَى مِنَ اللهِ وَالْقُـــرْبُ
فَـأنْتَ رَفِـيعٌ مِنْ أُصُـولٍ رَفِـيـعَـةٍ   نُجُومُ الدَّيَاجِي فِي الأنَامِ لَهَا سِرْبُ

---

245) «النوازل الكبرى» للوزاني، ص 5 من ج 3، طبع فاس.

سَــمِيُّ رَسُــولِ اللَّه نَاصِــرُ دِينِهِ تَجَلَّى بِكُمْ عَنْ أُفْـقِـهِ الشَّكُّ وَالرَّيْبُ
وَلَمْ أَرَ بَحْـرًا جَـاوَزَ الْبَـحْـرَ قَـبْلَكُمْ تَجُـودُ لِمُـسْـتَـجْـدٍ أَنَامِلُهُ السُّـحْبُ
وَمَا يَسْتَوِي البَحْرانِ عِنْدِي فَإِنَّ ذا أُجَـاجٌ لَعَـمْـرِي فِي المَذَاقِ وَذَا عَذْبُ

إتصافه بالتّقوى وما نُسب له من الكرامات

علمنا ممَّا سبق في الفصل السابق اتفاق أهل عصر أبي عبد الله العياشي على الثناء عليه ومدحه لقيامه بفريضة الجهاد والذّب عن حمى الثغور المغربية، وما جاورها من القبائل والبلاد. وسنرى في هذا الفصل ما وصفوه به من التقوى والاعتماد على الله، واستجابة الدعوة، فكان ما دعا الله في شيء إلاّ استُجيب له، شُوهد ذلك مرارا.

ومن أدعيته المحفوظة :(246)

"اللّهم إنِّي أسألك باسمك السريع المجيب، الذي خزنت فيه فواتح رحمتك، و خواتم إرادتك، وسرعة إجابتك، يا سريع لمن قصده، يا قريب لمن سأله، يا مجيب من دعاه، أسرع لي بقضاء حاجتي وبلوغ إرادتي، يا سميع، يا مجيب، يا سريع، يا قريب، ءامين، يا رب العالمين."

وقد أثبتوا له – رحمه الله – كرامات، منها :(247)

– أنَّه لمَّا توجه غازياً البريجة (الجديدة) سنة تسع وأربعين وألف (1049/1639)، ذكروا له أنَّ وادي ام الربيع في نهاية المد والامتلاء، فلم ينته عن ذلك، وسار حتى بلغه عند مشرع أبي الأعوان، فوجده ممتلئاً جدا، لا يكاد يدخله أحد إلاَّ غَرِقَ، فقال لأصحابه وسائر من معه : "توكَّلوا على الله واجتهدوا في الدعاء".

ثم اقتحم الوادي بفرسه، وتبعه الناس، فعبروا جميعا، ولم يتأذ منهم أحد، وكان الماء يصل الى ركب خيلهم، مع أن مدَّ ذلك الوادي حين امتلائه لا يُدرك له قعر عند الناس،

---

246) «نزهة الحادي»، ص 241.

247) «نزهة الحادي»، ص 240.

كما هو شهير، و هذه كرامة عظيمة وقعت له رضى الله عنه، وكان القاضي ابو بكر الغنّامي حاضراً لها وشاهدا.

ولم يقع مثل هذا فيما علَمناه، إلاّ للصحابة رضي الله عنهم، مثل ما وقع لسعد بن أبي وقّاص في عبوره دجلة لفتح المدائن، و مثل ما وقع للعلاء بن الحضرمي في فتح بلاد فارس، وذلك فضل الله يوتيه من يشاء.

قالوا : و من كراماته، أنّه كان يعلم الناس بالغنيمة قبل وجودها.

وممّا عدُّوه من كراماته رحمه الله[248]

– أنّه لمّا وقعت غزوة الحلق الكبرى، قدمت الوفود عليه بقصد التهنئة بما منحه الله من الظفر، فحض الناس على استيصال شافة من بقي بالحلق من النصارى، و عيّر العرب بترك الكفار في بلادهم، وكان ممّن حضر من العرب جماعة من الخلط وبني مالك، والتاغي، والدخيسي، وغيرهم، فقال لهم : "والله، والله، والله، إنْ لم تأخذكم النصارى، فتأخذكم البربر". فقالوا : "يا سيدي، كيف يكون هذا وأنت فينا"؟ فقال لهم : "أسكتوا، أنتم الذين تقطعون رأسي". فكان كذلك، فقد قطعوا رأسه، وجاء الدلائيون والبربر واستولوا عليهم.

وممّا نُسب له من الكرامات، كما في «النزهة» وغيرها،[249] أنهم لمّا احتزّوا رأسه وحملوه، سمعوه ليلا وهو يقرأ القرآن جهارا، حتى علمه جميع من حضر، فردوه الى مكانه، وتاب بسببه جماعة من الناس.

ذرية أبي عبد الله العياشي و أتباعه

خلّف أبو عبد الله العياشي – رحمه الله – ذرية صالحة[250] أشهرها، العلامة أبو محمد، عبد الله العياشي، و هو المنوه به في شرح ميارة الصغير على «المرشد المعين» [251].

248) «نزهة الحادي»، ص 239، طبع فاس، و«الاستقصا»، ص 131 من ج 3، طبع القاهرة. وص 282 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

249) «نزهة الحادي»، ص 242، و«الاستقصا»، ص 138 من ج 3، طبع القاهرة. وص 295 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

250) «صفوة من انتشر»، للافراني، ص 160، طبع فاس.

251) ص 3، طبع القاهرة.

وكان علاّمة مشاركاً متضلّعاً من علم الحديث، ريّانَ من الأدب.

أخذ عن أبيه، وعن ابن عاشر، والشيخ ميارة، وأبي زيد الفاسي وغيرهم، وأجازوه الإجازة العامة.

وكان عضد أبيه ويده اليمني، شهد المشاهد العظمى معه، وضرب بسهم مصيب في الجهاد، وتصدى للأخذ بثأره بصدق توجهه الى الله، ومحاربته لعدوه.

فأمّا توجهه الى الله، فإنه نظم أرجوزة توسّل إلى الله فيها بأهل بدر – رضي الله عنهم – في هلاك الذين تمالئوا على قتل أبيه، فلم تمض إلاّ مدة يسيرة حتى دارت عليهم دائرة السوء، ولم ينج منهم أحد.

وأمّا محاربته لعدوه، فقد قال الزياني في «الروضة السليمانية» :[252]

"إنّ أبا عبد الله مَحمد الحاج الدلاءي، دخل بلاد الغرب بعد قتل أبي عبد الله العياشي، فلقيه ولده سيدي عبد الله المذكور بجموع الغرب بوادي الطين، فوقعت الهزيمة عليه، ووقع قتال ونهب في القبائل، واستبيحت حللهم ومواشيهم، وكان ذلك في أوائل ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وألف (أوائل ربيع الأول 1053/ يونيه 1643)، كما في «البدور الضاوية» [253].

ومن شعره رحمه الله مخاطبا والده في بعض زياراته له :

أَتَيْنَا إِلَيْكَ وَ أَنْفُسُنَا ... تَكَادُ مِنَ الْخَوْفِ تَذُوبْ
وَ لَمْ نَدْرِ أَيْنَ هَوَاكَ الذي ... تُحِبُّ فَتَنْحُو إِلَيْهِ الْقُلُوبْ
أَقَمْنَا فَخِفْنَا وَ جِئْنَا فَخِفْنَا ... فَمِنْ خَوْفِنَا قَدْ دَهَتْنَا خُطُوبْ
فَهَا نَحْنُ مِنْ خَوْفِنَا مِنْكَ حَيْرَى ... وَ هَا نَحْنُ مِنْ خَوْفِنَا مِنْكَ شِيبْ

و ذكر اليفرني في «الصفوة»[254] نقلاً عن حفيده العلامة، قاضي القضاة، أبي عبد الله، مُحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد العياشي، أن جده أبا محمد، عبد الله المذكور،

252) ورقة 43، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

253) ورقة 66 من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

254) ص 161، طبع فاس.

كان قد أصابه مرض أعيا الأطباء علاجه، فلما طال عليه أمره، رغب منهم أن يحملوه الى ضريح الشيخ أبي العباس، سيدي الحاج أحمد بن عاشر بسلا، فلما وقف على الضريح انشد ارتجالا :

أَقُــولُ لِدَائِي إِذْ تَفَــاقَمَ أَمْـرُهُ ... وَعَـزَّ الدَّوَا مِنْ كُلِّ مَنْ هُوَ نَاصِـرِي
أَلاَ فَــانْصَـرِفْ بِاللّٰهِ عَنِّيَ إِنَّنِي ... أَنَا الْيَوْمَ جَارٌ لِلْوَلِـيِّ ابْنِ عَاشِـرِ

قال : فكأنما نشط من عقال، وانقشع عنه سحاب ذلك الضرر في الحال.

ومن شعره مادحا شيخه العلامة الامام أبَا محمد، عبد الواحد بن عاشر، ومقرظا نظمه : «المرشد المعين، على الضروري من علوم الدين» قوله :[255]

عَلَيْكَ إِذا رُمْتَ الْهُـدَى وَطَرِيقَـةً ... وَبِالدِّينِ لِلْمَـوْلَى الْكَرِيمِ تَدِينُ
بِحِفْظِ لِّنَظْمٍ كَالْجُمَانِ فُصُولُهُ ... وَمَا هُوَ إِلاَّ مُرْشِـدٌ وَمُـعِينُ
كَأَنَّ الْمَعَانِي تَحْتَ أَلْفَاظِهِ وَقَدْ ... بَدَتْ سَلْسَبِيلاً بِالرِّيَاضِ مَعِينُ
وَكَيْفَ وَقَدْ أَبْدَاهُ فكر ابْنِ عَاشِرٍ ... إِمَـامِ هُدًى لِلْمُـشْكِلاَتِ يَبِينُ
تَضَلَّـعَ مِنْ كُلِّ الْـعُلُـومِ فَمَالَهُ ... شَبِيـهٌ وَلاَ فِي الْمَعْلُوَّاتِ قَرِينُ
وَأَبْرَزَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ بِفَهْمِهِ ... فَـهَـاهِيَ أَبْكَارٌ لَّدَيْهِ وَعُونُ
وَأَعْمَلَ فِكْراً سَالِماً فِي جَمِيعِهَا ... فَذَلَّ لَهُ صَعْبٌ وَلاَنَ حَرُونُ
وَأُنْهِي إِلَى قُطْبِ الْوُجُوهِ تَحِيَّةً ... عَلَيْنَا بِهَا كُلُّ الأُمُورِ تَهُونُ

ومن شعره أيضاً ما خاطب به القاضي ابن سودة، وضمّنه السؤال عن حكم مسألة فقهية، قوله :[256]

أَسَيِّدَنَا مُفْتِي الأَنَامِ وَمَنْ بِهِ ... تُبَيَّنُ حَقّاً مُشْكِلاَتُ الْمَسَائِلِ
أَجِبْ هَلْ يَجُوزُ لِلْمُصَلِّي نَوَافِلاً ... لِنِسْيَانِهِ تَعْدَادُهَا بِالأَنَامِلِ
وَيَعْقِدُهَا حَالَ الرُّكُوعِ وَسَاجِداً ... أَوِ الْمَنْعُ فِيهَا كُلُّهَا لِلتَّشَاغُلِ
وَأَزْكَى سَلاَمٍ أَوَّلاً ثُمَّ آخِراً ... يَنُوبُ عَنِ الْعَبْدِ الْبَعِيدِ الْمَنَازِلِ

255) «شرح ميارة الكبير»، ص 4، طبع القاهرة.

256) «صفوة من انتشر»، ص 160، طبع فاس.

فأجابه بقوله :

جَـوَابُكَ يَا سِـرَّ السُّـرَاةِ الأَفَـاضِلِ ... سَلِيلَ الرِّضَى الْقَرْمِ الشَّهِيدِ الْحَلاَحِلِ
إِبَاحَـةُ حِـسْـبَـانِ الْمُـصَلِّي لِنَفْلِـهِ ... لِتَـجْـوِيزِهِـمْ مَـا خَفَّ مِنْ كُلِّ شَـاغِلِ
وَمَا خَصَّصُوا نَفْلاً عَنِ الْفَرْضِ بِالَّذِي ... رَأَوْهُ يَسِـيـراً لاَ يَضُـرُّ لِعَـامِلِ
وَتَحْـوِيلِ خَـاتَامٍ الذي خَـافَ سَـهْـوَهُ ... عَنِ الْعَـدِ للخـمي وفي نَصٍّ شَـامِلِ
وَكَـانَ لَهُمْ حَـمْلُ الرَّسُـولِ أُمَـامَـةً ... وَهُوَ إِمَـامُ النَّاسِ أَقْـوَى الدَّلاَئِلِ
وَأَزْكَى سَـلاَمٍ ضَـاعَ بِالْمِسْكِ نَشْرُهُ ... يُرَدَّدُ مِنْ عَـبْـدٍ مُـسُـولٍ لِسَـائِلِ

وكانت وفاته ليلة عرفة سنة ثلاث وسبعين وألف (ليلة عرفة 1073/7 يوليوز 1663).

ودُفن بجوار الولي الأشهر الشيخ أبي سلهامة من بلاد الغرب، وبُنيت عليه قبة صغيرة، رحمه الله تعالى.

وقد خلَّف أبو محمد، عبد الله العياشي ذرية صالحة، كان منها علماء وفضلاء منهم :

حفيده، قاضي القضاة المتقدم الذكر، وغيره.

وانقرضت هذه الذرية في زمننا هذا.

وأخبرني الثقة المسنُّون الذين أدركناهم بمدينة سلا، أنَّ بعض حفدته، كانوا ياتون كل سنة من قبيلة الغرب، لأخذ ما تجمَّع من كراء سانية جدهم التي كانت بها داره ومركز حكومته إلى أوائل هذا القرن الهجري، وبعد ذلك انقرضوا وانقطعوا واستولى عليها المخزن، وبقي يتصرف فيها، حسبما تقدم بيان ذلك مستوفى فيما سبق.

وكما خلَّف أبو عبد الله العياشي ذرية صالحة، فقد خلَّف أتباعاً ظهرت عليهم بركته، وَتجلَّى فيهم سره، منهم :

– الشيخ أبو الوفاء، إسماعيل بن سعيد الدكالي القاسمي، صاحب الزاوية المشهورة ببلاد دكالة بزاوية سيدي إسماعيل.[257] ومنهم :

(257) «الاستقصا»، ص 138 من ج 3، طبع القاهرة. وص 299 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

المبحث الثاني

الحالة بالعدوتين السلاوية والرباطية، بعد استيلاء الدلائيين عليهما[260].

إخراج الدلائيين لسائر الأندلسيين من القصبة لتذبذب موقفهم من حكمهم بها

لمَّا استُشهد أبو عبد الله العياشي في الحروب التي تقدم لنا وصفها مع الدلائيين، وصفا لهم الجو، ولم يعد يتراءى لهم خياله بالعدوتين، استولوا عليهما وأدمجوا القصبة والرباط في سلا، تحت نفوذ وإشراف القائد سعيد أجنوي، لأنهم لم تكن لهم ثقة كاملة في الأندلسيين، فسكنت الأحوال سكوناً نسبيا، واستأنف القراصنة ورؤساء البحر أعمالهم القرصانية بجد ونشاط نحو ثلاث سنوات.

ويلاحظ هنا، أنه مع وجود الدلائيين وجيوشهم بالقصبة، فإنَّ أندلسها لم يقطعوا صلة الوصل بينهم وبين سلاطين مراكش السعديين سرًّيا، للاستعانة بجيوشهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

والدليل عليه، أننا نجد قائدي القصبة وسلا الجديدة – وهي الرباط – يخاطبان رأساً الحكومة الهولاندية بكتاب وجَّهاه إليها من طرفهما فقط في شهر أكتوبر سنة ثلاث وأربعين و ستمائة وألف (أكتوبر 1643/ شعبان 1053)، لا يذكران فيه إلاَّ سلطان مراكش، وينوِّهان باسمه وسيادته، وأنه إمبراطور المغرب، وملك فاس، والسوس، والسودان، ولا يذكران اسم مَحمد الحاج، مع أنه الأمير عليهم، المباشر لأمورهم وشؤونهم.

---

260) «تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 221.

وفي التاريخ نفسه، صدر منهما كتاب آخر رسمي للحكومة الهولاندية أيضا، باسم مَحمد الحاج الدلائي والإعلان بطاعته، وأنه سيدهم، وحامي حمى الإسلام، وناصره والمدافع عنه، ولا شك أنَّ هذا الكتاب كتب بأمره، واطَّلع عليه.

وحيث كان مَحمد الحاج لا يجهل هذه الوصلة السرية، ويحذر عواقبها، فقد أغرى الأندلسيين الحورناشيروس الذين كانوا أُخرجوا من القصبة ونزلوا بالمدينة على حصار القصبة سنة اربع واربعين وستمائة والف (1054/1644).

وأعانهم على ذلك إعانة كبيرة، وأوقف سفينة من سفنه قي مصب النهر في البحر، لتمنع المحاصَرين من وصول أي مدد من الأقوات إليهم، وحاول السلطان السعدي والأتراك الذين معه، أنْ يرسلوا إليها إعانة مادية فلم يستطيعوا، ولم تستطع القصبة المقاومة واستسلمت.

وحينئذ أخرج الدلائي منها سائر الأندلسيين الذين كانوا لا زالوا بها، ولم يترك فيها إلاَّ جنده لِئَلاَّ تستعصي عليه مرة أخرى.

ولاية الأمير عبد الله بن مَحمد الحاج الدلائي على العدوتين سلا ورباط الفتح

لمَّا أخرج مَحمد الحاج الدلائي سائر الأندلسيين من القصبة وأنزل بها جنده، ولَّى على العدوتين: السلاوية والرباطية، ولده أبا مُحمد عبد الله، وجعل مقره بالقصبة، وصار يُسمى من ذلك الحين أمير سلا، وبهذا الإسم يُعرف في المصادر الأروبية.

وقد كان – رحمه الله – كما عرَّف به أبو الربيع الحوَّات في «البدور الضاوية»[261]: "عالماً مدرسا، وقوراً حليما، جواداً فياضاً شيخاً كريما، فارساً شجاعا، بطلاً مِقداما، جميل الوجه والأقوال، حسن السيرة والأفعال..."

وبمجرد استقراره بولايته الجديدة، نظَّم ديوانه الخاص، وأسند كتابته لمصافيه ومواليه وصاحبه، العلامة الأديب، أبي مروان، عبد الملك التاجموعتي، وجل ما كان يصدر عنه وباسمه من الرسائل والمكاتب الرسمية والسياسية الموجهة لملوك أوربًا وأمرائها، والأدبية والإخوانية المخاطب بها والده وإخوانه وأبناء عمه من إنشائه.

261) ص 214 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وكان مجلسه بالقصبة مجلس علم وأدب ومذاكرة ومناظرة، يحضره الأدباء، ويتردد إليه الأعلام الوافدون على حضرته، وتروج بينهم مسائل علمية، ومحاورات أدبية، تناقلها الأدباء والكُتاب المعاصرون له.

كما كان ينوب عن والده في الأحكام، وفصل معضلات الخصام، إلاَّ أنه لم يكن يقيم في القصبة إقامة مستمرة، مخافة أن يحدث فيها من معه في البربر فتناً أو اضطراباً يخل بالأمن الذي جاء ليحافظ على وجوده وإستقراره، واستمراره في ذلك المركز المهم بين سكانه الذين لا تلين قناتهم، ولا تومن غائلتهم.

وفي غيبته، كان يقوم مقامه في الإمارة، عامل سلا القديمة، الأمين الحاج سعيد أجنوي الذي سياتي التعريف به.

وقال كواندرو "Coindreau" في كتابه : «القراصنة السلاويون» :[262]

«في سنة أربع وأربعين وستمائة وألف (1054/1644)، إنحصرت السيادة في العمران الذي على ضفتي مصب أبي رقراق في يد عبد الله الدلائي، وسار يُطْلق عليه أمير سلا، وتضاءلت تحت إمارته قوة القراصنة واستبدادهم بالأمر، واستقلالهم بإدارة الأعمال، ولم يبق لما كان يُسَمَّى بـ«الجمهورية السلاوية" سوى الإسم، وليس لأعضاء ديوانها إلا نفوذ صوري، لأن مُقرَّراتهم صارت لا تُنفَّذ ولا يجري العمل بها إلاَّ بعد مصادقته عليها باسم والده، وبذلك تعزَّز نفوذ الدلائيين بالعدوتين، وكان مُطْلقاً شاملاً لسائر ناحيتيهما سنة إحدى وخمسين وستمائة وألف (1061/1651) هـ».

ولكن هذا الأمير كان يوصف بالمماطلة في إنجاز القضايا وتطويل أمرها بعدم البَتِّ فيها، والإفراط في التَّأنِّي والإبْطاء في تنفيذ الأوامر الصادرة إليه، والشكايات والمطالب المرفوعة إلى ديوانه، والزيادة في تَدَبُّرها وتَدْبيرها، حتى أنَّ والده كتب له مرة كتاباً في شأن من الشئون، فأبطأ في الجواب عنه، فوجَّه له رسالة أخرى ليستعجله في الجواب ويَلُومه على الإفراط في التأنِّي، ويبين له ما ينشأ عن عدم الجواب عن المسائل من الصعوبات والمشاكل التي يتعذر في بعض الأحيان حلها، أو تفوت بفوات وقتها.

ومع هذا كله، فإن ولاية الأمير عبد الله على العدوتين، كما أيَّدت سلطة الدلائيين فيهما، وأجْرت بهما أحكامهم، وقُوبلت بالأمتثال أوامرهم، فقد كانت سبباً في نَيْل ما كان يصبو إليه أميرهم مَحمد الحاج من وجود مَنْفَذ بحري فيما وضع يده عليه، ودَخل تحت إمْرته من المغرب، يتَّصل به مع الخارج ليجلب منه ما يتوقف عليه من السلاح والبارود والبضائع،

262) ص 46.

ويُصْدر إليه ما يريد إصداره من منتوجات المغرب الفلاحية والصناعية، وامْتَلأ بيت ماله بمداخيل المرسى، وأعشار الغنائم التي كانت تأتي بها سفن القراصنة وأموال فداء الأسرى، جماعات وأفرادا، على يد الجمعيات والهيئات المكلفة بذلك في كلّ دولة من الدول التي كان لها أسْرى بالعدوتين.[263].

ثم سكنت الأحوال، واستقرَّ الأمن نسبياً بالعدوتين مدة ست عشرة سنة، من سنة أربع وأربعين وستمائة وألف (1054/1644) إلى سنة ستين وستمائة وألف (1070/1660)، إلاَّ ما كان من بعض الاضطراب الفاشل بضعة أشهر من سنة خمسين وستمائة وألف (1060/1650) لَمَّا نشبت الحرب بين المولى مَحمد الشريف والدلائيين بفاس وطردهم منها، فأثَّر مفعول هذا الطَّرد في العدوتين، ومدَّ سكانُهما أعينهم إلى الشريف الأمير الجديد المذكور.

ولكن هذا الاضطراب أو التمرُّد، قوبل من الدلائيين بالقمع الشديد، فلم يلبث أن سكن سنة إحدى وخمسين وستمائة وألف (1061/1651)، ورجعت المياه إلى مجاريها.

ولم تشارك في هذا الاضطراب القصبة، وأعانت بمدافعها في قمع المتمردين عن الطاعة، وقنبلت سفينة من سفنهم فعطَّلَتْها.

التعريف بالقائد الرئيس
الحاج سعيد أجَنّوي

يقول المؤرخون الفرنسيون :[264]

إنَّ أُسرة هذا القائد أصلها من مدينة جَنْوَة الإيطالية، وإنه أسلم وكان من رؤساء البحر وأُسرَ بِمَرْسيلْيَا، وأقام بها مدة طويلة عومل أثناءها معاملة حسنة، ولذلك كان له عطف على الأسْرى والتُّجار الفرنسيين الذين كانوا بالعدوتين.

وكانت له مواقف معلومة، وحروب متعددة، مع قراصنة الأجانب الذين كانوا كثيراً ما يُغيرون على الشواطئ السلاوية الرباطية، وخصوصاً في زمن رئاسة الدلائيين عليهما وعلى قصبتهما.

---

263) «تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 222.

264) دوكاسطري "De Castries"، ص 34، حاشية رقم 1 من المجلد الخامس، سلسلة هولاندا، وص 639، حاشية رقم 1 من المجلد الثالث، سلسلة فرنسا.

وتوجد عدة معاهدات سياسية وتجارية، واتفاقات دولية لفداء الأسرى الذين كانوا بالعدوتين بعلامته.

وكان للأمير أبي محمد الدلائي فيه ثقة كبرى، واعتبار واحترام تام، ولذلك كان ينوب عنه في غيبته، وكانت ولايته تشمل سلا الجديدة، التي هي رباط الفتح والقصبة، وله الكلمة العليا والنفوذ التام في جميعهما، وكان سائر قواد وموظفي عمران المصب الرقراقي تحت نظره، كما هو الواقع اليوم في نفوذ عامل الرباط، فإن عمالته تشمل العدوتين معا، وسائر الموظفين بهما تحت نظره.

وبقي في ولايته إلى أن أدركته منيته في خامس ذي الحجة عام خمسة وستين وألف (05 ذي الحجة 7/1065 أكتوبر 1655).

وقد انقرضت أسرة آل أجَنْوِي اليوم من سلا، وخلَّفوا بها أحباساً كثيرة على المسجد الأعظم.

ولهم مقبرة خاصَّة بهم تضمُّ رُفَاتهم وأجداثهم بروضة الشيخ أبي العباس أحمد بن عاشر، والبقاء والدَّوام لله.

ويوجد بسلا درب يُنْسب إلى هذه الأسرة، يقال له درب أجَنْوِي، وهو أسفل عقبة المسجد الأعظم، قبالة درب العلو، وكان به سكناه وسكنى أسرته.

وبه كان يسكن عامل سلا، عبد الحق فَنِّيش، وبعده عاملها الأشقر، ومن آثاره الباقية بهذا الدَّرْب، المسجد والكُتَّاب الذي به، المُعَدُّ لتعليم الصبيان القرآن. وسكن به في العهد الأخير، عاملها أبو عبد الله السيد الحاج مُحمد بنسعيد السلاوي، وولده - عاملها من بعده - أبو مُحمد، عبد الله بنسعيد، وما زالت أسرتهم ساكنة به إلى الآن.

وينبغي التنبيه هنا إلى أنه لاصلة بين أسرة آل أجنوي السلاويين، وأسرة الشيخ العلامة المحدث الصوفي ابن النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي. لأن هذا الشيخ أيضا كان والده هو الذي قدم من جنوة في حدود التسعين وثمانمائة (1485/890)، وأسلم وتزوج يهودية رومية أسلمت أيضا، فخرج منهما الشيخ المذكور، ولذلك قيل فيه : إنه خرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشَّاربين.

وكانت ولادته بفاس، سنة اثنتي عشرة وتسعمائة (1506/912) ووفاته بها ليلة الخميس ثالث عشر أوْ رابع عشر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وتسعمائة (13 ربيع الأول 8/991 أبريل 1583)، ولم يخلف ولداً ذكرا، وإنما خلَّف ابنة واحدة[265].

265) «سلوة الأنفاس»، ص 262 من ج 2، طبع فاس.

وعليه، فالجَنْوِيُون السلاويون هم غير هذا الشيخ ولا اتصال في النسب بينهم وبينه وإنْ تقارب عصرهما، واتحد اسمهما.

انسحاب الأمير عبد الله الدلائي من العدوتين واستيلاء الخضر غيلان عليهما

علمنا مما تقدم من أخبار الدلائيين، أن الأندلسيين بالقصبة والرباط إنَّما استسلموا لهم ظاهرا، ولم يقطعوا صلتهم مع سلاطين مراكش باطنا، وأنَّ مَحمد الحاج، كان لا يجهل هذه الصلة، ولم تكن له فيهم ثقة كاملة، ولذلك أغْرى الحُورْنَاشيرُوسْ الذين أخرجوا من القصبة سنة أربع وخمسين وألف (1644/1054) على حصارها وأعانهم على ذلك، ولمَّا استسلمت أخرج من كان فيها من الأندلسيين وأنْزَلَ بها جنده وبربره، وولَّى عليهما وعلى العدوتين وَلَدَهُ الأمير عبد الله، وبولايته سكنت الأحوال ظاهرا، وبقيت الأحقاد كامنة في الصدور إلى أن ظهر المولى مَحمد بن الشريف على الدلائيين بفاس سنة ستين وألف (1650/1060) فمدُّوا إليه أعينهم، وتشوَّفوا إليه فقابلهم الدلائيون بالقمع الشديد، والضغط والتشريد، فاستسلموا وخضعوا للقوة الماحقة المُحيقة بهم، والمسيطرة عليهم، فسكنوا واستسلموا، وفي قلوبهم مرض عدة سنين، إلى أن أمكنتهم الفرصة بانتقاض بعض الأطراف على الدلائيين، واسْتفحال أمْرِ عدوهم الخضر غيلان بالغرب، وتحريضه لهم بواسطة دعاته ودعايته وبعوثه السرية، فجاهروا حينئذ بالعصيان علانية، ونبذوا الطاعة التي كانوا يتظاهرون بها مظهرين سئامة سلطتهم، وجاحدين استمرار سلطانهم عليهم، لأنَّه جرَّدهم من سائر امتيازاتهم، وحرية تصرف ديوانهم، قائلين إنهم كانوا غلاظاً شداداً عليهم، مخالفين لهم في الأخلاق والعوائد، وشتان ما بين النشأة المطبوعة بطابع الحضارة الأندلسية الإسبانية والتربية الوطنية البربرية، إلى غير ذلك...

وبمقتضى هذه العوامل الظاهرة والخفية، انفجر بركان الثورة والمخالفة على حين غفلة من الأمير المقيم بالقصبة في السابع والعشرين من جمادى الأولى عام سبعين وألف (27 جمادى الأولى 10/1070 أبريل 1660)(266).

266) «تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 222-223، ودوكاسطري "De Castries"، ص 32 من مقدمة المجلد الخامس، سلسلة هولاندا.

وأقسم الأندلسيون اليمين على متابعة الحرب إلى الموت دون الخضوع إلى سلطة البربر أهل زاوية الدلاء، وضربوا نطاق الحصار على القصبة، وفيها الأمير عبد الله بن مَحمد الحاج، وأعانهم على هذا الحصار سكّان سلا القديمة بمدافعهم المصوَّبة نحو القصبة فساء حال المحاصرين، وطالت مدة الحصار شهوراً عديدة، واستصرخ الأمير عبد الله والده محمد الحاج، فجاء لإغاثته يجُرُّ وراءه جيشاً قيل إنَّه بلغ ثمانين ألف مقاتل، واصطدم بجيش الرئيس الخضر غيلان، وكانت بينهما معركة وادي بوحريرة[267] المشهورة، فكانت الدبرة عليهم في شهر صفر سنة إحدى وسبعين وألف (صفر 1071/ أكتوبر 1660) وأدبرت الأيام عنهم بناحية الغرب كلها.

وقد نفخت هذه الهزيمة روحاً جديدة في عبد القادر صرُّون قائد مدينة الرباط وعميل غيلان بها، وهو الذي كان يدبِّر أمر الحصار، وساءت الحالة بالقصبة وكادت أن تستسلم، لولا أنه قُتِلَ غيلة في شهر شوال سنة إحدى وسبعين وألف (شوال 1071/ يونيه 1661)، فاستمر القتال، وقاومت القصبة مقاومة شديدة بعد اغتيال صرُّون، لأن أعراب النواحي المجاورة تمكنوا من إمدادهم بالأقوات وما يحتاجون إليه، ووصلتهم إمدادات أُخرى بواسطة خمس سفن قرصانية وردت من الجزائر.

ثم وردت على الأمير عبد الله الدلائي إعانة من البرتغال والإسبان والإنجليز بواسطة أساطيلهم المترددة على السواحل الأطلنطيقية، ما بين المعمورة ومرسى العدوتين، فانتعش بها حاله، ولكنها لم تفرج عنه الأزمة.

ولمَّا طال أمدُ الحصار، وأيسَ من الخلاص والانتصار، جرت بينه وبين حاكم سبتة الماركيز لوس أركوس "Los Arcos" مخابرة ليفك عنه نطاق الحصار، ويعينه حتى يصل لناحية من النواحي البربرية التي يشملها حكم الزَّاوية الدّلائية، وفي مقابلة ذلك يسلم القصبة لملك إسبانيا فيليب الرابع.

ولمَّا اطَّلع غيلان على هذه المخابرة تعرَّض فيها وأحبط مساعيها، لمخالفتها للمحالفة التي كانت بينهما.

وزعم مويط "Mouette"[268] أنَّ الأمير المحاصَر عبد الله لمَّا خسر في مخابرته مع الإصبان، حوَّل وجهه نحو الإنجليز، وعرض عليهم تسليم القصبة لهم في مقابلة فك نطاق

267) وادي بوحريرة قرب مولاي بوسلهام، ومنه تستمد المرجة الزرقاء.

268) «أخبار الأسر»، ص 14 .... "Relation de captivité".

الحصار عنه، وإعطائه ألف قنطار من البارود وألف مكحلة، ليستعين بذلك والده على الاستمرار في محاربة غيلان، وكان هذا العرض بواسطة قبطان سفينة إنجليزية جاءت لتموين القصبة المحاصرة، وأنَّ هذا القبطان أنزل بها مائتي جندي من بحَّارته، فأقاموا بها أربعة أو خمسة أيام، ثم رجعوا إلى سفينتهم لأنهم لم يجدوا الأقوات الكافية لتموينهم، وذهب القبطان إلى إنجلترا للمخابرة مع الملك في ذلك.

وفي شهر دجنبر سنة ثلاث وستين وستمائة وألف (دجنبر 1663/ جمادى الثانية 1074) ورد الأمر من ملك أنجلترا إلى حاكم طنجة طيفيوط "Téviot" بأن لا يستلم القصبة من الأمير ابن أبي بكر إلاَّ على شروط معقولة، وأنْ يضع بها حامية تحميها، وأنْ يحتاط غاية الاحتياط حتَّى لا تسقط في يد غيلان.

ولكن بعد ذلك ندم الإنجليز على عدم إعانته بتمكينه من القصبة لَمَّا عقدوا معاهدة حِلْفِيَة معه سنة أربع وستين وستمائة وألف (1664/1075) تُخَوِّلُهُمْ وضع اليد عليها بكل سهولة.

ثم إنَّ أهل العدوتين اتَّفقوا مع أسير طَلْيَاني كان عندهم على وضع الغام تحت القصبة وهدمها على الأمير عبد الله ومن معه فيها إذا لم يستسلم، ولما اطَّلَعَ على ذلك فَرَّ ناجياً بنفسه... انتهى ما قيل ونقل.

هذا ويُلاَحظ هنا أن موقع القصبة من المصب وهيمنتها على العمران المتكون على ضفتيه : اليمنى واليسرى، وجَّهَ إليها أنظار الدول الأوربية الاستعمارية في ذلك العصر من البرتغال والإصبان والإنجليز، فكانوا يتبارَوْنَ في انتحال الأسباب لأخذها وضمِّها إلى ممتلكاتهم ومستعمراتهم بشواطئ المغرب قبل استيلاء الدلائيين عليها، بل منذ نزل الأندلسيون بها، لاسيما وقد كانت حالة الأندلسيين بها، والحروب المتوالية بينهم، وضعف الحكومة المركزية، واختلال نظام الحكم بالمغرب تساعد على ذلك.

كما يلاحظ أيضاً أنَّ ما زعمه مُوِيطْ "Mouette" فيه نظر، لأن الأمير عبد الله انسحب من القصبة قبل هذا التاريخ.

وعليه، فإنْ سلَّمْنا وقوع هذه المخابرة المزعومة مع الإنجليز كما ذكرها مُوِيْط "Mouette"، فلعلَّها كانت مع الأندلسيين أنفسهم، بعد انسحاب الأمير عبد الله وانْضِمَامِهِمْ إلى غيلان، ودخولهم تحت حكمه.

وعلي كل حال، فإنَّ الأمير عبد الله، لمَّا ضاق به الأمر وطال أمر الحصار وأيِسَ من منجد أو مُعين من الداخل والخارج، فَرَّ ناجياً بنفسه في سفينة إنجليزية، في شوال سنة إحدى وسبعين وألف (شوال 1071/ يونيه 1661)، بعدما طال حصاره مدة ثمانية عشرة شهرا، فأنزلته السفينة المذكورة بساحل من سواحل تامسنا، ومنها التحق بزاويتهم، وانْضمَّ إلى والده وأهله وعشيرته، فكان معهم إلى أنْ حلَّتْ بهم النَّكبة العظمى، فارتحل في جُمْلتهم إلى فاس، ثم إلى تلمسان، ومنها إلى الحجاز، وبعد رجوعه منه، وجد أسرته رجعت إلى فاس، فأقام بتلمسان إلى أن توفي بها أوائل سنة سبع وثمانين وألف (1676/1087)[269].

وقبل مغادرته للقصبة، سلَّم مقاليد الحكم بالعدوتين للعامل الحاج أحمد أجَنْوِي، ولعلَّه ولد سعيد المتقدم الذكر.

وبمجرد انسحابه من القصبة في الظروف العصيبة التي ذكرناها وجَّه الرئيس غيلان أحد إخوته، الرئيس الطاهر إلى الرباط مصحوباً بثلاثمائة فارس، وأمره بالمخابرة مع رجال الدِّيوان الأندلسي الذي تم تنصيبه بمجرد انسحاب الأمير عبد الله، اختياراً منه لطريق السلم على طريق الحرب.

وبعد المذاكرة ودرس الحالة المتجلية بالعدوتين تَمَّ الصلح بين الفريقين في الخامس عشر والسادس عشر من أبريل سنة أربع وستين وستمائة وألف (16-15 أبريل 1664/ 13-12 رمضان 1074) على اقتسام مداخيل المرسى بين المدن الثلاث القائمة على مصب النهر، وهي : القصبة، وسلا ورباط الفتح.

وفي ثالث مايو من السنة المذكورة (شوال)، أعْلَنَ حامية القصبة وسكانها انضمامهم نهائيا إلى الخضر غيلان، ودُخولهم تحت حمايته، وأطلقوا مدافعهم علامة على ذلك اظهارا للفرح بما تَمَّ بينهم وبين الرايس المذكور.

وبعد ذلك بخمسة أشهر، جاء غيلان بجيوشه إلى الرباط وعَسْكَرَ تحت أسوارها، وفي ثامن أكتوبر من السنة نفسها (08 أكتوبر 1664/ربيع الأول 1075)، استقبله بالقصبة العامل

---

269) «البدور الضاوية»، ص 220 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

الحاج أجَنْوِي، وسلَّم له مفاتيحها، ولم يَرْضَ الجَمُّ الغفير من الناس هذا التسليم على هذه الكيفية، وفي مقابلة ذلك أقَرَّهُ غيلان على ولايته.

وفي أواخر مارس سنة خمس وستين وستمائة وألف (أواخر مارس 1665/ رمضان 1075) ورد على القصبة أخ آخر للرئيس غيلان، واتَّخذ تدابير جديدة لتَرْسيخ وتَثْبيت سلطة أخيه وإحْكامها، ومن جملتها طرد من كان لا زال بها من الجنود القدماء منذ سنة ثمان

وثلاثين وستمائة وألف (1048/1638)، وطرد القائد الحاج أحمد أجَنْوِي معهم، وعقب هذا الطَّرد مات فجأة في شهر أبريل سنة خمس وستين وستمائة وألف (أبريل 1665/ شوال 1075)، ويقال إنَّه مات مسموما.

وانتخب الأندلسيون بإجماعِ فِرَقِهِمْ، عبد القادر مُورِينُو رئيسًا عليهم وولياً بالقصبة ومدينة الرباط، وعيَّن في الحين الحاج محمد فَنِّيش قائداً على مدينة سلا بالعدوة الأخرى، ولكن الاضطراب والغليان لم يَسْكُنْ واسْتمرَّ مدة.

وفي شهر غشت سنة خمس وستين وستمائة وألف (غشت 1665/ محرم 1076) عزل مورينو وفنيش من ولايتهما وخلفهما : عبد القادر رُوكْسُو، وأحد أولاد عبد القادر صَرُّونْ، وكانا مخلصين لغَيْلان.

وفي شهر يونيه سنة ست وستين وستمائة وألف (يونيه 1666/ ذو الحجة 1076) التقى غيلان بجيوشه مع المولى الرشيد بعد احتلاله لفاس ببلاد الهبط، وكان بقصر كتامة، فانهزم الخضر غيلان، وتفرَّقت جموعه، والتجأ إلى أصيلا، وبقي بها إلى أن تَخَلَّى عنها، وركب البحر ناجياً بنفسه إلى الجزائر سنة تسع وستين وستمائة وألف (1079/1669)، كما تقدَّم.

وبمجرد انهزام غيلان وفراره أمام المولى الرشيد ببلاد الهَبْط، دانت له القبائل والبلاد التي كان مستولياً عليها ودخلت في طاعته القصبة والعدوتان بدون قتال، وردَّ عبد القادر مورينو ومحمد فنيش، إلى ولايتهما، الأول بالرباط والقصبة، والثاني بسلا.[270]

---

270) «تاريخ الرباط» لكايي "Caillé"، ص 223.

وباستيلاء المولى الرشيد على مصب أبي رقراق، وبسطه حكمه على ضفتيه : اليمنى واليسرى، انتهت حروب وفتن كانت قائمة دائمة مسترسلة منذ نزول الأندلسيين بالقصبة في عهد زيدان السعدي، أوائل سنة تسع عشرة وألف (1610/1019)، إلى سنة ست وسبعين وألف (1665/1076)، أي نحو سبع وخمسين سنة، وتمّ القضاء على الحكم الانفصالي الذي كان قائماً بالعدوتين، سواء سمّاه الأوربيون "جمهورية"، أوْ سمّيناه استقلالاً دَاخليا، أوْ حكماً فوضويا، أوْ غير ذلك من الأسماء والصفات، لعدم الوازع، وضعف الدّولة وانحلالها، وعدم قدرتها على السيطرة على جميع أقاليم المملكة.

تعليق وتعقيب

يتحتم هنا إدراج تعليق أو تعقيب على ما مر بنا من الأخبار التي تناقلها المؤرخون المغاربة والأوربيون، المتعلقة بهؤلاء المهاجرين الأندلسيين، إلى العدوتين، وفيها ما يقتضي أنه كان فيهم الصالحون ودون ذلك، كما هو الشأن في الناس في كل زمان ومكان.

ويوخذ من مجموعها أنهم حافظوا على اللغة التي جاؤوا بها، والثقافة والعوائد والأخلاق التي تربوا عليها، ونشؤوا فيها، وهي مخالفة للغة وعوائد وأخلاق أهل البلاد التي هاجروا إليها، لأنها مأخوذة أو مقلّد فيها عوائد وأخلاق الإصبان الذين ساكنوهم وأقاموا بين أظهرهم، وتحت حكمهم وسلطانهم، ما يزيد على مائة عام، بعد سقوط غرناطة، ومحو كلمة الإسلام جملة وتفصيلاً من الدّيار الأندلسية، بل وقبل ذلك باعتبار السابق واللاحق من استيلاء العدوّ على معاقل الإسلام وحصونه وقواعده بالأندلس، كقرطبة وإشبيلية وغيرهما، واخضاع المسلمين بها للمراقبة الصارمة، وتطبيق قوانين المحاكم التفتيشية، بحيث كان القابض على دينه كالقابض على الجمر.

وكان لهم دائماً اعتزاز بما جاؤوا به من تلك العوائد والأخلاق، ويعتبرون أنفسهم أرقى من أولئك الذين نزلوا بين أظهرهم حضارة وتفكيراً وقدرة على الإنتاج في الصناعة والفلاحة وغير ذلك.

قال طيراس (Terasse) في تاريخه :[271] «كانت مدينة الرباط وقصبتها، لمّا نزل بها الأندلسيون المهاجرون، تكتسي صبغة أندلسية أوربية...).

---

271) ص 221 من ج 2.

وهذا هو الشيء الذي جرأهم على الاعتماد على أنفسهم، والانعزال في أحكامهم، والاستقلال في إدارة شؤونهم، فأسسوا حكومة انفصالية على حسب ما كان عند الحروناشيروس (Hornacheros) منهم في البلاد التي هاجروا منها.

ونشأ عن هذه الفكرة والحكومة التمسك بتلك الثقافة والعوائد والأخلاق المباينة للنظام الاجتماعي بالمغرب خلاف وتظلّم وانتقاذ لوُلاة الأمور بالبلاد، وحنين إلى الوطن الأول، والعهد السابق ؛ وربما ترتب على ذلك صدور أقوال وأفعال تمس بالدين وتخالف قواعده العامّة، فعظم عليهم النكير، وردد الفقهاء في نوازلهم وفتاواهم المبنية على مقتضى ما رفع من الأسئلة إليهم، صدى تلك الأقوال والأفعال، وذلك النكير، وأباحوا محاربتهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ويعمهم ما يعمّ غيرهم من سكان البلاد التي آووْا إليها، وتبوأوها دارا وقرارا، وسالت بمقتضى هذا الخلاف، وهذه الفتاوى دماء، واستُبيحت أموال، وقيلت أقوال.

ولعل ما قيل، أو نقل من تلك الأقوال والأفعال، إنما كانت تصدر من دهماء العامّة، إذا مسّها ظلم أو ضيم، أو ظنت أنها مضطهدة، مهضومة الحقوق في ذلك العصر الذي كان الحكم فيه مضطرباً بالمغرب.

ومما زاد في الطين بلّة، وفي الطنبور نغمة، أن المغرب كان في ذلك العهد تجتاحه تيارات الفتن والفوضى، وقيام الثوار المادّين أعناقهم إلى الملك والرياسة في شماله وجنوبه، لضعف الدولة السعدية عن مقاومتهم منذ وفاة المنصور، ودامت هذه الحالة إلى أن استقرت الدولة الشريفة العلوية في الملك ما يزيد على سبعين سنة، درج أثناءها الجيل المهاجر من الأندلس، ونشأ بعدها جيل جديد بين أبناء البلاد التي وُلد بها، وشبّ على عوائدها وأخلاقها الدينية والوطنية والقومية، وأصبح جزءاً منهم لا يتجزأ، واندمج فيهم ناسيا أو جاهلا ما كان عليه سلفه من قبل. وذلك بتأثير البيئة والثقافة والحكم الجامعِ الموحّدِ العامل على أنّ الأمة المغربية واحدة، لا عنصرية فيها ولا امتياز في الحقوق والواجبات، لأن المغربي لا يعرف إلا المغرب، ولا يعترف إلاّ بوطنية المغرب، ولا يتمسك إلاّ بحبل حكومة المغرب، ولا يرضى بسيادة إلاّ سيادة المغرب.

وقد أخرج الله من ضِئْضِئِ هؤلاء المهاجرين عيوناً وأعياناً وأعلاماً، رفعوا بالعُدوتين علم الدين والتقوى، وتمسّكوا بحبلها المتين الأقوى، وبرزوا في ميادين الرياسة، وطلعوا

نجوما لامعة في آفاق السياسة، فحفظ التاريخ أسماءهم، وسجل في سجلاّته أعمالهم، رحم الله أصولهم، وزكّى فروعهم. آمين.

ولنصرف عنان القلم الآن إلى الكلام على القرصنة السلاوية الرباطية، وما تَقَلَّبَتْ فيه من الأطوار، بتقلب الأزمنة والأعصار، وتعاقب الدول والملوك والرؤساء والثوار، وما شخصوه على مسرح هذا المصب الرقراقي من الأدوار، منذ نشأتها إلى انقراضها في عهد السلطان المولى عبد الرحمان، رحمه الله تعالى.

انتهى

ويليه الجزء الثالث، ويبتدئ بالتعريف

بالقرصنة وأنواعها.

مُلحق

فيه صور للمآثر التاريخية
الواردة في الجزء الثاني

لوحة رقم 1

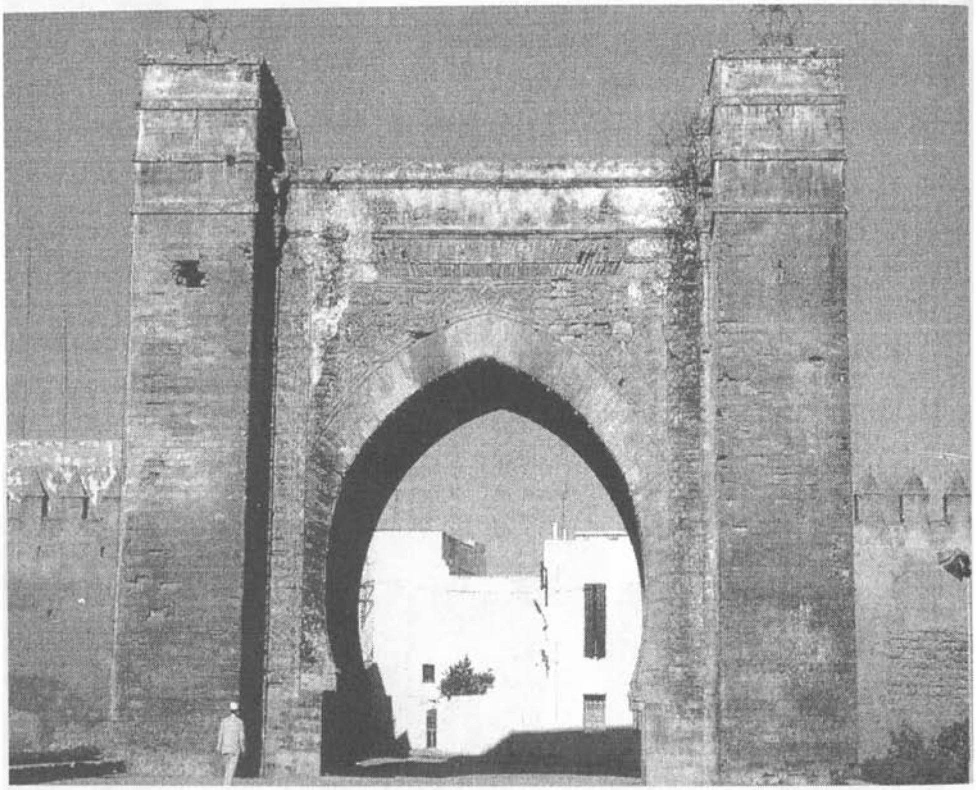

باب المريسة سلا

صورة من كتاب «تاريخ الرباط»

تأليف جاك كايي

لوحة رقم 2

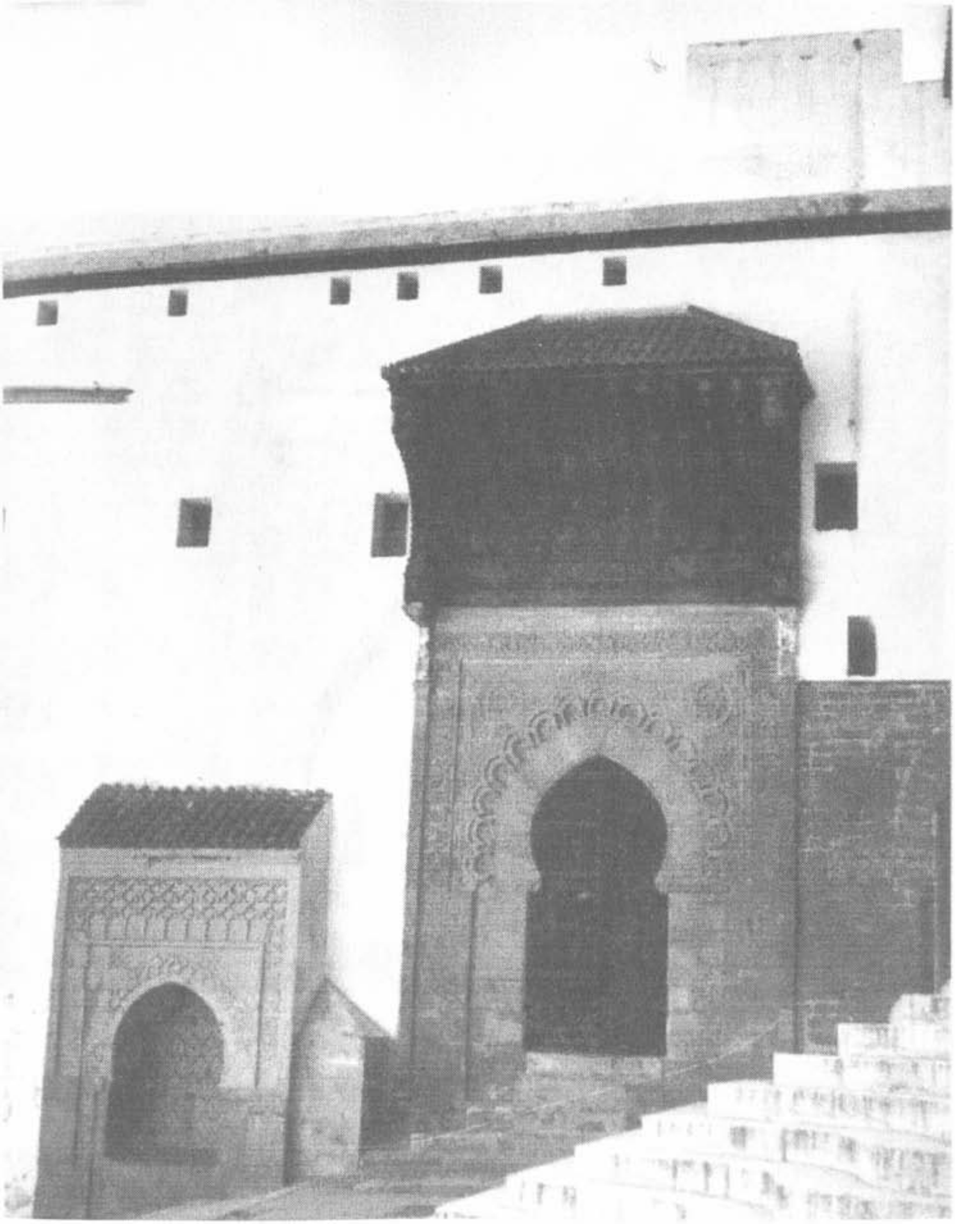

مدرسة أبي الحسن المريني – أمام المسجد الأعظم بسلا

صورة من كتاب «تاريخ الرباط»

تأليف جاك كايي

لوحة رقم 3

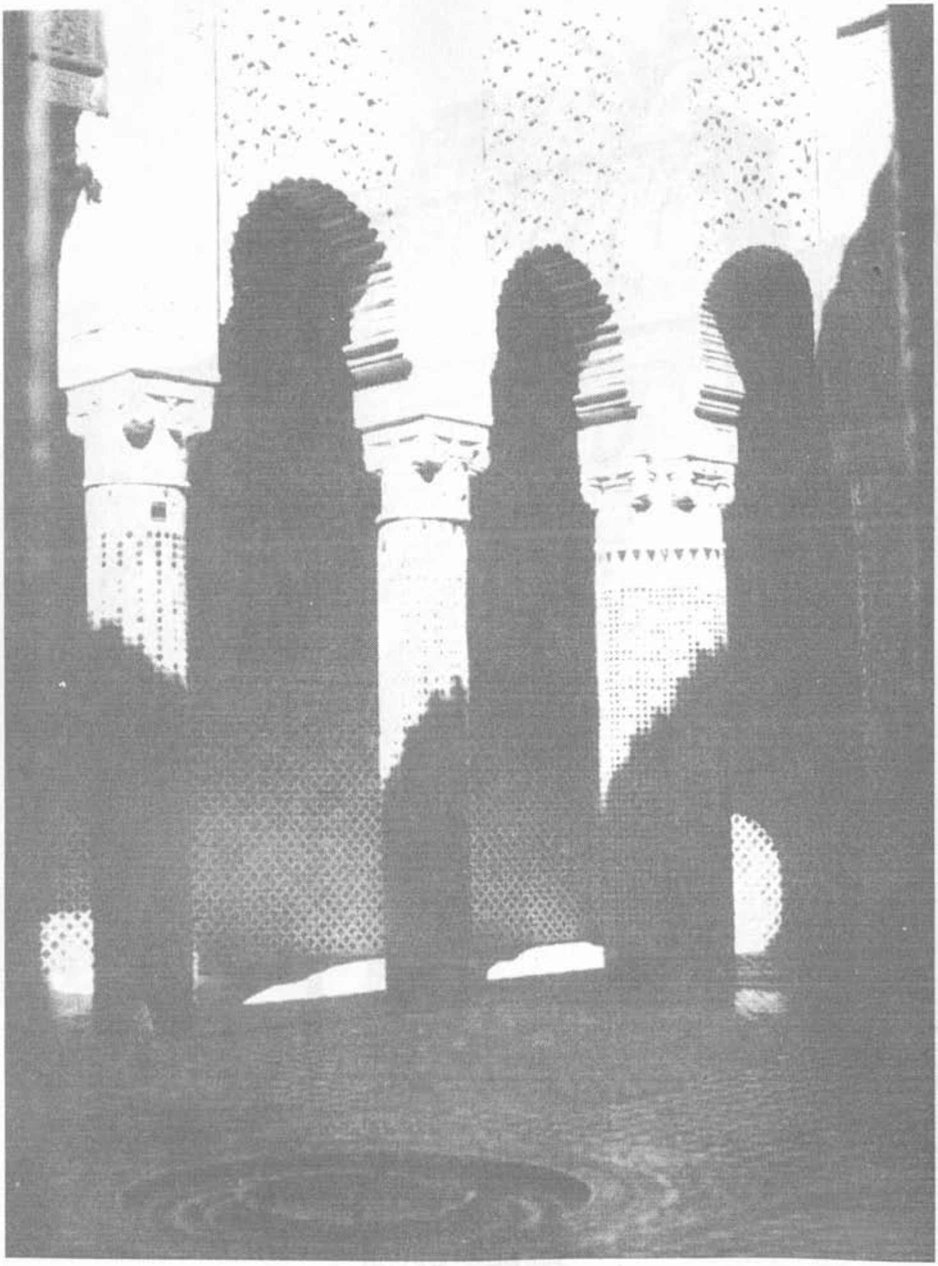

المدرسة المرينية بطالعة سلا

لوحة رقم 4

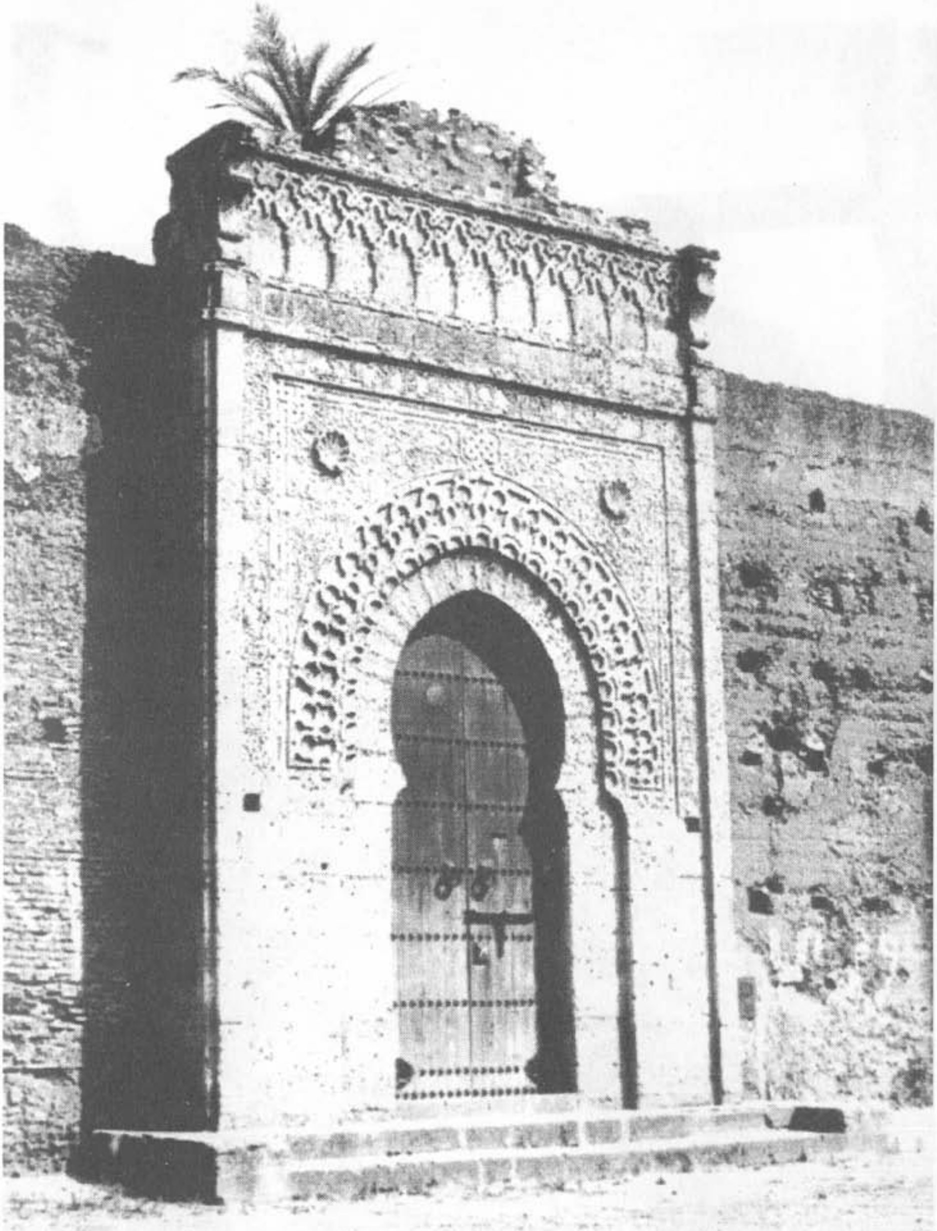

باب زاوية النُسّاك بسلا
صورة من كتاب «تاريخ الرباط»
تأليف جاك كايِي

لوحة رقم 5

فناء زاوية النساك

صورة من كتاب «تاريخ الرباط»

تأليف جاك كايي

لوحة رقم 6

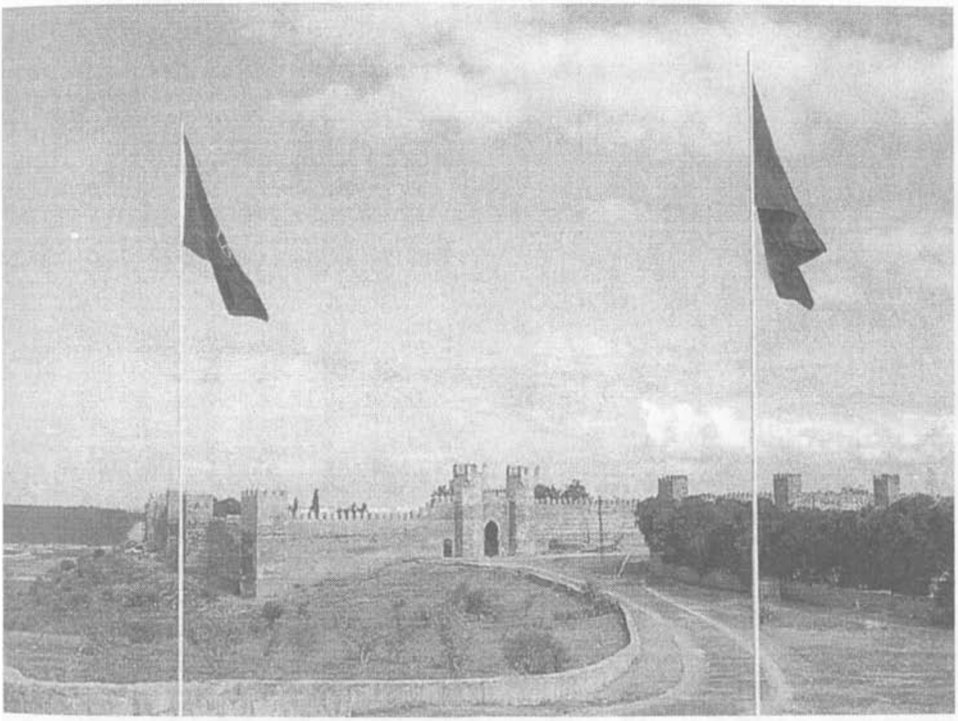

باب شالة وأسوارها - الرباط

لوحة رقم 7

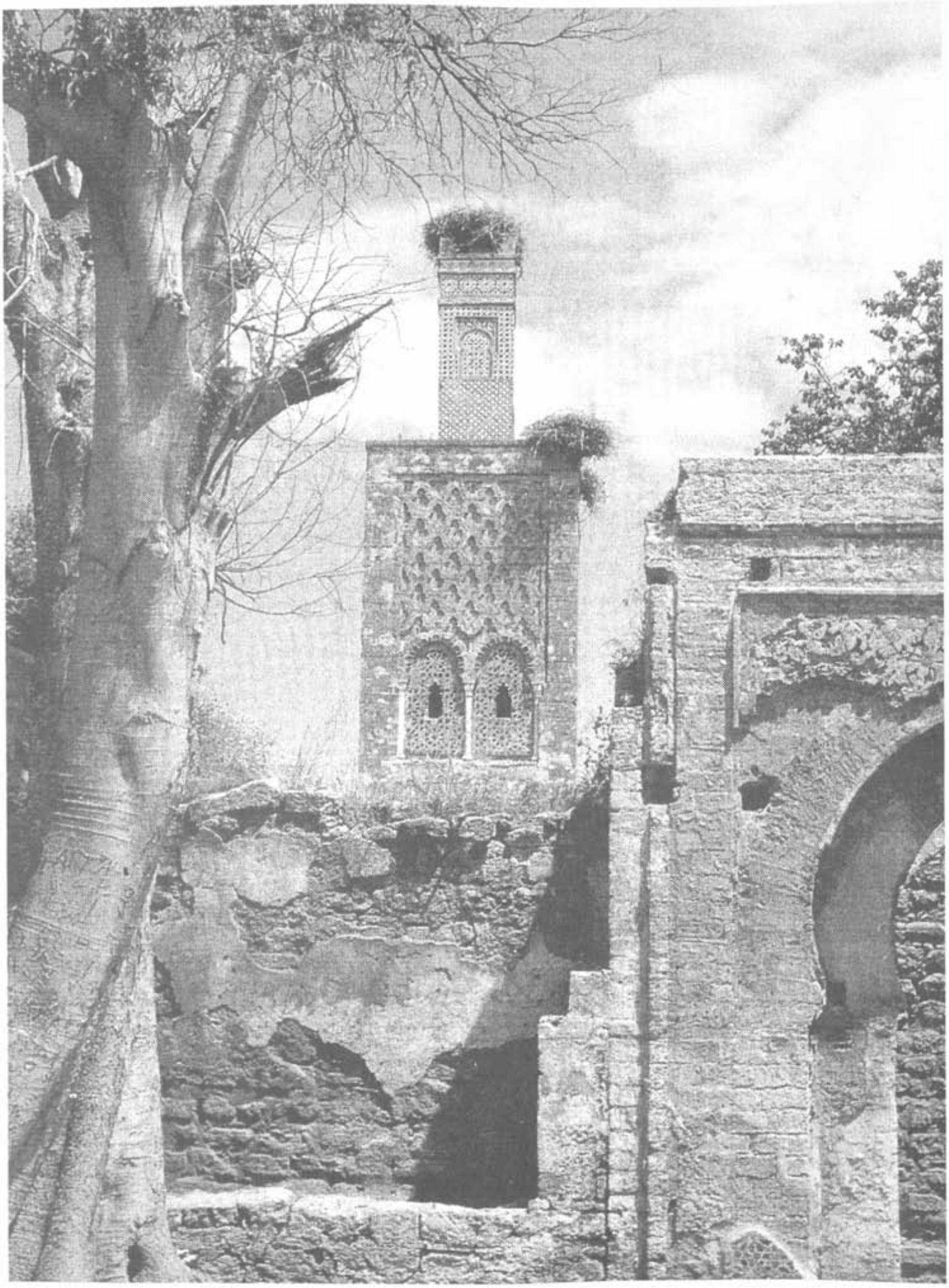

مسجد أبي الحسن المريني

لوحة رقم 8

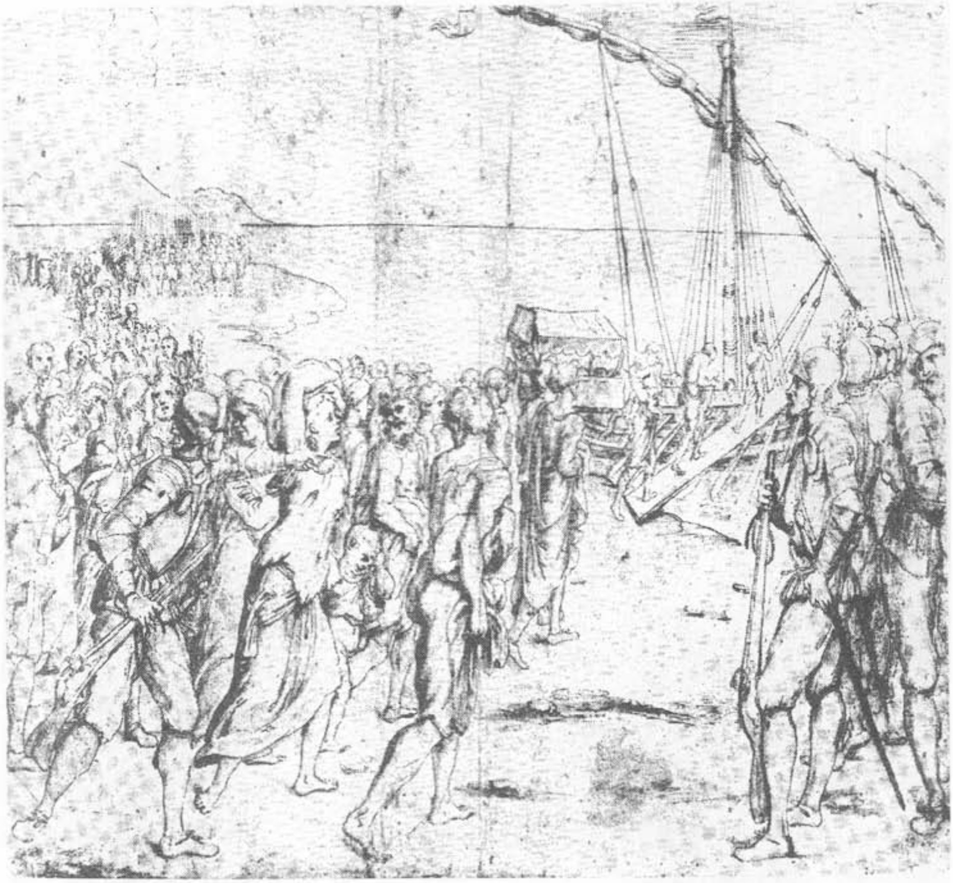

طرد المورسكيين من الأندلس

(متحف البرادو (Prado) بمدريد)

صورة من كتاب «الاوداية، حصن قراصنة سلا»

تأليف إيف مونلاهوك

لوحة رقم 9

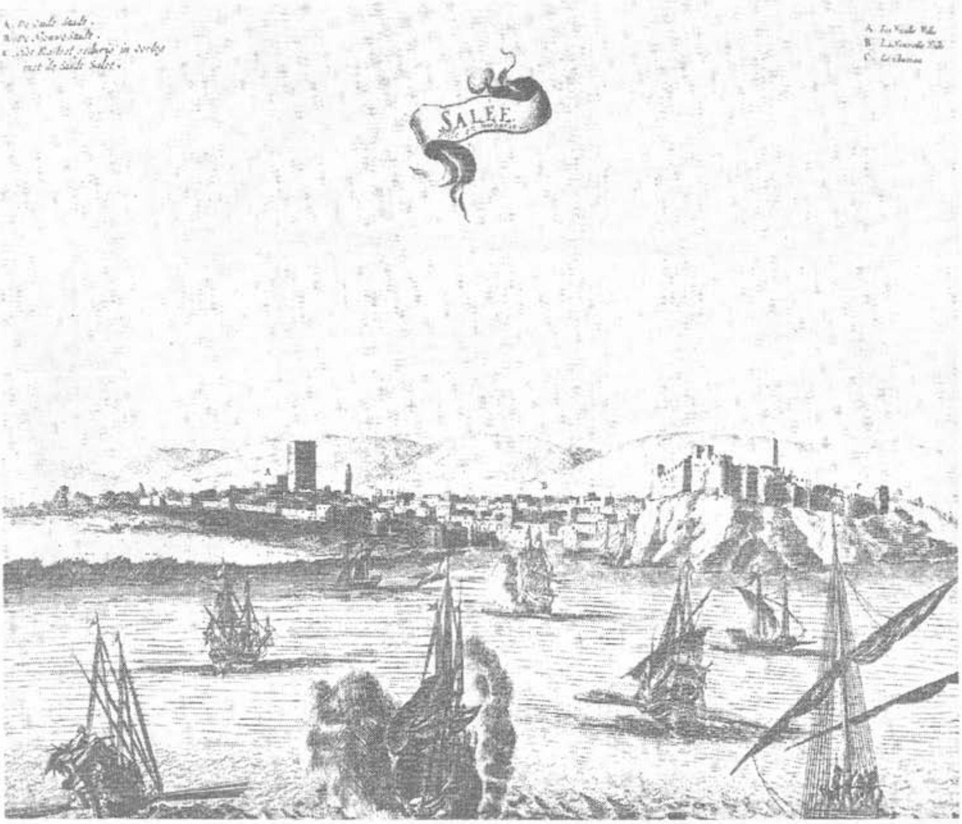

سلا في القرن السابع عشر الميلادي/الحادي عشر الهجري

متحف البحرية بباريس

صورة من كتاب «الاوداية، حصن قراصنة سلا»

تأليف إيف مونلاهوك

لوحة رقم 10

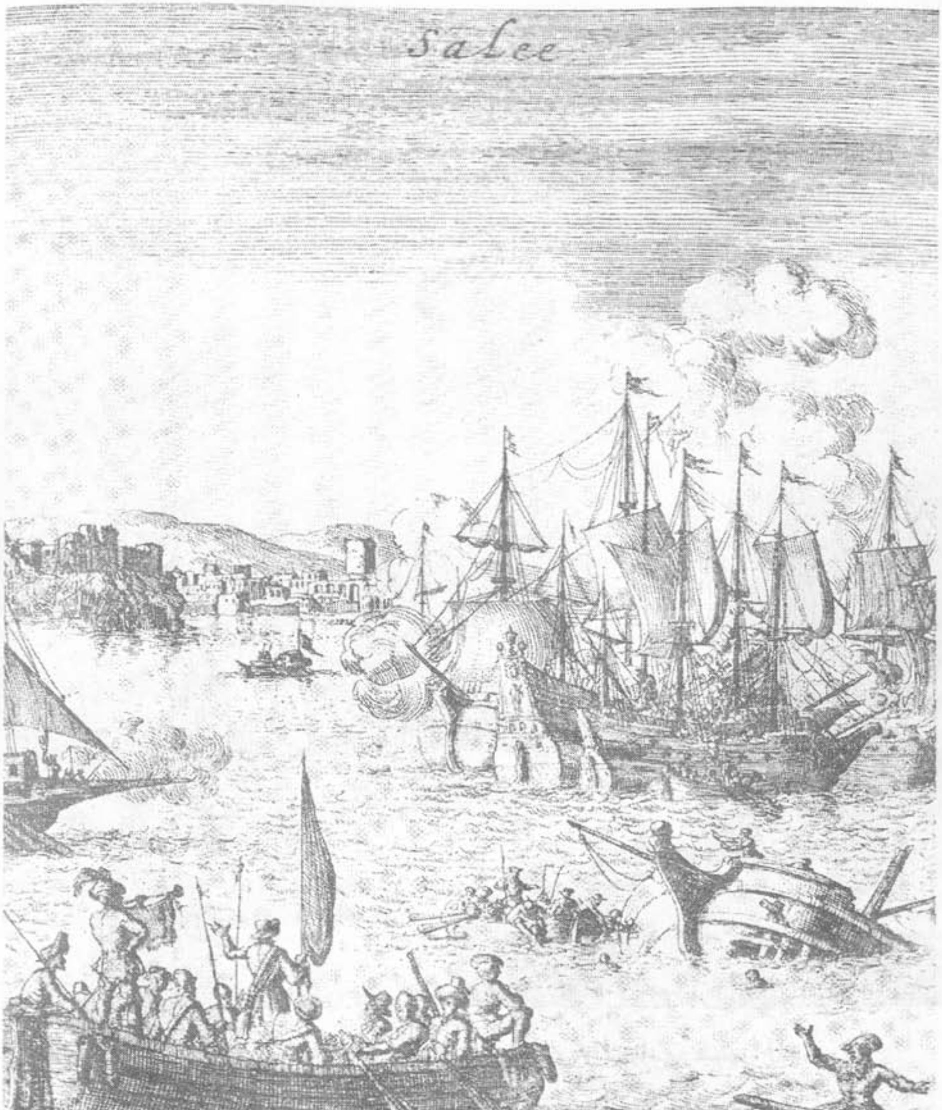

معركة بحرية أمام سلا

(متحف البحرية بباريس)

صورة من كتاب «الاوداية، حصن قراصنة سلا»

تأليف إيف مونلاهوك

لوحة رقم 11

توقيع السلطان المولى زيدان السعدي

(ينابيع تاريخ المغرب غير المنشورة)

صورة من كتاب «الاوداية، حصن قراصنة سلا»

تأليف إيف مونلاهوك

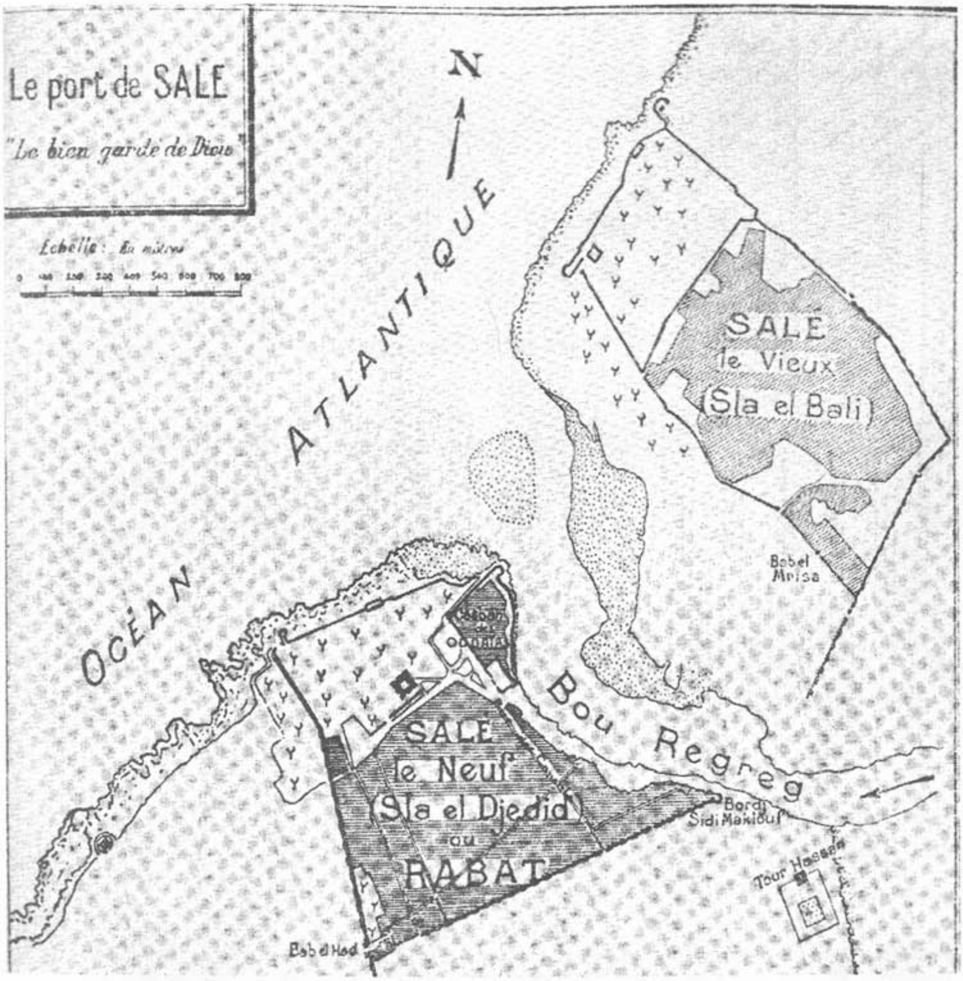

موقع القصبة ومرسى سلا

(متحف البحرية الفرنسية بباريس)

صورة من كتاب «الاوداية، حصن قراصنة سلا»

تأليف إيڤ مونلاهوك

الفهرس

الفصل الأول : عن مدينة سلا وآثارها في عهد المرينيين 3

المبحث الأول : سلا في عهد بني مرين 5

- استرجاع الأمير يعقوب بن عبد الله المريني لعدوتي سلا والرباط 5

- احتلال الإصبان لمدينة سلا 7

- الرسالة التي وجّهها المرتضى للفقيه أبي العباس العزفي

حين وقعت واقعة مدينة سلا 9

- فتح سلا وانتزاعها من يد الإصبان على يد أمير المسلمين

أبي يوسف رحمه الله 10

- بناء السور الغربي لمدينة سلا 13

- برج الدموع 14

المبحث الثاني : آثار بني مرين بسلا 17

- تمهيد 17

- دار الصناعة بسلا 18

- بابا المُرَيْسى 21

- تحويل دار الصناعة السلاوية إلى حارة يهودية 29

- تأسيس الملاح الجديد بمحل دار الصناعة السلاوية 32

- سور الأقواس المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا 33

- المدرسة المرينية العظمى قبلى المسجد الأعظم 40

- أحباس المدرسة المرينية بسلا 48
- زاوية النساك 53
- قرية صيبارة التي بنيت فيها زاوية النساك 63
- التعريف بأبي حاجة شيخ زاوية النساك بسلا 65
- زاوية الشيخ أبي زكرياء بسلا 68
- الزاوية الشريشية بسلا 69
- الجامع المريني بسلا 70
- جامع الزرقاء بسلا 70
- المارستان أو المدرسة الطبية المعروفة بفندق ءاسكور 71
- حبس الطائر اللقلق 75
المبحث الثالث : سلا ملجأ الصالحين في عهد بني مرين 79

الفصل الثاني : عن مدينة رباط الفتح وعمرانها
وآثارها في عهد بني مرين 81
مبحث الأول : رباط الفتح في عهد بني مرين 83
- تمهيد 83
- استيلاء بني مرين على مصب أبي رقراق وتمكنهم من رباط الفتح 84
- تردد ملوك بني مرين على رباط الفتح وإقامتهم به 86
- تردد أبي يوسف يعقوب المنصور على رباط الفتح 87
- السلطان أبو يعقوب يوسف المريني برباط الفتح 89
- السلطان أبو ثابث عمار بن عبد الله ابن يوسف المريني برباط الفتح 89
- السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق برباط الفتح 90
- السلطان أبو عنان برباط الفتح 90

- اتخاذ رباط الفتح رباطا للجيوش المرينية في حروبها الداخلية 91
- عمران رباط الفتح في عهد بني مرين 95
المبحث الثاني : آثار بني مرين برباط الفتح 99
- الجامع الكبير بسوق السباط بالرباط 99
- المارستان العزيزي 106
- السقاية المرينية بباب شالة 107
- الحمام الجديد 108
الفصل الثالث : عن شالة وقدسيتها وآثارها واتخاذها مدفنا لبني مرين،
وازدهارها في عهدهم وخرابها بعدهم 111
المبحث الأول : شالة وقدسيتها 113
المبحث الثاني : آثار بني مرين بشالة 117
- مسجد أبي يوسف يعقوب المنصور المريني 118
- أسوار شالة 118
- أبواب شالة 118
- الباب الأثري الكبير 119
- باب عين أجنة 121
- باب البساتين 121
- مسجد أبي حسن 122
- المنار 122
- قبة أضرحة الملوك 123
- قبة ضريح أبي الحسن 123
- دار الوضوء ماء عين شالة 125
- المدرسة أو دار الأضياف 125

- القصر ؟ 128
- تحصيل بعد التفصيل 129
- عمل أبي عنان بشالة 129
المبحث الثالث : مدافن بني مرين بشالة 131
- أم العز زوجة السلطان يعقوب المنصور 131
- السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور 132
- السلطان أبو يعقوب يوسف ابن أبي يوسف يعقوب 133
- السلطان أبو ثابت عامر بن عبد الله 134
- السلطان أبو سعيد عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق 135
- الحرة عائشة والدة أبي سعيد 136
- الأمير أبو مالك بن السلطان أبي الحسن 136
- شمس الضحى زوج أبي الحسن وأم أبي عنان 137
- السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق .. 138
- الوزير أبو زيان عريف بن أبي يحيى 147
المبحث الرابع : إزدهار شالة في عهد بني مرين 149
- شالة ملجأ الصالحين والزوار والمنقطعين 149
- مواسم شالة وأسواقها 151
المبحث الخامس : إهمال شالة في آخر الدولة المرينية 159
- انتهاك اللحياني لحرمة شالة واستيلاؤه على ذخائرها ونفائسها 160
المبحث السادس : خراب شالة في عهد السلطان المولى اليزيد
بن سيدي محمد بن عبد الله 165
المبحث السابع : بعض زوار شالة من الرحالين والكتاب الأجانب
وما وصفوها به 169

المبحث الثامن : مزارات شالة 173
- سيدي يحيى بن يونس 174
- سيدي عمرو المسناوي 174
- سيدي الحسن الإمام 174
- سيدي النعاس 175
- سيدي بومنينة 175
- سيدي علي أبو الشكاوي 175
- سيدي أحمد التاغي 176
- تسجيل شالة في الآثار القديمة بالمغرب 176
الفصل الرابع : عن العدوتين سلا ورباط الفتح في عهد الوطاسيين 179
المبحث الأول : سلا في عهد بني وطّاس 181
المبحث الثاني : رباط الفتح في عهد بني وطّاس 187

الفصل الخامس : عن العدوتين سلا ورباط الفتح في عهد السعديين وهجرة الأندلسيين إليهما وما نشأ بين هؤلاء من حروب داخلية ثم بينهم وبين العياشي 191
المبحث الأول : السعديون بالعدوتين سلا ورباط الفتح 193
المبحث الثاني : نظرة عامة عن حالة الإسلام والمسلمين بالأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية 195
المبحث الثالث : سقوط غرناطة وهجرة المسلمين من الأندلس 199
المبحث الرابع : هجرة الحورناشيروس والموريسكوس إلى المغرب، ونزولهم بالقصبة رباط الفتح 203
- الحورناشيروس 204

- الموريسكوس 207
- مراسيم الطرد 207

المبحث الخامس : استقرار الموريسكيين برباط الفتح 213

- ما كان يسمى بـ : «الجمهورية السلاوية الرباطية» 214

المبحث السادس : الحروب الداخلية بين الحروناشيروس والموريسكوس،
وتدخل العياشي فيها 219

المبحث السابع : رياسة أبي عبد الله العياشي بسلا وجهاده 223

- احتلال الإسبان للمعمورة واستغاثة السلاويين بالعياشي 225
- اجتماع الكلمة على العياشي ليقوم بفرضة الجهاد
وخلافه مع أهل الأندلس 226
- دار أبي عبد الله العياشي بسلا 228
- الباستيونان على ساحل البحر بسلا 229
- الغزوة الكبرى بحلق المعمورة 230

المبحث الثامن : حروب العياشي مع أندلس القصبة والرباط 233

- تجدد الحرب بين أندلس القصبة وسلا الجديدة،
وتدخل العياشي فيها مرة أخرى 236
- الحالة بالقصبة وسلا الجديدة بعد انسحاب العياشي
ورفعة الحصار عنهما 241

المبحث التاسع : المواصلة بين أبي عبد الله العياشي
وأبي عبد الله محمد الحاج الدلائي 245

المبحث العاشر : الخلاف بين العياشي والدلائي وأسبابه ومانشأ عنه 253

الفصل السادس : عن العدوتين سلا ورباط الفتح في عهد الدلائيين
وما نشأ بين هؤلاء وبين العياشي من حروب 257

المبحث الأول : الدلائيون بالعدوتين سلا ورباط الفتح 259
- الحرب بين الدلائي والعياشي واستشهاده وبقية أخباره 260
- ثناء الناس على أبي عبد الله العياشي 264
إتصافه بالتقوى وما نسب له من الكرامات 269
- ذرية أبي عبد الله العياشي وأتباعه 270
المبحث الثاني : الحالة بالعدوتين السلاوية والرباطية،
بعد استيلاء الدلائيين عليهما 275
- إخراج الدلائيين لسائر الأندلسيين من القصبة
لتدبدب موقفهم من حكمهم بها 275
- ولاية الأمير عبد الله بن محمد الحاج الدلائي على العدوتين
سلا وباط الفتح 276
- التعريف بالقائد الرئيس الحاج سعيد أجنوي 278
- انسحاب الأمير عبد الله الدلائي من العدوتين
واستيلاء الخضر غيلان عليهما 280
- تعليق وتعقيب 285
- ملحق 289
- الفهرس 303

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - 2006